الدكتور أحمد سوسة

ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق

دراسات



تقديم

قلة هم الكتّاب الذين تناولوا مواضيع حساسة يتداخل فيها التاريخ مع الدين، أو يتقاطع، بمثل الجرأة التي بحث فيها الدكتور أحمد سوسة مواضيع تتعلق بتاريخ اليهود واليهودية في المشرق العربي. وفي كتابه الموسوعي «العرب واليهود في التاريخ» كان رائداً في الفصل بين الأسطورة والحقيقة التاريخية في تاريخ اليهود واليهودية وعلاقتهما بفلسطين في مختلف المراحل التاريخية، ففنَّد بالأسانيد العلمية والمنطق التاريخي روايات أسطورية درج العالم على التعامل معها كوقائع عبر قرون عديدة واستخدمت كتبرير لزرع كيان يهودي غريب في فلسطين.

وفي هذا الكتاب الذي أصدره لأول مرة مركز الدراسات الفلسطينية في جامعة بغداد عام ١٩٧٨، يتتبع الدكتور سوسة بذات الجرأة وذات المنطق العلمي تاريخ الوجود اليهودي في العراق منذ بدايته على عهد الأمبراطورية الأشورية في القرن الثامن قبل الميلاد عندما جاء الملك الأشوري سنحاريب بالأسرى من اليهود من حملاته على فلسطين إلى بلاد آشور في شمالي العراق، مروراً بالأمبراطورية البابلية الكلدانية التي جاءت بمزيد من الأسرى إلى بابل على عهد الملك نبوخذ نصر في القرن السادس قبل الميلاد، ثم عهود التلمود في ظل الحكم الفارسي، وانتهاءً بالعهد الإسلامي الذي جاء في فجره الكثير من يهود الجزيرة العربية إلى العراق على عهد الخليفة عمر بن الخطاب. كما يتضمن الكتاب بحثاً مفصلاً في تاريخ المسيحية في المشرق، لما له من صلة بموضوع الكتاب، والانقسامات التي صاحبت تطورها وبخاصة كنيسة العراق النسطورية، مؤكّداً بالدلائل التاريخية تحول الغالبية العظمى من يهود السبي الأشوري إلى المسيحية في القرون الأولى لظهورها. كما يتضمن بحثاً مسهباً في انتشار اليهودية في جزيرة العرب ليبين بالشواهد التاريخية كون يهود الجزيرة العربية عرباً تهودوا

عن طريق التبشير بخلاف الاعتقاد السائد أنهم يهود هاجروا من فلسطين.

وتضم هذه الطبعة الجديدة التي تصدرها المؤسسة العربية للدراسات والنشر إضافات كان المؤلف قد تركها بخط يده في أوراق منفصلة بين صفحات نسخة من الطبعة الأولى تحمل أيضاً بعض التصحيحات للأخطاء المطبعية، وقد وقعت عليها لحسن الحظ قبل أن أُتمم مراجعة مسودة الطبعة الجديدة فأدخلتها حيثما كان مكانها مؤشراً. كذلك فقد أعددت للكتاب دليلاً مفهرساً بأسماء الأشخاص والأمكنة وغيرها كما وردت في الترقيم الجديد لصفحات الطبعة الجديدة بعدما أخذت المسودة شكلها النهائي، لما للدليل من فائدة للقارئ، ومن الله التوفيق.

د. عالية أحمد سوسة

بغداد/ عمان، آذار/ مارس ٢٠٠٠

المقدمة

إن التاريخ القديم ليهود العراق يكوِّن صفحة مظلمة من تاريخ الحضارة البشرية جمعاء أفلح اليهود بطمس حقيقتها أكثر من ألفين وخمسمائة عام، إذ دوَّنوا في الأسر في بابل تاريخاً زائفاً لأصل اليهود ونسبهم وصلتهم بالأقوام الأخرى وبالعالم القديم وفق أهوائهم ورغباتهم الدنيوية ونزعاتهم الدينية، وقد قَبِل العالم كله هذا الزيف وظلَّ الباحثون والكتّاب يردّدونه وكأنه حقائق تاريخية، حتى ظهرت الاكتشافات الآثارية الحديثة فكشفت لنا زيف الادعاءات اليهودية كحقهم في أرض العرب وما إلى ذلك من الادعاءات الوهمية. وهذه المدونات المكتشفة تسجل أحداثاً بلغات الأقوام القديمة وقد عاصرت تلك الأحداث ذاتها كالسومريين والآكاديين والكنعانيين الفينيقيين والمصريين والحثيين والبابليين والأشوريين والكلدانيين وذلك قبل تدوين التوراة بعدة قرون. وتزودنا هذه المراجع والبينات التي كانت تعوز من سبقنا من الباحثين للتوصل إلى بعض الحقائق التاريخية عن العصور القديمة ومن ضمنها التاريخ القديم ليهود العراق والخروج بها من دائرة الحدس والظن إلى صلب الحقيقة الواقعة.

ولا توجد حسب علمي أية دراسة علمية لتاريخ يهود العراق القديم، فالمصدر الوحيد الذي يعول عليه الباحثون من عرب وأجانب هو ما يلقنه الصهاينة عن تاريخ اليهود القديم، وهو ادعاؤهم خلافاً للواقع التاريخي بأن العراق وطن اليهود الأصلي لأنهم هاجروا مع إبراهيم الخليل من العراق إلى فلسطين قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد وكان عددهم أربعة آلاف نسمة[1].

---

(١) انظر: Mordecai I. Soloff, «How The Jewish People Gerw up»? «تاريخ اليهود كما يلقنه الصهاينة لأبنائهم» بقلم شريف يوسف، مجلة العربي الكويتية، العدد ١٠٨، تشرين الثاني ١٩٦٧، ص ١٠٥ ـ ١١١.

وهكذا ربطوا نسبهم وأصلهم بإبراهيم الخليل وبالعراق على اعتبار أن العراق كان موطنهم الأصلي الذي هاجروا منه. هذا في حين أن المعلومات التي تركها لنا الأقدمون تدل على أن اليهود ظهروا في العراق لأول مرة في عهد الأشوريين بصفة أسرى في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد، أي بعد عصر إبراهيم الخليل بألف ومائتي سنة لأن إبراهيم الخليل ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد حسب رأي الخبراء المحدثين.

هذا في حين أن التوراة ذاتها تؤكِّد بكل صراحة أن إبراهيم الخليل هاجر من العراق بمفرده فذهب ومعه ساراي امرأته ولوط ابن أخيه[٢]، ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره. لذلك ليس لليهود أي تعاصر مشترك مع إبراهيم الخليل.

ويدَّعي الصهاينة فيما يكتبون وينشرون في وسائل إعلامهم وبخاصة ما يلقنونه لطلاب المدارس أن أرض فلسطين ملك اليهود عبر التاريخ منحها لهم الرب في الكتاب المقدس[٣]. هذا في حين أن أرض فلسطين باعتراف التوراة ذاتها كانت أرض غربة بالنسبة إلى آل إبراهيم وآل إسحق وآل يعقوب، إذ كانوا مغتربين في أرض فلسطين بين الكنعانيين سكانها الأصليين، والتوراة تتحدث عنهم بصفتهم غرباء وافدين طارئين على فلسطين[٤]. ثم إن أبناء يعقوب الاثني عشر ولدوا كلهم باعتراف التوراة في فدان آرام (منطقة حران)[٥] حيث مكث أبوهم يعقوب المسمَّى بإسرائيل عشرين سنة[٦]. ففي كل ذلك دلائل وافية على أن وطن بني إسرائيل الأصلي لم يكن فلسطين بل منطقة حران الآرامية حيث كانت تقطن العشائر الآرامية، وأن جميع الأخوة الاثني عشر الذين ورد ذكرهم في التوراة ولدوا ونشؤوا خارج فلسطين. ونحن حين نؤكِّد ذلك نستند إلى مرجع التوراة ذاتها التي تعترف بصراحة تامة بذلك. هذا إذا صحَّ أن اليهود يرتبط أصلهم بإبراهيم وإسحق ويعقوب كما يدعون.

---

(٢) تكوين ١٢: ١؛ ٢٤: ٤ ـ ٥.

(٣) انظر: بابوريش «إسرائيل معالم البلاد وجغرافيتها» للصف الثامن، ص ١٢٧؛ عزرا حداد وإلياس دانيال، التاريخ للصف الخامس، ص ٢٠٠.

(٤) تكوين ١٢: ١٠؛ ٢: ١؛ ٢١: ٢٤؛ ٢٢: ١٩؛ ٢٣: ٤؛ ٢٦: ١ ـ ٢؛ ٣٥: ٢٧؛ ٣٦: ٦ ـ ٧؛ ٣٧: ١.

(٥) تكوين ٣٥: ٢٣ ـ ٢٦.

(٦) تكوين ٣٢: ٢٨.

ولم يكتف الصهاينة بالادعاء أن فلسطين وطنهم منحها لهم ربهم يهوه والادعاء بأنَّ العراق موطنهم الثاني، بل راحوا يدَّعون أن شبه جزيرة العرب وطن اليهود أيضاً ومنها ذهبوا إلى فلسطين ففتحوها (كذا). وكان هذا الفتح سبباً في نشر الثقافة والحضارة في فلسطين (كذا). فيقول الدكتور إسرائيل ولفنسون في كتابه «تاريخ اللغات السامية» (ص ٥) وهو يهودي صهيوني: «إن الهجرة الإسرائيلية صدرت من الجزيرة العربية وفتحت بلاد فلسطين وأن هذا الفتح كان سبباً لتقلبات اجتماعية ودينية كثيرة كبيرة الأثر في التاريخ العام». وهذا نموذج آخر من نماذج تلاعب الصهاينة بالتاريخ والافتراء عليه لإشباع رغباتهم وشهواتهم العنصرية. ونحن لا ندري كيف يوفق ولفنسون بين نزوح اليهود من مصر في عهد النبي موسى كما جاء في التوراة وبين القول بهجرتهم من جزيرة العرب؟.. أيهما الصحيح؟.. والسؤال الذي يفرض نفسه هنا أيضاً: كيف وصل اليهود إلى جزيرة العرب؟.. فالثابت تاريخياً أن يهود جزيرة العرب كانوا عرباً تهودوا بطريق التبشير وهم في ديارهم وبقوا محافظين على قوميتهم ولغتهم العربية من غير أن تكون لهم أية صلة مع يهود فلسطين. ويكفي أن ننوه هنا بأنَّ ولفنسون هذا أصبح بعد قيام دولة اسرائيل مشرفاً على البعوث الإسرائيلية إلى إفريقيا، واختيار ولفنسون لهذا المنصب بالذات ـ هو اختيار له مغزاه من جانب إسرائيل. والغريب أن كتاب ولفنسون هذا يُعد اليوم مرجعاً عند الباحثين وحتى الكتّاب العرب يعتمدون عليه ويردّدون ما جاء فيه من مثل هذه الأقوال التي لا تستند إلى أي واقع تاريخي[7]. وقد أخذ الباحثون بهذا الخلط واعتبروه من واقع التاريخ حتى صارت أهم كتب المدارس والكليات تردّد هذا الادعاء الباطل. فكتاب برنز «حضارات الغرب» الذي يُدرّس الآن في جميع الكليات والمدارس في أوروبا وفي أمريكا وحتى في الجامعات في البلاد العربية (وقد تجاوز عدد طبعاته العشر طبعات) جاء فيه ما يؤيِّد كلام ولفنسون فيقول ما نصه: «إن أكثر الباحثين يجمعون على أن الجزيرة العربية هي وطن اليهود الأصلي»[8]. وبذلك تجاهل هو الآخر ما ورد في التوراة عن نزوح اليهود من مصر.

---

(٧) إن ولفنسون كان يدرس تاريخ اللغات السامية في جامعة القاهرة وكان قد حصل على الدكتوراه من هذه الجامعة نفسها تحت إشراف الدكتور طه حسين، وله غير كتاب «تاريخ اللغات السامية» كتاب «تاريخ اليهود في بلاد العرب» وكتاب «موسى بن ميمون».

(٨) E.M. Burns, «Western Civilizations,» 7 Th ed. N.Y., p. 98.

وتستند هذه الادعاءات إلى التوراة والتلمود اللذين دونهما الأحبار اليهود في الأسر وما بعد الأسر في بابل، وهما يؤكّدان صلة القربى بين العرب واليهود وأن العرب واليهود ينحدرون من أصل واحد وأن الرب قطع مع أبرام (إبراهيم الخليل) باعتباره جد العرب واليهود على حد قولهم ميثاقاً يقول «النسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات»[9]. فيشاهد المرء اليوم نقشاً على مبنى البارلمان الإسرائيلي في تل أبيب يحمل هذه العبارة: «من الفرات إلى النيل. . . هذه بلادكم يا أبناء إسرائيل». وأعلن بن غوريون في أحد الاحتفالات بتخرج طلبة الكلية الحربية في إسرائيل قائلاً: «لقد جاء الشعب اليهودي ليبقى في أرض أجداده التي تمتد من النيل إلى الفرات». وقال في كلمة الى الطلاب: «هذه الخارطة (خارطةِ فلسطين) ليست خارطة شعبنا إن لنا خارطة أخرى عليكم أنتم طلاب المدارس اليهودية وشبابها أن تحولوها إلى واقع يجب أن يتوسع شعب إسرائيل من الفرات إلى النيل»[10]. وعلى هذا الأساس اعتبر الصهاينة جزيرة العرب من ضمن هبة الرب[11].

وهناك قصص وأساطير عن أصل دخول اليهود إلى جزيرة العرب وردت في كتب أهل الأخبار نقلاً عن مصادر يهودية أن موسى أرسل جيشاً إلى الحجاز لمقاتلة العمالقة فاستقر ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق. ومما روي أيضاً أن داود هاجر مع سبط يهوذا إلى خيبر وتملّك هنالك ثم عاد إلى إسرائيل[12]. وقد استقى أهل الأخبار ما رووه عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى، وما ذكروه عن إرسال جيش إلى هذه المنطقة، ثم ما رووه عن سكن اليهود القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز من التوراة[13]. وقد حسب أهل الاخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء، ومن سكان أهل الحجاز، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه المنطقة،

---

(٩) تكوين ١٥: ١٨ ـ ١٩. انظر أيضاً: خروج ٢٣: ٣١؛ التثنية ١: ٧ و١١: ٢٤؛ ملوك الأول ٤: ٢١، ٢٤؛ أخبار الأيام الأولى ١٨: ٣ ـ ٨؛ صموئيل الثاني ٨: ٣، ٨، ١٢.

(١٠) «إسرائيل والمشكلة الفلسطينية»، تأليف فرانتز شايديل، ترجمة محمد جديد، دمشق ١٩٧٠، ص ٩، ١٠، ٧٥.

(١١) بابوريش، المرجع السابق ذكره، ص ١٢٧؛ عزرا حداد وإلياس دانيال المرجع السابق ذكره، ص ٢٠٠؛ سلمان حمود فلاح، «مدنيات إسرائيل» للصفوف ٤ ـ ٨، ص ٣٨.

(١٢) الأغاني ١٩: ٩٤؛ تاريخ ابن خلدون ٢: ٨٨.

(١٣) أصموئيل ١٥: ٥ وما بعد.

وأن اليهود قد سكنوها منذ أيام موسى[١٤].

وما هذه الأقوال وأمثالها إلاّ قصصٌ كان يروجها اليهود في جزيرة العرب لإثبات وشائج القربى بين العرب واليهود وترغيب عرب الجزيرة في الأخذ باليهودية على أساس أن اليهود قد سكنوها منذ زمن النبي موسى، وأنهم «ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم، وأنهم كانوا ذوي بأس شديد، وأن تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين»[١٥].

والثابت من المصادر التاريخية التي بين أيدينا أن يهود الجزيرة العربية كانوا عرباً تهودوا لا يهوداً مهاجرين من فلسطين، فقد اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير شأنهم في ذلك شأن العرب الذين صبؤوا إلى النصرانية.

لقد استغل الصهاينة الجهل المطبق السائد بين طبقات الشعوب بتاريخ اليهود وأغراض الصهيونية، فاحتكروا لأنفسهم ولأعوانهم من الباحثين والكتّاب البحث في هذا الموضوع عبر الزمن الطويل فدونوا ما راق لهم أن يدونوه عن تاريخهم وتاريخ اليهودية وارتباطاتها السياسية مع العالم، بحيث أصبح الناس لا يعرفون من هذا الموضوع غير ما أُريد لهم أن يعرفوه، واذا ما أقدم أحد الباحثين وخاض في هذا الموضوع مبدياً معلومات تاريخية لغير صالح الصهيونية فمصيره التعرُّض لتهجم شخصي واتهامه بشتى التهم وفي مقدمتها اتهامه باللاسامية مع تشويه سمعته.

إن الصهيونية تستند على الدين اليهودي في المطالبة بفلسطين، فتزعم أن التوراة قد منحتهم أرض فلسطين هدية من ربهم يهوه لتكون وطناً لشعبه المختار. وعلى هذا الأساس هم يملكون الحق المقدس لاحتلالها بالقوة وطرد سكانها بل إبادتهم ليستقروا فيها. وهذا ما تقوم به الصهيونية اليوم تنفيذاً لذلك. ولما كان هذا الزعم يستند على التوراة التي بين أيدينا وهي التوراة التي كتبها الحاخامون في بابل في وقت لاحق تحقيقاً لأغراض سياسية معينة فلا بدَّ من تفهم تاريخ التوراة على حقيقته (مَن دوَّنها، وكيف ومتى دوّنت، وما هي الأهداف الرئيسية من تدوينها؟..) وبحث هذا الموضوع بالطريقة العلمية

---

(١٤) الدكتور جواد علي «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ١٠.

(١٥) المرجع السابق، ٦: ١٠.

الحديثة. وأحسن مَن عبَّر عن هذه الناحية داعياً إلى ضرورة تفهم هذا الموضوع على حقيقته العقاد حيث يقول ما نصه: «إن أقوى دعامة يعقد عليها الصهيونيون في دعايتهم بين الأمم الغربية، وأُمم أمريكا الشمالية والجنوبية على الخصوص، هي دعامة الجهل المطبق بكل شيء يتعلق بالصهيونية، جهل مطبق بتاريخ اليهود، وجهل مطبق بحقيقة الأحوال في فلسطين، وجهل مطبق بأغراض الصهيونية من إنشاء (الوطن القومي) في أرض الميعاد المزعوم، جهل مطبق لا ينحصر في طبقات الدهماء وأشباه الدهماء بل يشمل كثيراً من المتعلمين وأشباه المتعلمين. وربما كان هناك أُناس من المتعلمين الذين عرفوا شيئاً عن تاريخ اليهود، وشيئاً عن حقائق الأحوال في فلسطين، ولكنهم لا يحضرون ما عرفوه على بالهم، لأنهم لا يكترثون به ولا يجدون من مزاولات حياتهم اليومية ما يضطرهم أن ينظروا إليه نظرة مراجعة واستقصاء... على هذا الجهل، أو على هذا العلم الذي يشبه الجهل، يقصد الصهيونيون في الترويج لدعوة الوطن القومي في فلسطين. فهم يستدرون عطف الغربيين بتصوير الشدائد التي يتعرضون لها في كل مكان، وتصوير فلسطين كأنَّها المأوى الوحيد الذي يعصمهم من هذه الشدائد، ويتيح لهم في ربوعها حياة الحرية والسلام»[١٦].

وفي ذلك أيضاً تقول الباحثة بديعة أمين في كتابها «المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية» (ص ١٠ ـ ١١) ما نصه: «لقد دأب الكتّاب الصهاينة ودعاة الصهيونية على تحريف الحقائق التاريخية وتشويهها بشكل يضمن تضليل الرأي العام العالمي وكسبه من جهة، ويؤدِّي من جهة أخرى، إلى طمس تلك الحقائق إلى الأبد. ولا نبتعد عن الحقيقة إن قلنا أن قطاعات لا يستهان بها من الرأي العام العربي، الذي تعتبر القضية الفلسطينية بالنسبة له قضية مصيرية ما زالت رؤيتها لما يسمَّى بالمشكلة اليهودية رؤية ضبابية مشوشة بعيدة كلياً عن الصواب. بل وأكثر من ذلك، فإنَّ عملية التزييف التاريخية الكبرى التي رافقت المشكلة اليهودية بلغت من الدقة والعمق والشمول درجة لم يكن من المتعذر معها أن نجد دراسات وتحليلات لكتّاب ذوي نظرة علمية وهي تكشف عن واقع مؤلم، هو أن جهاز التضليل الصهيوني استطاع لحد ما أن يلف في دوامته عدداً غير قليل من أولئك الكتّاب... وقد يكون موضع استغراب أكبر أن نجد أحياناً ـ وربما في معظم الأحيان كتّاباً عرباً يسيرون من حيث لا يدرون، في نفس الطريق التي

---

(١٦) انظر كتابه «إبراهيم أبو الأنبياء».

اختطتها أجهزة الدعاية والتضليل الصهيونية، وهم يحسبون أنهم يفضحون النوايا الصهيونية الاستعمارية».

والذي استهدفته من هذا البحث «ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق» كشف الحقائق التاريخية لتوضيح زيف ادعاء اليهود بأنَّ تاريخهم يبدأ في هجرتهم من العراق مع إبراهيم الخليل فهو ادعاء باطل لا يستند إلى أي سند تاريخي ولا أساس له من الصحة، كما أن ادعاءاتهم بأن يهود الجزيرة مرتبطون عنصرياً بيهود فلسطين وأنهم هاجروا من فلسطين إلى جزيرة العرب وذلك بغية ربط صلة يهود فلسطين بالعرب ليس له نصيب من الصحة أيضاً.

وختاماً أود أن أُضيف بأنه لا يصح والحالة هذه أن يبقى العرب في معزل عما يبحثه الكتاب من اليهود وأعوانهم في موضوع يتعلق بصميم تاريخ الأمة العربية، وإني أرى أن الوقت قد حان بأن يدخل العرب حلبة المعركة ويناقشوا ويبحثوا هذه المواضيع التاريخية الحيوية بالطريقة العلمية التي هي طريقة هذا العصر كي تساعدهم على مجابهة الادعاءات الصهيونية الوهمية بالسلاح العلمي المبني على أُسس رصينة موضوعية. ومن الله التوفيق.

أحمد سوسه

الفصل الأول

أقدم وجود
لليهود في العراق

إن أقدم وجود لليهود في العراق يرجع إلى عهد الأمبراطورية الأشورية العراقية الأخيرة الذي دام ثلاثة قرون ما بين سنة ٩١١ - ٦١٢ ق.م. وذلك حين حرّر الأشوريون فلسطين من اليهود في عدة حملات قاموا بها على فلسطين ونقلوهم أسرى إلى شمالي العراق في أماكن جبلية نائية وأحلُّوا محلهم أقواماً من مختلف أنحاء الأمبراطورية الأشورية.

الفصل الأول

أقدم وجود لليهود في العراق

١ ـ تمهيد.

٢ ـ أقدم وجود لليهود في العراق.

أ ـ عهد الانقسام في فلسطين.

ب ـ الأمبراطورية الآشورية الأولى (٩١١ ـ ٨٢٤ ق.م).

ج ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥ ـ ٦١٢ ق.م).

٣ ـ اليهود في الأسر في آشور.

٤ ـ النبي ناحوم أقدم أنبياء اليهود في العراق.

٥ ـ بقايا يهود المنطقة الشمالية من العراق وتهجيرهم إلى فلسطين.

٦ ـ إمارة حدياب في شمالي العراق.

٧ ـ موجز تاريخ إمارة حدياب.

٨ ـ موجز تاريخ أربيل عاصمة حدياب.

٩ ـ التبشير بالنصرانية بين اليهود المسبيين في آشور (حدياب).

١٠ ـ أصل المسيحيين النساطرة في جبال كردستان وتسميتهم باسم «أثوريين».

١١ ـ دراسة الدكتور غرانت في أصل النساطرة.

١٢ ـ زمن وجود النساطرة في مناطقهم الجبلية.

١ ـ تمهيد

يذكر اليهود في كتبهم التي يعلّمونها للنشء الجديد، أو التي ينشرونها بين الناس عن تاريخهم القديم «أن الشعب اليهودي نزح من العراق (بلاد الرافدين) إلى فلسطين في حدود الألف الرابعة قبل الميلاد (أي قبل حوالى ستة آلاف عام) بقيادة إبراهيم الخليل عليه السلام، ولم يكن عددهم آنذاك يتجاوز أربعة آلاف شخص»[١]. وهذه التلقينات والمفاهيم نفسها تُدرّس اليوم في الجامعات والكليات الأوروبية والأميركية كحقائق تاريخية من غير أن يناقش أحد هذا الادعاء الزائف، لأن الأساتذة الذين يضعون كتب التاريخ القديم هم على الأكثر من الصهاينة المتعصبين للتوراة والتعاليم التلمودية أو من المسيحيين المتعصبين للعهد القديم. وقد قَبِل الباحثون العرب هذا الهراء على علاته وصاروا يردّدون ذلك الادعاء الزائف من غير تمحيص ومن غير أن يقفوا لحظة ليفكروا ويسألوا أنفسهم: أين كان اليهود في عصر إبراهيم الخليل؟.. ومن أغرب ما قِيلَ في ذلك هو تعيين عدد اليهود الذين رافقوا إبراهيم الخليل في رحلته من العراق وقد اعتبروا على هذا الأساس أن اليهود يعودون إلى المكان الذي نشأ فيه إبراهيم الخليل وهو أرض العراق. ومن هؤلاء الأستاذ أحمد زكي البدوي الذي يقول ما نصه بالحرف الواحد: «رحل إبراهيم متزعماً الإسرائيليين (اليهود) إلى فلسطين»[٢]. وقد نقلت نشرة أصدرتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية عن فلسطين من أرشيفها في طبعتها الثانية[٣] ما يُشير إلى أن «إبراهيم وأهله هاجروا من مدينة أور في العراق سنة ١٨٠٦ قبل الميلاد وكان عدد اليهود الذين رافقوه في هذه الهجرة قليلاً... وقد انتهت هذه الهجرة عام ١٦٥٦». وقد ذكر الأستاذ إميل الغوري عضو الهيأة العربية العليا الكلام نفسه[٤]. ويلاحظ أنه لم يزل هناك بعض أساتذة التاريخ عندنا يأخذون بالنظرية القائلة بأن تاريخ اليهود يبدأ بسفر إبراهيم الخليل من أرض العراق، فقد أفاد الاستاذ الدكتور محمد رشيد الفيل صاحب الدراسات الجغرافية والتاريخية القيِّمة بأنَّ «تاريخ اليهود يبدأ بسفر إبراهيم من أرض الكلدانيين غرباً إلى أرض كنعان»[٥].

---

(١) انظر كتاب سولوف بعنوان «كيف نما الشعب اليهودي» (مصدر سبقت الإشارة إليه).
(٢) «تاريخ التطور الديني»، ص ٣٣.
(٣) النشرة رقم (١) الطبعة الثانية، ص ٦.
(٤) أميل الغوري، «فلسطين»، وزارة الإلارشاد القومي العراقية، رقم ٤٤، ١٩٦٣.
(٥) «اليهود وعلم الأجناس»، ص ٨٢.

لقد اعتاد أكثر الكتّاب والمؤرخين ومنهم الباحثون العرب، أن يعتبروا هجرة إبراهيم الخليل من العراق وهجرة جماعة موسى من مصر وكأنهما هجرتان لقوم واحد او لجماعة واحدة، فقالوا هجرة العبرانيين بمعنى اليهود الأولى، أي هجرة إبراهيم الخليل، وهجرتهم الثانية، أي خروج جماعة موسى من مصر وشتان ما بينهما، اذ لا توجد أية علاقة بين الهجرتين، فهجرة إبراهيم الخليل من مسقط رأسه العراق وقعت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أي قبل ظهور جماعة موسى بسبعة قرون، وكانت لهجرته هذه أسبابها وأهدافها السامية، فقد اضطر ابراهيم بسبب دعوته إلى عقيدة التوحيد وتبشيره بها بين مواطنيه الوثنيين إلى مغادرة العراق تحت ضغط وتهديد السكان ورجال الدين في ظروف مشابهة لظروف النبي محمد (ﷺ) عند هجرته من مكة المكرمة. أما الهجرة الثانية، هجرة جماعة موسى من مصر إلى فلسطين والمعروفة بالخروج، فقد حدثت في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، وتنسب التوراة التي دوّنها الأحبار اليهود في وقت لاحق إلى موسى زوراً أن الإله «يهوه» إله اليهود أمره بأن يحتل فلسطين الأرض الموعودة بعد إبادة سكانها، شيوخاً ونساءً وأطفالاً، ليحل اليهود محلهم فيها.

والواقع أن الكتّاب العرب قد استندوا في نقل مثل هذه الادعاءات إلى المصادر الأجنبية، وهي مصادر يهودية في معظمها، دون أن ينتبهوا إلى التسلسل الزمني للحوادث التاريخية التي تعمَّد كتبة التوراة إهماله وذلك لإفساح المجال أمامهم لإرجاع تاريخ اليهود إلى أزمنة سابقة لوجودهم ومنها عصر إبراهيم الخليل، لذلك فعندما يتحدث الكتّاب اليهود عن إبراهيم الخليل يصفونه بأنَّه «اليهودي الأول مؤسّس الشعب اليهودي»(٦).

لقد أثبتت الدراسات العلمية في ضوء المكتشفات الآثارية الحقائق التاريخية التالية:

أولاً: أن إبراهيم الخليل ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد، هذا ما حدّده العلماء لعصر إبراهيم الخليل في ضوء أحدث الاكتشافات الآثارية(٧).

---

(٦) انظر: Gilbert and Libby Klaperman, «The Stdry of The Jewish People,» N.Y., 1956. Vol 1, p. 13.

(٧) W. Keller, «The Bible as History,» London, 1954 (5 th ed.) p. 69; R. de Vaux, «Les Patriarches Hebreus et L'histoire,» Revue Biblique, 72 (1965), pp. 5-28.

ثانياً: أن اليهود لم يظهروا في مسرح التاريخ إلاَّ في عهد النبي موسى في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد(٨).

ثالثاً: أن اليهود ظهروا في العراق أول مرة في عهد الآشوريين في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد وذلك عندما سباهم الأشوريون ونقلوهم إلى بلاد آشور كأسرى، أي بعد عصر إبراهيم الخليل بألف ومائتي سنة وبعد النبي موسى بستمائة سنة(٩).

لذلك إن الادعاء القائل بأنَّ اليهود هاجروا من العراق بصحبة إبراهيم الخليل ادعاء باطل لا يستند إلى أي سند تاريخي والتوراة التي هي المصدر الوحيد لهذا الادعاء هي نفسها تؤكِّد بكل صراحة أن إبراهيم الخليل هاجر من العراق بمفرده ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره، وذلك بدلالة ما يلي:

١ ـ إن دعوة الرب لإبراهيم الخليل كانت موجهة إليه بمفرده وهي أن يهجر أرض العراق فذهب ومعه ساراي امرأته ولوط ابن أخيه(١٠). فأين هم الأربعة آلاف يهودي الذين قادهم إبراهيم الخليل إلى أرض كنعان؟..

٢ ـ إن يعقوب حفيد إبراهيم الخليل الذي هو إسرائيل يصف نفسه وجدّه أبرام بالآرامي التائه(١١). فكيف يكون إبراهيم وإسحق ويعقوب آراميين ويهوداً؟.. ثم لو كان إبراهيم قد قاد اليهود وعددهم ٤٠٠٠ نسمة كيف يكون آرامياً تائهاً بحسب وصف حفيده يعقوب له؟.. وأربعة آلاف شخص في تلك الأيام البعيدة كانت تشكّل جيشاً كاملاً.

٣ ـ لو كان هناك يهود في زمن إبراهيم الخليل فهذا يعني أن اليهود سبقوا يعقوب الذي هو إسرائيل ولا يمكن عندئذ أن تكون كلمة يهود مرادفة لبني إسرائيل (هذا إذا سلمنا جدلاً بادعاء اليهود أنهم من ذرية يعقوب (إسرائيل) صحيحاً). لذلك إن هذا الزعم القائل بوجود يهود في زمن إبراهيم الخليل

---

(٨) P. Hitti, «History of Syria,» 1951, p. 178.

(٩) انظر التفاصيل حول علاقة اليهود بعصر إبراهيم الخليل في كتاب «العرب واليهود في التاريخ» للدكتور أحمد سوسة (الطبعة الرابعة المنقحة المفصلة لسنة ١٩٧٥، الفصل الخامس).

(١٠) تكوين ١٢: ١؛ ٢٤: ٤ ـ ٥.

(١١) تثنية ٢٦: ٥.

يؤكِّد عدم انحدار اليهود من صلب إبراهيم الخليل وإنما ينحدر هو وإسرائيل من أرومة أخرى. ولكن مَن تكون؟ عندئذ يكون السؤال: إذا كان هناك يهود غير عشيرة إبراهيم فكيف ينتمون إليه بحسب مآثر التوراة؟..

٤ ـ لو كان هناك يهود قادهم إبراهيم إلى أرض كنعان هلاً كان بإمكانه أن يزوج ابنه من إحدى بناتهم وتقر عينه بدلاً من إرسال عبده إلى آرام النهرين إلى عشيرته ليأخذ له زوجة منها؟(١٢).. وكذلك فعل إسحق عندما أوصى ولده يعقوب بأن يذهب إلى حاران ليأخذ له زوجة من هناك(١٣) وكلاهما فعل ذلك لكي لا يتزوجا من بنات كنعان(١٤).

أما كلمة «يهود» و«يهودي» التي اعتبرها الكتّاب اليهود مرادفة لبني إسرائيل (عهد إبراهيم وإسحق ويعقوب) فلم تستعمَل إلاً بعد عهد النبي موسى حيث نسبت إلى مملكة ومنطقة يهوذا (٩٣١ ـ ٥٨٦ ق.م)، لذلك فهي تسمية متأخرة ولا صلة لها بيهوذا ويعقوب اللذين عاشا في القرن السابع عشر قبل الميلاد. وهناك أدلة على أن مصطلح يهودي استعمل أول مرة في بابل عندما كان اليهود في الأسر، فمنذ ذلك التاريخ استعملوا اسم «يهود» نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة، حيث أن عدداً كبيراً منهم كانوا ينتمون إلى مملكة يهوذا(١٥). وأول تسمية «يهودي» وردت على لسان الملك الأشوري سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م) عند وصفه لانتصاراته على مملكة يهوذا فسمَّى حزقيا ملك يهوذا (حزقيا اليهودي) أي المنتسب إلى يهوذا(١٦). وقد درج أكثر الكتّاب على الأخذ بالرأي القائل بأنَّ كلمة يهودي نُسبت إلى يهوذا رابع أبناء يعقوب(١٧)، وهذا مخالف للواقع لأنَّ اليهود لم يكونوا قد وجدوا في عهد يعقوب وابنه يهودا فقد وُجدوا بعد ظهور موسى، أي بعد عهد يعقوب بأكثر من ستمائة عام، وبعد أن تكوّنت مملكة يهوذا، أي بعد عصر يعقوب وابنه يهوذا بحوالي ألف عام. ثم انتشر استعمال اسم اليهود بعد السبي البابلي نسبة إلى مملكة يهوذا المنقرضة.

---

(١٢) انظر الأصحاح ٢٤ من سفر التكوين.

(١٣) تكوين ٢٨: ١ ـ ٢.

(١٤) تكوين ٢٤: ٣٧ و٢٨: ١.

(١٥) Lady Magnus, «Outline of Jewish History from B.C. 586 to C.E. 1885.» London, 1924, p. 2.

(١٦) J. Pritchard, «Archaeology and the Old Testament,» Princeton, 1958, p. 157.

(١٧) العقاد في كتابه «إبراهيم أبو الأنبياء» طبعة دار الهلال، ص ١٨٦.

ولم يكتفِ اليهود بأن اعتبروا العراق وطنهم الأصلي باعتبارهم نزحوا من العراق مع إبراهيم الخليل إلى فلسطين، بل ربطوا تاريخهم القديم بجزيرة العرب أيضاً بدعوة أن اليهود هاجروا من فلسطين إلى جزيرة العرب بعد تشريدهم على يد الرومان في القرن الأول للميلاد. وعلى هذا الأساس اعتبروا جزيرة العرب موطن اليهود الثاني، فالمستر برنز مؤلِّف كتاب «المدنية الغربية» يقول ما نصه: «إنَّ أكثر الباحثين يتفقون على أن الجزيرة العربية هي موطن اليهود الأصلي»[١٨]. وهذا الكتاب جامعي يُدرَّس في أكثر جامعات العالم وقد طُبع منه لحد الآن سبع طبعات. وقد سبقت الإشارة إليه وهكذا اعتبروا شبه جزيرة العرب أرضاً يهودية طوال التاريخ وأن غور الأردن يفصل أرض إسرائيل الشرقية عن الغربية. هذا ما يلقنونه لطلاب الجيل الجديد من عرب ويهود في كتبهم المدرسية في إسرائيل[١٩]. هل من أحد رد على ذلك ليوضح للعالم ما أثبتته المصادر التاريخية من أن يهود جزيرة العرب كانوا عرباً تهودوا وهم في ديارهم وبقوا محافظين على قوميتهم ولغتهم العربية من غير أن تكون لهم أية صلة مع يهود فلسطين ولم يفرق بينهم وبين القبائل العربية الأخرى غير الدين[٢٠].

والظاهر أن تقبل الناس لادعاءات اليهود في تاريخهم القديم عبر فترة تمتد إلى ما يقرب من ٢٥٠٠ سنة ناشئ عن كون اليهود احتكروا قبل الاكتشافات الآثارية في القرنين التاسع عشر والعشرين المدونات التاريخية لأنفسهم باعتبارها أقدم مرجع في الوجود فضلاً عن الطابع القدسي الإلهي الذي أضفوه عليها، إذ لم يظهر أي دليل أو مصدر يستند إليه في نقضها أو مناقشتها حتى اكتشفت كتابات الأقوام التي سبقت عصر اليهود بعدة قرون وقد وصلتنا وهي معاصرة لزمن كتابتها بنصها الأصلي، فتم للعلماء حل رموز كل منها، مثل كتابات السومريين والآكديين والعموريين والكنعانيين والفينيقيين والأراميين والأشوريين والبابليين والمصريين والحيثيين وغيرهم، فكشفت هذه الكتابات عن زيف أكثر الادعاءات المذكورة وأصبح لدى العلماء مصادر كثيرة يستندون إليها في مناقشتها والتشكيك بصحتها مقتحمين الحواجز القدسية التي كانت ولا تزال تفرضها الكتابات اليهودية.

---

(١٨) E.M. Burns, «Op. Cit.» p. 98.

(١٩) بابوريش «مصدر سبقت الإشارة إليه» ص ١٢٧؛ عزرا حداد وإلياس دانيال (مصدر سابق)، ص ٢٠٠.

(٢٠) انظر البحث في ذلك فيما يلي.

وقد حان الأوان لتدوين التاريخ القديم الحقيقي ليهود العراق بطريقة علمية باعتباره جزءاً لا يتجزأ من تاريخ العراق القديم بسبب الدور الذي لعبته الأمبراطوريتان العراقيتان الأشورية والكلدانية البابلية عبر التاريخ في تحرير فلسطين من اليهود ونقلهم أسرى إلى العراق قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة. فالمكتبة العربية خالية من أية دراسة علمية في هذا الموضوع تتسم بالحياد التام والحرص على إظهار الحقائق التاريخية بدون التحيز إلى أية جهة كانت، مما يدعو إلى ضرورة سد هذا الفراغ بعيداً عن الدعايات الصهيونية التي شوهت الحقائق التاريخية، وتصحيح الخطأ الشائع الذي وقع فيه أكثر الكتّاب والمؤرخين العرب بإرجاع تاريخ اليهود إلى عهود قديمة لم يكن لهم أي وجود فيها.

٢ ـ أقدم وجود لليهود في شمالي العراق:

إن أقدم وجود لليهود في العراق يرجع إلى عهد الأمبراطورية الآشورية العراقية الأخيرة الذي دام ثلاثة قرون كاملة ما بين سنة ٩١١ و٦١٢ ق.م. وذلك حين حرّر الأشوريون فلسطين من اليهود في عدة حملات قاموا بها على فلسطين فنقلوهم أسرى إلى شمالي العراق في أماكن جبلية نائية (مناطق شمالي العراق وإيران وتركيا) وأحلُّوا محلهم أقواماً من مختلف أنحاء الإمبراطورية الأشورية. وقد كان لظهور هذه الأمبراطورية على مسرح الأحداث التاريخية أثر بليغ ذو شأن عظيم غيَّر وجه الشرق. فقد بلغ عدد الملوك الذين حكموا في هذه الفترة ١٦ ملكاً دوَّن أكثرهم أخبار حملاتهم العسكرية ورحلاتهم في البلدان التي فتحوها وإنجازاتهم الإعمارية. وقد تمكَّن الأشوريون من إعداد جيش منظم أعانهم على تأسيس أمبراطورية سامية عظيمة بلغت من القوة العسكرية بحيث سيطرت في ذروة اتساعها على جميع أراضي الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر، هذا عدا فتوحاتهم للمناطق الجبلية في الشرق والشمال حتى بلاد أرمينية. وقد لعبت هذه الأمبراطورية دوراً رئيساً في القضاء على مملكة إسرائيل نهائياً وتحطيم مملكة يهوذا وسبي السكان اليهود إلى مختلف أنحاء آشور. وهنا لا بدَّ من نبذة عن عهد الانقسام في إسرائيل ودور الأشوريين في حملاتهم العسكرية على مملكتي إسرائيل ويهوذا:

أ ـ عهد الانقسام في إسرائيل:

تُحدثنا التوراة عن الخلافات التي ظهرت بين الموسويين بعد موت سليمان سنة ٩٣١ ق.م. تمخَّض عنها قيام دولتين هزيلتين. الأولى في الشمال باسم مملكة إسرائيل وعاصمتها السامرة (سبسطية) والأخرى في الجنوب باسم يهوذا

عاصمتها أورشليم. وتولّى الحكم في الأولى يربعام بن نباط، كما تولّى الحكم في يهوذا رحبعام بن سليمان (١ ملوك ١١: ٤٠، ١٢: ٢). وكانت الحرب سجالاً بين المملكتين منذ البداية واستمرت طيلة وجودهما مما أضعف كلتيهما هذا عدا الغزوات التي كانت المملكتان معرضتين لها من الخارج. فأول من غزا مملكة يهوذا شيشنق الأول ملك مصر (٩٢٦ ق.م.) فأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وأخذ كل شيء وأخذ جميع أتراس الذهب التي عملها سليمان (١ ملوك ١٤: ٢٥ ـ ٢٦؛ ٢ أخ: ٢ ـ ٤ و٩). وفي زمن يهورام ملك يهوذا الرابع (٨٤٨ ـ ٨٤١ ق.م.) انفصل بنو أدوم عن مملكة يهوذا وملكوا على أنفسهم ملكاً (٢ أخ: ٨ ـ ٩). وفي زمنه أيضاً صعد الفلسطينيون والعرب الذين بجانب الكوشيين إلى يهوذا وافتتحوها فاستولوا على كل الأموال الموجودة في بيت الملك وسبوا أبناءه ونساءه أيضاً ولم يبقَ إلاّ أصغر بنيه (٢ أخ ٢١: ١٦ ـ ١٧). وفي زمن يوآش غزا الجيش الأرامي أورشليم وأهلك كل الرؤساء وأخذ جميع الخزائن وقدمها لحزائيل ملك الأراميين (٢ أخ ٢٤: ٣؛ ٣ مل ١٢: ١٧ ـ ١٨). وفي عهد أمصيا ملك يهوذا (٧٩٦ ـ ٧٦٧ ق.م.) هجم يوآش ملك إسرائيل على أورشليم فهدم سورها وأخذ كل الذهب والفضة وجميع الآنية الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت المال (٢ مل ١٤: ١١ ـ ١٤). وفي زمن ازدهار مملكة دمشق الأرامية أصبحت كلتا المملكتين إسرائيل ويهوذا تحت سيطرتها، فأخذ الملك بنهدار ملك دمشق (٨٧٩ ـ ٨٤٣ ق.م.) الجزية من يهوذا وضم منطقة جلعاد في شرقي الأردن إلى المملكة الآرامية، كما أنه فرض الحماية الآرامية والجزية على إسرائيل في عهد ملكها آخاب بن عومري (٨٧٤ ـ ٨٥٣ ق.م.) وكان الآراميون يستغلون الخلاف بين إسرائيل ويهوذا لإخضاع كليهما إلى نفوذهم. ثم تحرّكت الأمبراطورية الآشورية المتعطشة للفتح، فاصطدمت أول ما اصطدمت بالآراميين، وبدأ الصراع بينهما على السيطرة، فاستغل الآشوريون الصراع القائم بين الآراميين وبين إسرائيل ويهوذا للانقضاض عليهم جميعاً فأخضعوهم كلهم أخيراً الواحد بعد الآخر. «وسلك بنو إسرائيل في جميع خطايا يربعام[٢٠ أ] التي صنعها ولم يحيدوا عنها. حتى نفى الرب إسرائيل

(٢٠ أ) يربعام هو أول ملك على اسرائيل بعد الانقسام (٩٣١ ـ ٩٠٩ ق.م.) اتخذ السامرة عاصمة له وصنع عجلين ذهب ووضعهما في بيت ايل وجعل الآخر في دان وقال لرعيته «كثير عليكم ان تصعدوا إلى أورشليم» (١ مل ١٢: ٢٨ ـ ٣٣) وذلك بغية منعهم من الذهاب الى هيكل سليمان في أورشليم حيث أُقيمت مملكة يهوذا.

عن أرضهم إلى آشور إلى هذا اليوم».

ب ـ الأمبراطورية الآشورية الأولى (٩١١ ـ ٨٢٤ ق.م.):

يقسم المؤرخون العهد الآشوري (٩١١ ـ ٦١٢ ق.م.) إلى ثلاثة أدوار: دور الأمبراطورية الأولى (٩١١ ـ ٨٢٤ ق.م.) ثم يليها دور ثان هو فترة انتكاس بين سنة ٨٢٤ و٧٤٥ ق.م. أما الدور الثالث فهو دور الأمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥ ـ ٦١٢ ق.م.). فحكم في عهد الأمبراطورية الآشورية الأولى أربعة ملوك كان أشهرهم «آشور ناصربال الثاني وقد حكم من سنة ٨٨٤ إلى سنة ٨٥٩ ق.م فقام بتنظيم الجيش الآشوري وتدريبه مما ساعده على توسيع فتوحاته في المناطق الجبلية الشرقية والشمالية وتوطيد الأمن في أطراف المملكة ومستعمراتها وقد استولى على إثنتي عشرة دولة صغيرة وعاد من حروبه بغنائم كثيرة وكان من بين الأقاليم التي أخضعها الموانئ الفينيقية في حوض البحر المتوسط والمدن الآرامية ومنها دمشق.

وكان أول احتكاك بين الآشوريين وإسرائيل حدث في زمن شلمنصر الثالث (٨٥٩ ـ ٨٢٤ ق.م.) خلف وابن الملك آشور ناصربال الثاني، فورث عن أبيه أمبراطورية شاسعة برهن على أنه كفؤ للمحافظة عليها ودعم نفوذه فيها بل وعلى توسيعها أيضاً. ففي سنة ٨٥٣ ق.م. خاض حرباً مع الآراميين الذين ألَّفوا اتحاداً مع بقية الممالك الآرامية وفينيقيا وإسرائيل ودويلة عربية، ومع أن هذه المعركة التي وقعت في القرقار على نهر العاصي في سورية لم تكن حاسمة، إلاَّ انَّ الآراميين وحلفاءهم تكبدوا خسائر جسيمة في الأرواح والمعدات، وقد تمكن شلمنصر الثالث من إخضاعهم للجزية، وفي مسلة شلمنصر الثالث المشهورة التي عثر عليها بين أنقاض كالح (نمرود)[٢٠ب] تشاهد عدة نقوش لحملات شلمنصر على البلاد التي فتحها مع كتابات تحت

(٢٠ ب) كالح ثاني عواصم المملكة الآشورية (أولاها آشور) اسمها «كالحو» وردت في التوراة بصيغة كالح، تُعرف أطلالها باسم «نمرود» تقع على الجانب الأيسر من نهر دجلة على بعد حوالى ٣٢ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من مدينة الموصل، يعزى تأسيسها إلى زمن الملك شلمنصر الأول (١٢٧٤ ـ ١٢٤٥ ق.م.)، ثم وسعها آشور ناصربال الثاني عندما اتخذها عاصمة له عام ٨٧٩ ق.م. كشف المنقبون عن آثار كثيرة من قصور المدينة لاسيما قصر آشور ناصربال الثاني وهي منحوتات وعاجيات صُنعت محلياً في نمرود بأطرزة فنية بديعة منها تمثال للملك شلمنصر الثالث منحوت نحتاً دقيقاً ومدوّن عليه موجز أعماله.

الصور تشرح ما يمثله كل منها. وتتكوّن هذه المسلة من الحجر الأسود عليها خمسة حقول متسلسلة كل منها مكرر أربع مرات في أربعة أطراف المسلة. ففي الأول من الجهة العليا يشاهد شلمنصر نفسه يتلقى الجزية من شوعة ملك «جلزام»، وفي الثاني يتلقى الجزية من يهو ملك إسرائيل في أرض عومري. ويرى الملكان ساجدين يقبلان الأرض عند أقدام شلمنصر. وهذا نص ما ورد في الحقل الثاني من المسلة: «الجزية من يهو التابع لبيت عومري فضة وذهب: كأس ذهبية، طوس ذهبية، كأس كبير من الذهب، أباريق ذهبية، كمية من الرصاص، عدد من الصولجانات، أدوية مصنوعة من خشب البلسام. كل ذلك تسلمت منه»[٢١].

وفي الحقول الثلاثة التالية ترى الغنائم والجزية من بلاد «موسري» و«سوخو» و«باتن» على التوالي. وبذلك يبلغ مجموع عدد الصور في المسلة عشرين صورة. ولما كان يهو ملكاً على إسرائيل بين سنة ٨٤١ و٨١٣ ق.م. فمعنى هذا أن شلمنصر كان قد أخضع إسرائيل للجزية طيلة مدة حكمه.

ج ـ الأمبراطورية الآشورية الثانية (٧٤٥ ـ ٦١٢ ق.م.):

يبدأ هذا العهد بتسلم تجلات بلاشر الثالث زمام الحكم سنة ٧٤٥ ق.م. وقد استمر حكمه ثماني عشر سنة تمكن خلالها من استعادة نفوذ المملكة الآشورية بعد فترة الانتكاس (٨٢٤ ـ ٧٤٥ ق.م.). وحكم في خلال فترة الأمبراطورية الثانية هذه ستة ملوك من ضمنهم تجلات بلاشر الثالث بلغت الأمبراطورية في عهدهم أوج عظمتها واتساعها في خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد بحيث ضمت جميع أراضي الهلال الخصيب ومن ضمنها مصر، ولم تكتف بذلك بل وسعت نطاق سلطانها وسيطرتها حتى شملت البلاد الجبلية الشمالية والشرقية وما وراءهما[٢١أ]. والذي يعنينا هنا من بحث هذه الأمبراطورية بوجه خاص الدور الرئيس الذي لعبته في القضاء على مملكة إسرائيل نهائياً وسبي

---

(٢١) Keller, «The Bible as History,» pp. 234-235.

(٢١ أ) فيما يلي تواريخ حكم ملوك آشور في فترة الأمبراطورية الآشورية الثانية: تجلات بلاشر الثالث ٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م. شلمنصر الخامس ٧٢٧ ـ ٧٢٢، ق.م. سرجون الثاني ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م. سنحاريب ٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م. آسرحدون ٦٨١ ـ ٦٦٩ ق.م. آشور بانيبال ٦٦٩ ـ ٦٢٦ ق.م. سقوط الأمبراطورية الآشورية الثانية إثر سقوط نينوى (العاصمة) سنة ٦١٢ ق.م.

سكانها اليهود وبعض سكان مملكة يهوذا إلى أماكن جبلية من آشور.

ومن الحملات التي شنها تجلات بلاشر الثالث (٧٤٦ ـ ٧٢٧ ق.م.) حملته على مملكة آرام فاستولى على عاصمتها دمشق سنة ٧٣٢ ق.م. وسبى أهلها وقتل ملكها رصين، ثم توجه إلى إسرائيل واستولى على كل أراضيها ما عدا السامرة وضمها إلى آشور وحمل سكانها اليهود إلى أماكن جبلية نائية من المملكة وأحلَّ محلهم سكاناً من أقاليم أخرى[٢١ب]. وقد جاء في كتابات تجلات بلاشر الثالث ما نصه «قمت بضم جميع مدن بيت عومري (يقصد ببيت عومري مملكة إسرائيل التوراتية) في حملاتي السابقة ولم أترك سوى مدينة السامرة... أخذت نفتالي بأسرها وضممتها إلى آشور وعهدت برجالي حكاماً عليها. وجميع سكان أرض بيت عومري وممتلكاتهم حملت إلى آشور»[٢٢]. وقد ورد مثل ذلك في التوراة ولكنها سمت بيت عومري بملك إسرائيل (٢ مل ١٥ : ٢٩؛ ١ أخ ٥ : ٢٦). وقد عثر على مسلة آشورية نُقش عليها شرح كامل لحملة تجلات بلاشر الثالث هذه على بلاد آرام وعلى إسرائيل.

وهنا تستوقفنا نقطة مهمة مقرونة بعلامة استفهام: هل كانت هناك مملكة تسمَّى إسرائيل حقاً؟.. لقد أفاض ملوك آشور في وصف حملاتهم على أقوام الشرق الأدنى وذكروا أسماء ملوك الدول التي أخضعوها ولقبوا رؤساء هذه الدول بالملوك إلاَّ إسرائيل التوراة لم يطلق عليها إسم إسرائيل ولا على رئيسها تسمية ملك إذ سميت باسم «بيت عومري». (انظر الكتابة على مسلة شلمنصر الثالث وكتابة تجلات بلاشر الثالث) وهذا إن دلَّ على شيء فإنَّما يدل على أن ما سمته التوراة بمملكة إسرائيل لم يكن أكثر من قبيلة لم ترتفع إلى مستوى المملكة أو الدولة، واستعمال هذا الاصطلاح للدلالة على القبيلة كان ولا يزال شائعاً عند العرب منذ القديم كبيت داود مثلاً عند اليهود. هذا مع العلم أن التوراة هي المصدر الوحيد الذي يدَّعي بوجود مملكة تسمَّى إسرائيل، كما أن معلوماتنا عن مملكة يهوذا والعصر الذي كان قد سمِّي قبلاً بعهد الملوك (شأول وداود وسليمان) مستقاة من التوراة وحدها أيضاً. والتوراة كما هو معلوم من وضع الكتبة اليهود في وقت متأخر دونت في بابل

(٢١ ب) «وأتى ملك آشور بقوم من بابل وعوّا وحماة وسفروايم وأسكنهم في مدن السامرة عوضاً عن بني إسرائيل فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها» (٢ مل ١٧ : ٢٤).

(٢٢) Keller, op. Cit., p. 241.

وهي مشحونة بالأساطير والمبالغات التي لا مجال لتصديقها والادعاءات الخيالية التي لا يمكن أن يقرها العقل والمنطق. وعلى هذا لا يمكن الاعتماد عليها كمصدر موثوق به في تدوين الحوادث التاريخية ما لم تزكَّ من مصدر قديم أصيل.

وقد جرد شلمنصر الخامس (٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م.) خلف تجلات بلاشر الثالث حملة تأديبية على إسرائيل فحاصر عاصمتها السامرة مدة ثلاث سنوات وقبل أن يظفر بالنصر النهائي وافته المنية في الشهر العاشر من عام ٧٢٢ ق.م. ولكن القائد الآشوري أتم مهمته باحتلال السامرة في النهاية على عهد سرجون الثاني خلف شلمنصر الخامس وبذلك تمَّ استسلام السامرة والقضاء على مملكة إسرائيل نهائياً (٢ مل ١٨: ٩؛ ١٧: ٦). وتبعاً للخطة التي سار عليها تجلات بلاشر الثالث أجلى سرجون الثاني (٢٧,٢٩٠) شخصاً من اليهود في السامرة إلى المناطق الجبلية في مملكة آشور وقد أحلَّ محلهم أقواماً من أقاليم أخرى[٢٣]. فقد ورد في كتابات سرجون الثاني ما نصه: «وفي السنة الأولى من حكمي حاصرت السامرة واستوليت عليها.. ونقلت من الأسرى من تلك المنطقة ما يبلغ عددهم (٢٧,٢٩٠ نسمة)[٢٤]. وقد عثر الخبير الآثاري بوتا سنة ١٨٤٣ بين أطلال مدينة «سمأل» (زنجرلي) عاصمة الآراميين في شمال غربي سورية على مسلة سرجون الثاني نقشت عليها باللغة الآشورية وبالخط المسماري تفاصيل الحملة الاشورية على إسرائيل التي انتهت بالقضاء عليها وحمل اليهود إلى الأسر في آشور.

وبذا كانت نهاية مملكة إسرائيل وبقيت مملكة يهوذا الصغيرة تنتظر دورها وهي تتأرجح في مهب الرياح بين رحمة حكومة مصر من الغرب ودولة آشور من الشرق، فإذا انحازت للأولى غضبت عليها الثانية، وإذا انضمت إلى الثانية أغاظت الأولى. ولما انحاز حزقيا ملك يهوذا إلى مصر غضب سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م.) الذي خلف سرجون الثاني فصمَّم سنة ٧٠١ ق.م. على القيام بحملة قوية على مملكة يهوذا لإخضاعها أو تدميرها والقضاء عليها كما فعل أسلافه بإسرائيل. فهب حزقيا (٧١٥ ـ ٦٨٦ ق.م.) وأرسل وفداً إلى مصر مستنجداً بملكها فوعده المصريون بمده بالعون، فانتقد أشعيا على اعتماده على

---

(٢٣) ٢ مل ١٨: ٩ ـ ١١؛ ١٧: ٦.

(٢٤) Keller, op. Cit., p. 242.

ملك مصر بدلاً من اعتماده على الرب بقوله: «ويل للذين ينزلون إلى مصر للمعونة ويستندون على الخيل ويتوكلون على المركبات لأنها كثرة وعلى الفرسان لأنهم أقوياء جداً ولا ينظرون إلى قدوس إسرائيل ولا يطلبون الرب» (اش ٢٠: ١ ـ ٧؛ ٣١: ١).

ولدينا مصدران عن أخبار حملة سنحاريب على يهوذا: الأولى، كتابات سنحاريب نفسه وقد نقشت على جدران قصره في نينوى إلى جانب صورته وهو جالس على عرشه في مقر عملياته الحربية في لخيش. وقد ظهر وفد من يهوذا يقدمون الجزية وفروض الطاعة. ويظهر مما ورد في هذه المدونات أن سنحاريب اتجه غرباً حتى وصل إلى ساحل البحر المتوسط فاستولى على صيدون (صيدا) بعد فرار ملكها «لولي» دون أن يتحرش ببلدة صور لموقعها المنيع على الجزيرة. ثم جاء تأييد الطاعة مع الهدايا من المدن الساحلية من أرواد وبيبلوس (جبيل) وأشدود وكذلك من دول الشرق من مؤاب وعمون وأدوم. وقد بعثت مصر بجيش من المصريين والأثيوبيين فاستولوا أولاً على «أشقلون» (عسقلان) ثم اتجهوا شمالاً للاتصال بقوات حزقيا ملك يهوذا إلاَّ أن سنحاريب قابلهم وانتصر عليهم، ثم توجه إلى عقرون فهدمها وأخذ يحتل مدن يهوذا الواحدة بعد الأخرى، وقد اتخذ مقره في لخيش ومنها بعث بجيش أقام الحصار حول أورشليم العاصمة[٢٥].

وفيما يلي نص كتابة سنحاريب التي يصف فيها انتصاراته على يهوذا فيقول: «أما حزقيا اليهودي فلم يرضخ لسلطتي فحاصرت ٤٦ مدينة من مدنه المحصنة عدا القرى المجاورة التي لا يحصى عددها واستوليت عليها كلها باستخدام أنواع الآلات الحربية والمنجنيقات مما ساعدنا على الاقتراب من الأسوار واختراقها. وقد أخذنا منهم (اليهود) ٢٠٠,١٥٠ نسمة رجالاً ونساءً، أطفالاً وشيوخاً، مع حيواناتهم من الخيول والبغال والحمير والجمال، كبيرة وصغيرة، لا تحصى، وهذه كلها غنائم استولينا عليها. هو شخصه (حزقيا) جعلته حبيساً في أورشليم في قصره كالطير في القفص وأحطته بأكوام من التراب للتضييق على كل مَن يحاول الخروج من المدينة. سلمت مدنه التي استوليت عليها إلى «ميتيني» ملك أشدود و«بادي» ملك عقرون و«سيلبيل» ملك غزة،

(٢٥) R.W. Rogers, «Cuneiform Parallels to the Old Testament,» N.Y., 1912. pp. 340-348.

وهكذا قلصت حدود بلاده وفرضت زيادة في الجزية التي عليه أن يدفعها سنوياً»[٢٦].

ويلاحظ هنا أن كلمة يهودي استعملت أول مرة في الكتابات الآشورية على لسان سنحاريب ثم إن سنحاريب يطلق لقب ملك على رؤساء الدول ما عدا حزقيا لم يطلق عليه اسم ملك كما تذكره التوراة بل لقب بحزقيا اليهودي أي من بيت يهوذا.

أمَّا المصدر الثاني فهو رواية التوراة، وقد جاءت هذه الرواية مشوشة غير واضحة فمرة تقول: «صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها وأرسل ملك يهوذا إلى ملك آشور إلى لخيش يقول قد أخطأت، ارجع عني ومهما جعلت علي حملته، فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب. فدفع حزقيا جميع الفضة الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك». (٢ مل ١٨: ١٣ ـ ١٥). ثم تعود التوراة في رواية ثانية تقول إن ملك آشور «أرسل من لخيش إلى حزقيا بجيش عظيم إلى أورشليم فصعدوا وأتوا إلى أورشليم... وأن ملاك الرب خرج وضرب من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً، ولما بكروا صباحاً إذا هم جثث ميتة فانصرف سنحاريب ملك آشور وذهب راجعاً وأقام في نينوى»[٢٧] (١٨: ١٧؛ ١٩: ٢٥ ـ ٢٦).

نستخلص من المصدرين الأمور التي تتفق فيها الروايتان:

أولاً ـ أن حزقيا طلب العون من مصر فعلاً استناداً إلى انتقاد أشعيا للملك حزقيا على طلبه العون من مصر.

ثانياً ـ إستيلاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا المحصنة.

ثالثاً ـ إن سنحاريب اتخذ من لخيش مركزاً لعملياته الحربية في فلسطين.

رابعاً ـ إن الحصار على أورشليم وقع فعلاً ثم فكَّ الحصار.

خامساً ـ تسلم سنحاريب الجزية التي فرضها على حزقيا.

أمَّا الخلاف فينحصر في الأمور التالية:

---

(٢٦) J. Pritchard, «Archaeoloigy and the Old Testament,» Princeton, 1958, p. 157.

(٢٧) ٢ مل ١٨: ١٧؛ ١٩: ٢٥ ـ ٢٦.

أولاً ـ إن التوراة في الوقت الذي تعترف ضمناً بطلب العون من مصر إلاَّ أنها لم تشر إلى المعركة التي تذكرها كتابات سنحاريب بين جيش آشور ومصر وتغلُّب الأول على الثاني.

ثانياً ـ إن التوراة تعترف باستيلاء سنحاريب على جميع مدن يهوذا إلاَّ أنها سكتت عن الغنائم والأسرى الذين سباهم سنحاريب، وقد سكتت التوراة أيضاً عن تسليم المدن التي استولى عليها سنحاريب إلى ملوك أشدود وعقرون وغزة. وقد اكتشف النَّقابون في أطلال قويو نجق ثوراً من الصخر مكتوباً عليه وقائع تاريخية بينها خبر حملة سنحاريب على حزقيا ملك يهوذا وذلك في الألواح المحفوظة في دار التحف البريطانية في الرواق الأشوري المرقمة بأرقام ٨١٠ و٨١١ و٨٢٩ و٨٤٠ المبتورة من ذلك الثور التاريخي (يوسف غنيمة «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» ص ٧).

ومع أن أورشليم لم تسقط بيد سنحاريب إلاَّ أن الجيش الأشوري ترك البلاد خراباً ولم يستطع ملك يهوذا الاحتفاظ بعرشه إلاَّ بعد دفع الجزية واعترافه بسيادة الآشوريين.

وفي عهد أسرحدون (٦٨١ ـ ٦٦٩ ق.م.) أسر جيش البابليين منسَّى ملك يهوذا (٦٨٦ ـ ٦٤١ ق.م.) وأرسلوه إلى بابل مكبلاً بالقيود راسغاً بالسلاسل سنة ٦٧٢ ق.م. وبعد مدة من الزمن رفق به أسرحدون وأرجعه إلى أورشليم فبقي خاضعاً له[٢٨].

٣ ـ اليهود في الأسر في آشور

وكانت سياسة الأشوريين أن يشتتوا السبايا في عدة أماكن نائية منعزلة لكي لا يتيسر لهم التجمع في مكان واحد والتكتل فيه على أمل العودة إلى المناطق التي أجلوا عنها. وهكذا فقد أبعد الأشوريون سباياهم من اليهود من مملكتي إسرائيل ويهوذا إلى المناطق الجبلية المنعزلة في شمالي العراق وتركيا وإيران ضمن حدود الأمبراطورية الأشورية وأحلوا محلهم أقواماً أخرى من أنحاء الأمبراطورية حتى اختفت أخبار هؤلاء المأسورين، فسمَّاهم الباحثون الأسباط

(٢٨) «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» ليوسف غنيمة، ص ٥٠.

المفقودة (The Lost Tribes). وصار يعتقد الحاخامون اليهود في بابل بعدئذ أنهم اندمجوا بمحيطهم الوثني وأخذوا بالوثنية ديانة أهل المنطقة التي حلّوا بها[٢٩] والمعروف في التقاليد اليهودية والكتابات التوراتية أنهم الأسباط العشرة من مجموع الاثني عشر سبطاً[٣٠].

أمّا الأماكن التي نقل الأشوريون اليهود المسبيين إليها، فهي المنطقة الجبلية الواسعة وهي تقع اليوم ضمن حدود شمالي العراق وضمن حدود تركيا وإيران الحالية، وتعمّد الأشوريون توزيعهم على هذه المناطق للحيلولة دون تجمعهم وتكتلهم في مكان واحد ومحاولة رجوعهم إلى فلسطين كما سبق وأشرنا إلى ذلك. فقد حدّدت التوراة المناطق التي نُقل اليهود إليها في زمن كل من تجلات بلاشر الثالث وسرجون الثاني وهي: «حلح» و«خابور نهر جوزان» و«هارا» ومدن مادي[٣١]. والمواضع الثلاثة الأولى تقع في منطقة حوضي الخابور والبليخ عند منابعهما، فحلح كلمة آشورية على الأرجح لا يعرف معناها وهي اسم لمقاطعة في أمبراطورية آشور قرب «تل حلف»[٣٢] في حوض نهر الخابور. أمّا «جوزان» فهي «جوزانا» عاصمة إمارة بحياني الأرامية وتقع عند «تل حلف» وقد كشف في هذا الموضع عن آثار قصر فخم لأحد الملوك الآراميين كان يُدعى «كبارا» (Kapara) يرجع إلى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد[٣٣]. وأمّا خابور فهو اسم أكدي ولفظه في العبرية «كبار» وهو النهر الذي أطلق عليه اليونان «خابوراس» ويجري على مقربة من نصيبين في أعالي بلاد ما بين النهرين ويصب في نهر الفرات، وقد سمته التوراة «خابور نهر جوزان» لتمييزه عن نهر خابور آخر

---

(٢٩) J. Neusner, «A History of the Jews in Babylonia,» III pp. 31, 40.

(٣٠) انظر: «العرب واليهود في التاريخ» للدكتور أحمد سوسة، الطبعة الأولى، ص ٣٠٤ ـ ٣١٣.

(٣١) ١ أخ ٥: ٢٦؛ ٢ مل ١٧: ٦، ١٨: ١١، ١٩: ١٢.

(٣٢) تل أثري يقع في شمالي سورية على بعد خمسة كيلومترات جنوب غربي رأس العين قرب منبع الخابور، يرجع تاريخ آثاره إلى الحقبة الممتدة من حوالى سنة ٤٨٠٠ إلى سنة ٤٢٠٠ ق.م. وتمثل آثار تل حلف عصراً من العصور الثقافية التاريخية يتميز بها وقد سماه علماء الآثار عصر حلف وهو أول أدوار العصر الحجري المعدني لتمييزه عن بقية الأدوار التاريخية. وقد أصبحت منطقة تل حلف في منتصف الألف الثانية قبل الميلاد ضمن دولة ميتاني الحورية، ثم أخذ الآراميون موضع هذا التل في القرن العاشر قبل الميلاد، لبناء عاصمة لإحدى ممالكهم المسماة بيت بحياني عليه كانت تُسمّى «جوزانا».

(٣٣) G. Roux, «Ancient Iraq.» p. 249.

في منطقة بابل. وأما «هارا» فهي حاران (حران حالياً)[٣٤]. ويرى البعض أن المدن المادية التي نقل اليهود إليها هي منطقة همدان وما جاورها من القرى بينما يرى البعض الآخر أنها منطقة نهاوند وما جاورها من القرى[٣٥]. كما يرى البعض أن الآشوريين نقلوا البعض من اليهود المسبيين إلى أرمينية أو إلى حدود أرمينية[٣٦].

وقد كوَّن اليهود المسبيون إلى جبال شمالي العراق لهم قرى بين السكان الأكراد في المنطقة، وبقوا منعزلين عن يهود فلسطين واليهود في البلاد الأخرى، فقلدوا الأكراد في نمط معيشتهم حيث صاروا يمارسون الأعمال الحقلية الزراعية وتربية المواشي تحت حماية رؤساء القبائل الكردية (أنظر التصوير رقم ١). ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن هذه الجماعات من اليهود المسبيين إلى شمالي العراق، على الرغم من مرور حوالى ٢٨٠٠ سنة على دخولهم العراق، كانوا قبل هجرتهم من العراق إثر حوادث فلسطين الأخيرة يتكلمون بلغتهم الآرامية عند سبيهم إلى هذه المناطق الكردية وهي نفس اللهجة الآرامية التي كان يتكلمها المسيح. وكانت تُعرف هذه اللهجة بـ «الترجوم»، وقد سميت كذلك لأن الأحبار اليهود ترجموا العهد القديم من العبرية إلى هذه اللهجة فسمِّيت بالترجوم، ويقصد بها الفرع الغربي من اللغة الآرامية الذي كان يستعمل في منطقة فلسطين وإليها.

---

(٣٤) حاران مدينة قديمة لا تزال معروفة باسمها القديم (حران) وموقعها في الشمال الشرقي من بلاد ما بين النهرين في جوار الحدود السورية التركية داخل حدود تركيا على منابع نهر البليخ، أحد روافد الفرات الأوسط تقع على بعد حوالى ٤٠ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من أورفة وزهاء ٨٠ كيلومتراً من مصب البليخ في نهر الفرات. كانت مركزاً لإحدى الدويلات الآرامية كما كانت مركزاً مهماً على الطرق التجارية الرئيسة بين العراق وسورية وفلسطين، وهي المدينة التي توجه إليها إبراهيم الخليل (ع) بعد خروجه من أور الكلدانيين في طريقه الى كنعان وقد ورد ذكرها في التوراة باسم (حاران) و(هارا).

(٣٥) J. Neusner, «A History of the Jews in Babylonia,» II, p. 241.

(٣٦) Neusner, op. cit, III, p. 339.



تصوير رقم ١

أحد الرعاة اليهود في شمالي العراق قبل تهجيرهم إلى إسرائيل وهم من بقايا السبي الآشوري لم يزالوا يتكلمون بلهجتهم الآرامية القديمة «لغة المسيح» المعروفة بالترجوم.

وتدل القرائن التاريخية التي يستند إليها بعض الباحثين على أن الأكثرية الساحقة من هؤلاء اليهود المسبيين صبؤوا إلى النصرانية بعد ظهور الديانة المسيحية على يد المبشرين المسيحيين ثم أخذوا بالمذهب النسطوري وحافظوا على تعاليم هذا المذهب وطقوسه الكنيسية بنفس اللغة التي كانت تمارس فيه هذه الطقوس قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة، وهي اللغة المعروفة اليوم بالسريانية، وقد ساعدهم على ذلك انزواؤهم في الجبال المنيعة. أمَّا الباقون على اليهودية وهم قلة فبقوا في أماكنهم في الجبال إلى جانب المتنصرين من إخوانهم محافظين على لغتهم القديمة أيضاً وهي اللغة التي يتكلم بها المتنصرون النساطرة نفسهم وسيأتي الكلام على ذلك في سياق بحث نشوء المسيحية والتبشير بها.

هذا هو الوجود الأول لليهود في العراق ويرجع إلى القرن الثامن قبل الميلاد كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويؤيِّد الباحثون نقلاً عن اليهود في المنطقة الجبلية من شمالي العراق أنفسهم بأنَّهم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون (تجلات بلاشر الثالث سنة ٧٣٢ ق.م. وسرجون الثاني سنة ٧٢٢ ق.م. وسنحاريب سنة ٧٠١ ق.م.)[٣٧]. وقد أيَّد ذلك بنيامين التطيلي الذي زار منطقة

---

(٣٧) J. Neusner, op. cit, Vol. 1, p. 59, n.1, p. 62, n.1.

شمالي العراق في القرن الثاني عشر للميلاد، فقال في كلامه على يهود العمادية في المنطقة الجَبلية من شمالي العراق ما نصه «يقيم بها نحو خمسة وعشرين ألف يهودي وهم جماعات منتشرة في أكثر من مائة موقع من جبال خفتيان[٣٨] عند تخوم بلاد مادي (إيران)، ويهودها من بقايا الجالية الأولى التي أسرها شلمناصر ملك آشور[٣٩] ويتفاهمون بلسان الترجوم وبينهم عدد من كبار العلماء. والعمادية على مسيرة يوم من تخوم بلاد العجم يؤدِّي يهودها الجزية للمسلمين شأنهم شأن سائر اليهود المقيمين في الديار الإسلامية وقدرها دينار أميري ذهباً»[٤٠].

وقد أشار بنيامين التطيلي أيضاً إلى وجود اليهود في نهاوند والأرجح أن هؤلاء هم من بقايا السبي الأشوري لليهود إلى مدن مادي الفارسية، فذكر أن هناك أربعة آلاف يهودي يقيمون في أرض الملاحدة حيث الجبال المنيعة بين الحشيشيين «يسكنون الجبال مثلهم ويرافقونهم في غزواتهم وحروبهم وهم أشداء لا يقدر أحد على قتالهم». والحشاشون هم فرقة الإسماعيلية من أتباع الحسن بن الصباح استفحل أمرهم في القرنين السادس والسابع للهجرة، حتى استأصل شأفتهم هولاكو فهاجر فريق منهم إلى الهند.

كما أشار بنيامين إلى وجود اليهود في نيسابور (إيران شهر) على شواطئ نهر غوزان، «ويزعم يهودها أنهم من بقايا الأسباط الأربعة التي أسرها شلمناصر ملك آشور وهي أسباط دان وزبولون ونفتلي وآشر. واليهود هنا مستقلون وهم يشتغلون بالزراعة ويخرجون للغزو في بلاد الكاشيين (خراسان) بطريق الصحراء. ويلاحظ هنا أن سبط نفتلي كان من بين الأسباط التي ذكر الملك تجلات بلاشر الثالث أنه استولى عليها. (رحلة بنيامين، ص ١٥٣ ـ ١٥٤، وص ١٦٠).

ويقول الدكتور هنري فيلد في كتابه «انثروبولوجية العراق» إن شيوخ بلدة صندور اليهودية الكردية في شمالي العراق يؤكِّدون ما تناقلوه عن أجدادهم من أن

---

(٣٨) جاء في معجم البلدان لياقوت: «خفتيان قلعتان عظيمتان من أعمال إربل أحداهما على طريق مراغة يُقال لها خفتيان الزرزاري على رأس جبل من تحتها نهر عظيم جار وسوق دوار عظيم، والأخرى خفتيان سرخاب بن بدر في طريق شهرزور من إربل وهي أعظم من تلك وأفخم» (٢: ٤٥٦).

(٣٩) الظاهر أن المقصود هنا هو شلمناصر الخامس الذي حكم آشور بين سنة ٧٢٧ و٧٢٢ ق.م. وهو الذي قام بحملة على إسرائيل.

(٤٠) رحلة بنيامين، الترجمة العربية من العبرية، ص ١٥٤.

أصلهم من يهود فلسطين الذين نفاهم الآشوريون في زمن سنحاريب ملك آشور إلى جبال شمالي العراق، وهم ساكنون في قريتهم منذ ذلك الوقت لم يتركوها إلاّ في مناسبتين حين أجبرتهم بعض القبائل الكردية على مغادرتها بصورة وقتية. ويذكر الدكتور فيلد أن يهود هذه القرية يحفظون صلواتهم على ظهر قلب بالعبرية من غير أن يفهموا معناها، ولم يتزاوجوا طيلة مدة سكناهم في هذه المنطقة إلاّ من بين طائفتهم اليهودية الكردية وهم لا يأكلون اللحم الذي لا تتوفر فيه الصفات التي تمليها عليهم ديانتهم[٤١].

كما يقول ويكرام في كتابه «مهد البشرية» المطبوع سنة ١٩١٤ أن هناك جالية يهودية كبيرة في الموصل ظلت تعيش في حيها التاريخي منذ استاق سرجون الآشوري أسلافهم من بلاد السامرة المحتلة في القرن الثامن قبل الميلاد حتى يومنا هذا، وهم يقولون هذا بكل مظاهر الجد[٤٢].

٤ ـ النبي ناحوم أقدم أنبياء اليهود في العراق

وقد عاش في القرن السابع قبل الميلاد أحد أنبياء اليهود الاثني عشر الصغار المدعو «ناحوم» يُعتقد أنه كان ممن تمَّ سبيهم إلى آشور مع الأسباط العشرة إذ ظهرت تنبوءاته في زمن جلاء الأسباط العشرة، وقد كانت كل هذه التنبوءات تدور حول سقوط نينوى عاصمة الآشوريين[٤٣]. وبذلك يكون هذا النبي أقدم أنبياء اليهود في العراق إذ يرجع إلى ما قبل حوالى ٢٦٠٠ سنة. والمعروف اليوم أن قبر هذا النبي موجود في قرية القوش من أعمال الموصل، لذلك سُمِّيَ بالنبي ناحوم الألقوشي. وعلى القبر الذي يحجه اليهود كتابة عبرية تنص على أن بناءه الحالي جُدِّد سنة ٥٥٥٦ من التقويم العبري (١٧٩٦ م). ومع أن هناك مَن يقول أن قبر النبي ناحوم في الجلَيل بفلسطين، غير أن تقاليد يهود العراق ومسيحييها ومسلميها مجمعة على أن القبر الذي في القوش العراق هو قبر النبي ناحوم. ويذكر بنيامين التطيلي في رحلته في القرن الثاني عشر للميلاد أن هناك كنيساً في الموصل باسم كنيس ناحوم الألقوشي[٤٤].

---

(٤١) H. Field, «The Anthropology of Iraq,» Part II, No. 2, Kurdistan, Vol. XLVI, 1952, pp. 71-72.

(٤٢) «مهد البشرية»، الترجمة العربية، ص ٨٢.

(٤٣) ناحوم ٣: ٧.

(٤٤) رحلة بنيامين، ص ١٢٨، ١٤٥.

أمّا بتاخيا فيقول إن قبر ناحوم الألقوشي يبعد عن قبر باروخ بن نيري أربعة فراسخ وقبر باروخ بن نيري لا يبعد عن قبر حزقيال إلاّ ميلاً واحداً، فيكون على وصف هذا السائح في سهول بابل (غنيمة، «يهود العراق»، ص ٢١٤). وجاء في رحلة نيبهر السائح الدانماركي الذي زار العراق سنة ١٧٦٦ م ذكر قبر ناحوم وزيارة اليهود له ما نصه: «إن في الموصل ١٥٠ بيتاً من اليهود ويكسب هذا القوم في بلاد الأتراك معيشتهم بحرية تفوق الحرية التي لهم في أورمية حيث يحظر عليهم معاطاة الحرف ومع هذا فإنَّهم لا يجسرون على السير في الطرق في بعض مدن الأتراك إلاّ مضطرين هرباً مما يصيبهم من الإهانة من الأولاد».

«وقد حدث لهم قبل ثلاث سنوات حادث خطير وهو أنه لما كانوا قافلين من زيارة قبر النبي ناحوم في القوش فُقِدَ ولد مسيحي من إحدى القرى القائمة على طريقهم، وبعد البحث وجدت جثته في إحدى الآبار مثخنة جروحاً وكان لسانه مقطوعاً. فاتهم اليهود بهذه الفعلة وإذ لم يكن شهود على الأمر دفعوا ألف أشرفي (دوقية) إلى الباشا وهكذا انتهت هذه الدعوى. ويروي نصارى الشرق من أمثال هذه الأقاصيص شيئاً كثيراً، وغايتهم من ذلك أن يبينوا أن اليهود يقبضون على أولادهم (المصدر السابق، ص ١٦٤ نقلاً عن:

C. Niebhur «Voyage en Arabi,» Tome II, p. 295.

ومن الملاحظ أن الجغرافيين العرب لم يذكروا القوش في مؤلفاتهم مما يدل على أنها كانت خاملة الذكر في القرون الوسطى[٤٥].

٥ ـ بقايا يهود كردستان العراق وتهجيرهم من العراق

لقد كان بقايا يهود شمالي العراق قبل تهجيرهم إلى إسرائيل إثر حوادث فلسطين الأخيرة منتشرين في العمادية والعقر ودهوك وزاخو والزيبار وبرواري العليا والسفلى والمزوري والدوسكي ولهم قريتان مختصتان بهم وهما «صندور» في منطقة دهوك و«بيت النور» (بي تنور) في برواري العليا وكثير منهم في قرية براش ويمتهنون الفلاحة وغرس الأشجار وتربية المواشي ومنهم مَن يعمل بالصياغة والتجارة والصناعة والحياكة. وكان لهم كنيسان في العمادية فوق القلعة وأخرى في صندور ورابعة في بيت النور. ولهم مزار يُدعى (ابن خران) داود بن

---

(٤٥) يوسف غنيمة، «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ص ٢١٣ ـ ٢١٥؛ قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص ٩٤٤.

يوسف بن افرايم المتوفى حوالى سنة ١٠٣٠ هـ (١٦٢٠ م) وإلى جانبه ضريح زوجته «الست نجاد» قرب الكنيس في العمادية ويدعون أنه من أوليائهم. وفي سنة ١٣٧٠ هـ (١٩٥٠ م) كان عدد اليهود في شمالي العراق حوالى ثلاثة عشر ألف نسمة أسقطوا جنسيتهم العراقية وهاجروا إلى إسرائيل[٤٦].

وكان الصهيونيون يحرصون كل الحرص على تهجير هؤلاء اليهود[٤٦أ] إلى إسرائيل من دون بقية اليهود في العراق، وذلك لكونهم أصحاء الجسم يمتهنون الزراعة والبستنة وتربية المواشي، فهم يصلحون أكثر من اليهود الآخرين كأيادٍ عاملة في الحقل. وفضلاً عن ذلك فهم لا يزالون متمسكين بديانتهم الأصلية ولا يخشى منهم مشاركة العرب في شعورهم القومي نحو القضية الفلسطينية لأنَّ لغتهم الثانية بعد اللغة الآرامية الأم (الترجوم) هي الكردية. وقد أفلح الصهيونيون في تهجيرهم كلهم إلى فلسطين بالاتفاق مع الحكومة العراقية القائمة آنئذ تحت ضغط متعمد مصطنع، وذلك استناداً إلى القرار الذي اتخذه مجلس الوزراء في ٩/ ٣/ ١٩٥٠ والذي ينص بإسقاط الجنسية العراقية عن اليهودي العراقي الذي يرغب في ترك العراق نهائياً. وألحق هذا القرار بالقانون رقم ١ لسنة ١٩٥٠، نشر في الوقائع العراقية عدد ٢٨١٦ في ٩/ ٣/ ١٩٥٠. وكان مجموع عدد اليهود المسقطة عنهم الجنسية العراقية في المنطقة الشمالية ٢١٨٧٧ نسمة موزّعة على الوجه الآتي:

---

(٤٦) محفوظ محمد عمر العباسي: «إمارة بهدينان العباسية»، الموصل، ١٩٦٩، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٤٦أ) نقول تهجيرهم لا هجرتهم لأن هجرة اليهود من العراق إلى فلسطين تمت نتيجة لحملة إرهاب مصطنعة ضد اليهود قامت بها الصهيونية ذاتها بالتواطؤ مع بعض أولياء الأمور في بعض البلاد العربية وذلك لكي يضطروا تحت ضغط هذا الاضطهاد المدبر على الهجرة إلى إسرائيل (انظر التفاصيل عن أعمال الصهيونية في هذا المجال: كتاب ايفان دونيف، تعريب فرات الجواهري، دار الفارابي، بيروت ١٩٧٤، وكتاب العرب واليهود في التاريخ، للدكتور أحمد سوسة الطبعة الرابعة المفصلة، ص ٦٠٠).

لواء الموصل	١٠٤٢٩
لواء السليمانية	٢٥١٤
لواء اربيل	٥٠٧١
لواء كركوك	٣٨٦٣
المجموع	٢١٨٧٧[٤٧]

وترجع فكرة تهجير يهود شمالي العراق إلى فلسطين إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، فقد استخدمت الدعوة الصهيونية كل وسائل الإغراء والعطف الديني لحثهم على الهجرة إلى فلسطين لاستخدامهم في الأعمال الزراعية، «وجرت محاولة لتوطينهم في مستعمرات الجليل وعمل بعضهم مع الهاشومير الأوائل. وظلت الهجرة إلى فلسطين من البلاد العربية ـ رغم الدعايات الصهيونية ـ محدودة. إذ لم يهاجر بين عام ١٩١٩ و١٩٤٨ إلاَّ ٧٩٨٨ معظمهم من كردستان»[٤٨].

ويؤكِّد الخبراء الواقفون على مجرى الأمور أن تهجير اليهود من البلاد العربية تمَّ تحت وطأة حملة اضطهاد مصطنعة متعمدة بالتواطؤ بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية. ففي ذلك يقول أبو مازن عضو اللجنة المركزية لحركة فتح في مقال نشره في مجلة «بيروت المساء» (العدد ١٠١ كانون الثاني ١٩٧٦، ص ٤٩ ـ ٥١): «ومن المعروف أن بلادنا العربية لم تشهد في أية فترة من الفترات نشاطاً صهيونياً حقيقياً أي ما يسمَّى بالدافع العقائدي للهجرة لم يكن متوفراً لدى العرب اليهود. ويتبيّن أن قسماً كبيراً من المهاجرين اليهود من البلدان العربية قد جاء إلى فلسطين المحتلة نتيجة اتفاق تآمري بين بعض الحكام العرب وقيادة الحركة الصهيونية يقضي بشحن اليهود العرب بكاملهم من أوطانهم إلى فلسطين المحتلة بغض النظر عن رغبة هؤلاء اليهود أو عدم رغبتهم وبغض النظر عن رغبتهم بالهجرة إلى فلسطين، في حالة رغبتهم في الهجرة، أو إلى بلدان أخرى. وينطبق هذا بصورة خاصة على اليهود العرب في اليمن والعراق».

«إن الفترة التي سبقت قيام إسرائيل لم تشهد هجرة يهودية تذكر من البلاد

(٤٧) خلدون ناجي معروف، «الأقلية اليهودية في العراق»، ج٢، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

(٤٨) الدكتور علي إبراهيم عبده وخيرية قاسمية، «يهود البلاد العربية» دراسات فلسطينية، ٨٢ (١٩٧١)، ص ٦٩ ـ ٧٠.

العربية بالرغم من قرب فلسطين من هؤلاء، وكان باستطاعة يهود العراق ومصر وسورية ولبنان أن يدخلوا إلى فلسطين بسهولة ويسر لو أرادوا ذلك. ولكنهم لم يفكروا بالهجرة، فكانت حملات التهجير الجماعية والتي تمت بالتواطؤ والتآمر بين بعض الحكام العرب وزعماء الصهيونية. فنجد مثلاً أن ١٢٠ ألفاً من يهود العراق وخمسين ألفاً من يهود اليمن قد قدموا إلى فلسطين خلال السنوات ١٩٤٩ ـ ١٩٥١ م وبعمليات نقل جماعية، وقد أُعطي اسم أسطوري لعملية النقل الجماعية من العراق سنة ١٩٥٠ هو (عملية علي بابا). وتشير المراجع الصهيونية إلى أن الهجرة من اليمن تمت تحت ضغط التهديد بالطرد من اليمن. أما في العراق فالأمر أكثر وضوحاً والمأساة أكثر عمقاً وحزناً لما لاقاه اليهود العرب في العراق من صنوف الآلام والتعذيب والإرهاب والضغط لاقتلاعهم من جذورهم ونقلهم إلى المسلخ الصهيوني مشلولي الإرادة معدومي الرغبة، لا حول لهم ولا قوة.. لم تكن هجرتهم الجماعية من العراق أمراً طبيعياً أو منطقياً، فليس صحيحاً أنهم هاجروا لأنهم كانوا صهاينة أو لأنهم رأوا في إسرائيل تجسيداً لأمانيهم وهذه مسألة تجمع على الإقرار بها كافة المصادر الصهيونية الرسمية وغير الرسمية ولا حاجة لإثبات صحتها باستعراض المراجع والشواهد.. فقد نشط المبعوثون الصهيونيون ونجحوا في إدخال كميات كبيرة من السلاح إلى بغداد بمساعدة الجيش البريطاني.. وتوجت السلطات العراقية الرجعية آنذاك إجراءاتها القمعية والتآمرية مع الصهيونية بإصدار قانون إسقاط الجنسية عن اليهود العراقيين بعد التمهيد له بحملة واسعة ضد اليهود، ومع ذلك كانت نسبة الاستجابة له ضئيلة جداً، فقامت منظمة (هشوراه) الصهيونية بإلقاء القنابل على اليهود بدءاً بيوم ٨/ ٤/ ١٩٥٠ وانتهى بيوم ١٩٥١/٦/٥.. أما بالنسبة للقانون (المؤامرة) فقد تمَّ الاتفاق على إصداره في اجتماع سري عقد في فيينا سنة ١٩٤٩ وحضره نوري السعيد وبن غوريون ومبعوث بريطاني، وبعد عودة نوري السعيد إلى العراق قدَّم استقالة حكومته ليفسح المجال لمجيء حكومة إنتقالية(٤٨أ)، وكلَّف السويدي بتأليف الوزارة الجديدة في ٥/ ٢/ ١٩٥٠. وتقدَّمت الحكومة فوراً بلائحة قانون إسقاط الجنسية وطالبت بإقراره على الفور فوافق

(٤٨ أ) لم يكن نوري السعيد في الحكم عندما كلف توفيق السويدي بتأليف الوزارة بل كانت وزارة علي جودي الأيوبي الثانية قائمة آنذاك وهذه لم تثبت في الحكم إلاَّ أقل من شهرين فاستقالت في أول شباط سنة ١٩٥٠.

المجلس النيابي عليه وكذلك مجلس الأعيان». وينتهي أبو مازن إلى القول بأن «هذه هي باختصار قصة اليهود في العراق، ومما لا شك فيه أنها القصة النموذج لباقي يهود البلاد العربية، ففي كل بلد لهم قصة شبيهة بقصتهم في العراق وإن اختلفت في التفاصيل إلاّ أن الهدف واحد والمحرك الأساسي وراء هذه القصص واحد أيضاً».

٦ - إمارة حدياب في شمالي العراق

ومما يذكر في هذا الصدد أن هناك إمارة واسعة في منطقة آشور القديمة ازدهرت في القرن الأول بعد الميلاد وهي منطقة شمالي العراق نفسها التي نقل إليها اليهود المسبيون من زمن الآشوريين تُدعى «إمارة حدياب» (Adiabene) في المصادر الكلاسيكية وبالعربية «حزة» و«حزه» كما يصفها ياقوت في معجمه «بليدة قرب إربل من أرض الموصل.. وهي كانت قصبة كورة إربل من قبل». وكانت هذه الإمارة في أول الأمر محصورة بين الزابين الأعلى والأسفل عندما ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني قبل الميلاد، ثم استمرت في النمو والازدهار حتى بلغت أوج اتساعها وتمام استقلالها في القرن الأول الميلادي فاتسع نفوذها وبسطت سلطتها على منطقة نصيبين وحران وماردين وشملت جزءاً من بلاد أرمينية، كما أن من المرجح عند الباحثين أن نفوذها شمل مدينة الحضر العربية أيضاً[٤٩]. أما عاصمة الإمارة فكانت مدينة إربيل. وكانت هذه الإمارة تابعة للأمبراطورية الفرثية (٢٤٧ ق.م. - ٢٢٦ ب.م.) الواسعة، ولما كانت هذه الأمبراطورية تتألف من أقاليم أو إمارات شبه مستقلة مع ارتباط تبعيتها بالملك الفرثي في عاصمته طيسفون، فكانت إمارة حدياب من بين الإمارات المهمة التي تمتعت بقسط وافر من الحكم الذاتي وخاصة في عهد آفراهاط الثاني (٦٩ - ٥٧ ق.م.) وابنه ورود الثاني (٥٧ - ٣١ ق.م.) حيث كانت المنازعات بين ملوك السلالة الفرثية فيما بينهم من جهة وحروبهم مع الرومان وملوك أرمينية من الجهة الأخرى قد مهدت السبيل للأقاليم التابعة للأمبراطورية أن تزداد نفوذاً واستقلالاً، فحققت مملكة حدياب في القرن الأول الميلادي استقلالاً تاماً تقريباً في عهد ملكها «إيزاط الثالث» الذي اعتنق هو وأمه هيلانة الديانة اليهودية، وقد اشتهر من ملوكها ثلاثة ملوك عرفوا باسم «إيزاط»، وكان «إيزاط الثالث» المعاصر للملك

---

(٤٩) «الحضر» لفؤاد سفر ومحمد علي مصطفى (١٩٧٤) ص ٢٧.

الفرثي أرطبان الثالث (١٢ ـ ٣٨ م) أكثر هؤلاء الملوك شهرة فكان مقرباً للملك الفرثي ونال عنده حظوة كبيرة لأنه ساعده في استعادة عرشه من الأمراء الفرثيين المتنازعين فوهبه مقابل ذلك منطقة نصيبين وجزءاً من مملكة أرمينية وأذن له أن يلبس التاج وينام على سرير من ذهب كان كلاهما من الامتيازات والسمات التي يختص بها ملك الملوك الفرثي وحده[٥٠]. وقد اعتلى «إيزاط الثالث» عرش الإمارة سنة ٣٦ م وامتد حكمه فيها حتى توفي سنة ٦٠ م، فخلفه أخوه مونوبازوس الثاني، (Monobazus II) وقد ظلّت إمارة حدياب هذه في ظل حكم سلالة يهودية حوالى ثمانين سنة حتى غزاها الرومان في عهد الأمبراطور تراجان سنة ١١٥ أو ١١٦ م فاحتلها لبضعة أشهر في وجه مقاومة عنيفة. ولما كان أكثر أهل حدياب من الآراميين فالأرجح أن الملك إيزاط كان قبل تهوده آرامياً وثنياً.

وقد عثر على منحوتاته في جبل باطاس ـ حرير في شمالي العراق يعتقد أنها تمثل الملك الحديابي «إيزاط الثالث» وقد نحتها تخليداً لبعض انتصاراته الحربية في هذه المنطقة. وتشاهد هذه المنحوتة في الطريق بين شقلاوة وقريتي ديره حرير وباطاس على يمين الطريق وهي منحوتة في وجه الجبل على ارتفاع نحو خمسين متراً. ويبلغ طول المنحوتة زهاء ٢,٥ متراً وهي محاطة باطارين مستطيلين داخلهما صورة رجل بالزي الملكي على رأسه قبعة مخروطية وعليه سروال طويل وبجانبه رمح طويل وهو ماد ذراعه اليمنى إلى الأمام. ويشير طراز النحت وزي اللباس إلى أن المنحوتة من العصر الفرثي[٥١]. كما عثر في مدينة الحضر على تمثال من الرخام لملك حديابي اسمه «أثلو» كان مقاماً في المعبد الثالث المخصص لعبادة «بعلشمين»، وقد يدل وجوده في هذا المكان على أن عبادة السلف كانت معروفة عند الحضريين وأنهم كانوا يرعون ذكرى ذلك العهد الذي كانوا فيه مرتبطين بحدياب[٥٢].

أمَّا قصة تهود إيزاط فقد رواها يوسفوس فذكر أن «مونوبازوس» ملك حدياب تزوج من أخته هيلانة وكان لمونوبازوس أولاد من زوجة أخرى قبل زواجه من هيلانة، ثم رزق بغلام من هيلانة سمِّي باسم «إيزاط»، ومن أجل

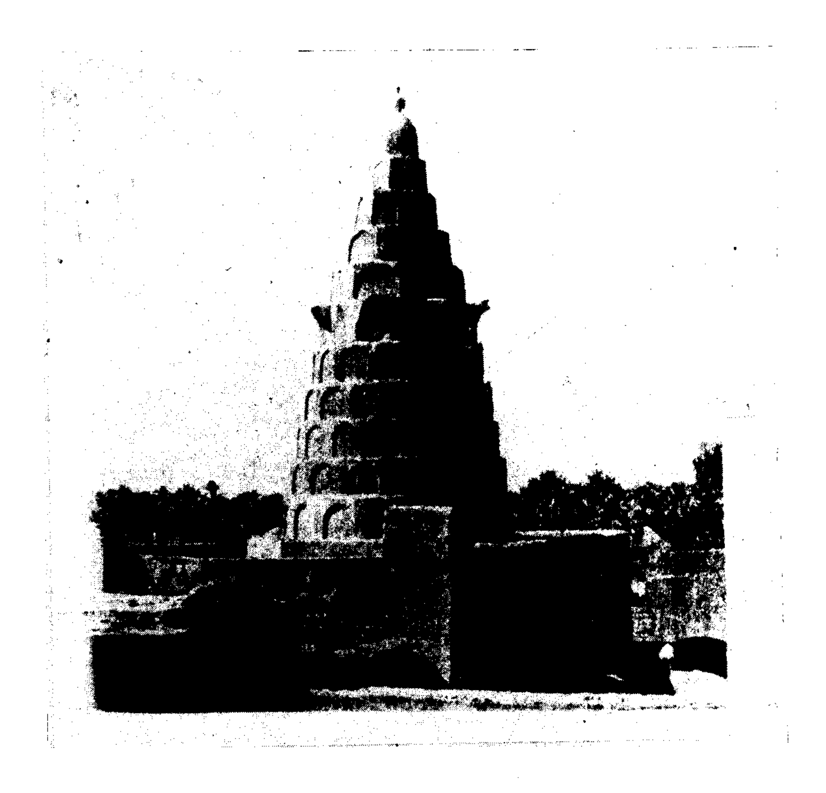
---

(٥٠) المرجع السابق، ص ٢٦.

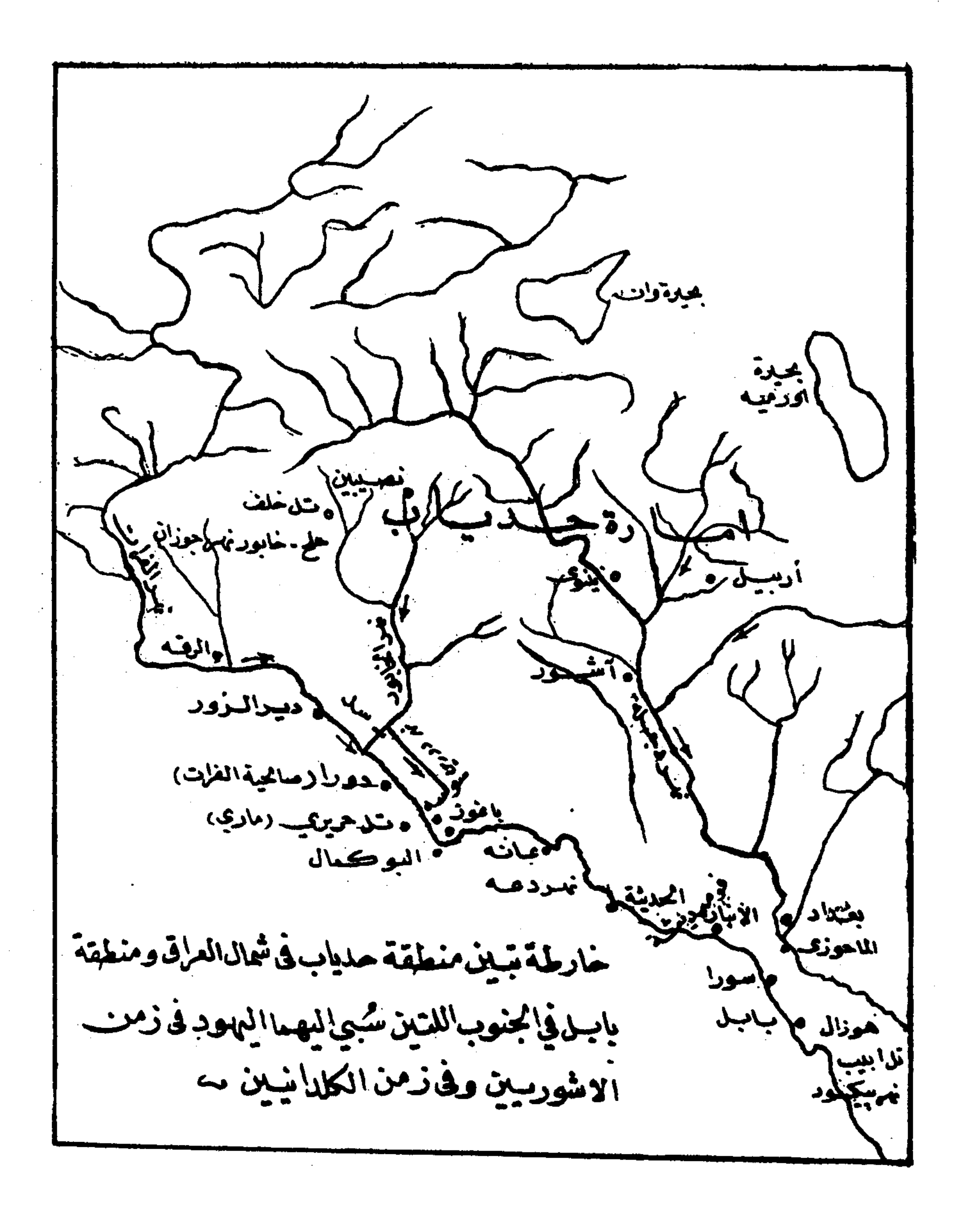
(٥١) طه باقر، مجلة المجمع العلمي الكردي، المجلد الثالث العدد الأول ١٩٧٥ ص ٦٤٩.

(٥٢) انظر: «الحضر» المرجع السابق الصورة ١٧٩ على ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩.

تأمين سلامة هذا الصبي وخوفاً من غدر إخوته من أبيه به بعد أن أصبح وارثاً للعرش وولي عهد المملكة أرسل إلى مدينة «كاراس سباسينو» (Charax Spasinu)[٥٣] حيث تهود على يد أحد التجار اليهود، كما تهودت أمه هيلانة على يد تاجر يهودي آخر يُدعى «حنينا» ولما تسنم «إيزاط» عرش إمارة حدياب في سنة ٣٦ ميلادية بعث بإخوته كرهائن إلى روما وإلى فرثيا.



(٥٣) هي المدينة التي بناها الإسكندر على ملتقى نهر كارون بشط العرب، وأسكنها أتباعه وجنوده ومواطني المدينة الملكية، ويظن أنها المحمرة الحالية. وكان بلينيوس أول من أشار إلى المدينة وسمّاها (Charax)، وقد دُعيت الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر، وقد خُرِّبت مراراً من فيضان الأنهر. ثم أعاد بناءها أنطيوخس الرابع (١٧٥ ـ ١٦٣ ق.م.) وسُمِّيت باسمه. وعادت فتخربت فرمّمها وأعاد بناءها الملك سباسينس وهو ملك عربي يُعتقد أنه حكم بابل وسلوقية في حوالى سنة ١٢٧ ق.م. وقد عثر على نقود ضربت باسمه. وأنشأ هذا الملك لها سداً لحمايتها من الغرق وسمّاها باسمه وقصدها التجار اليونان والعرب. وقد عُرفت باسم «كرخة» وعُرفت أيضاً باسم «كرخ ميسان» (انظر: الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب» ٢: ١٢ ـ ١٣؛ ياقوت «معجم البلدان» ٤: ٢٥٧).



مرتسم رقم ١

منطقة إمارة حدياب

وقد لعبت إمارة حدياب على عهد ملوكها المتهودين دوراً مهماً في نزاع ملوك فرثيا ما بينهم على العرش، كما لعبت دوراً مهماً في النزاع التقليدي بين الرومان والفرثيين وبين الرومان واليهود في فلسطين لما كانت هذه الإمارة تتمتع به من موقع استراتيجي يفصل بين تخوم الرومان والفرثيين ومن إمكانيات إقتصادية وبشرية. وقد صادف بعد تقلد «إيزاط» زمام الحكم في إمارة حدياب بحوالى سنة (أي في سنة ٣٧ م) أن تمكَّن بعض الثوار من إقصاء ملك فرثية «أرطبان الثالث» (١١ ـ ٤٠ م) عن العرش الفرثي وتنصيب أمير آخر محله يُدعى «سيناموس» (Cinnamus) فلجأ أرطبان إلى إمارة حدياب حيث أحسن إيزاط معاملته وقدَّم له كل المساعدات التي طلبها، ثم تمكن أرطبان من استعادة عرش فرثيا فكافأ إيزاطاً بأن ضمَّ إلى إمارته منطقة نصيبين وجزءاً من أرمينية وأولاه مكانة عالية ومنزلة سامية في الدولة الفرثية. وقد صادف بعد هذا الحادث أن وقع نزاع آخر على الحكم في فرثيا بين متريدات الثالث الذي خلف أرطبان الثالث وبين وردان الأول فطلب الثاني من إيزاط معاونته ضد متريدات لكن إيزاط رفض ذلك لما كان يتوقعه من فشله، هذا ما حمل وردان على غزو إمارة حدياب بجيشه ولكن حملة أخيه «جوتارز» ضده حالت دون مواصلة غزو حدياب. واستمر النزاع بضع سنوات بين الأخوين وردان وجوتارز حتى وفاة وردان في حوالى سنة ٤٧ أو ٤٨. وأعقب ذلك نزاع آخر على العرش بين متريدات وجوتارز دام بعض سنين أخرى حتى انتهى الأمر في حوالى سنة ٥٠ ميلادية إلى وصول جوتارز إلى الحكم من غير منازع، غير أنه توفي في السنة التالية وخلفه في الحكم «أولفاس الأول» فقام أولفاس بحملة على أرمينية مهدداً بذلك إمارة حدياب، إلاَّ أن حملته هذه اصطدمت بحملة رومانية مقابلة ضد أرمينية أيضاً بقيادة «كوربولو» سنة ٥٧ ـ ٥٨ م تمكنت من احتلال أرمينية سنة ٦٠ ميلادية، وبإيعاز وتحريض من الرومان قام تكران الخامس الذي نصبه الرومان ملكاً على أرمينية موالياً لهم بحملة على إمارة حدياب، وفي غضون ذلك توفي إيزاط ملك حدياب وخلفه أخوه «مونوبازوس الثاني» فاستنجد هذا بأولفاس الأول الذي أسرع إلى حدياب لصد هجوم تكران، وبعد معركة غير حاسمة توافق الطرفان على الصلح فعقد كوربولو اتفاقية مع الفرثيين وحلفائهم الحديابيين وكان ذلك في سنة ٦٣ ميلادية.

أمَّا الدور الذي لعبته حدياب تحت حكم ملوكها المتهودين ينحصر في العضد الذي قدمته إمارة حدياب ومساهمتها في الحرب الناشئة بين اليهود

والرومان في فلسطين. وفي الوقت الذي كانت فرثية تتجنب الاشتراك الفعلي في هذه الحرب إلاّ أنّها لم تمنع الحديابيين المتهودين من مشاركتهم في ثورة اليهود ضد الرومان في فلسطين (٦٦ ـ ٧٣ م)، وعضدهم لها. وهناك أدلة على أن إمارة حدياب أمدّت يهود فلسطين بالمال والرجال في هذه الحرب وتشير الأخبار إلى أن اثنين من أعضاء العائلة المالكة قد شاركا فعلاً في الحركات الأولى من هذه الحرب. وقد التزمت هذه العائلة الملكية اليهودية بولائها وإسنادها لليهود في القدس مما يدل على أنه كان منذ القديم اتصال بين يهود شمالي العراق من سبايا الآشوريين وبين اليهود في القدس ولما كانت هذه الإمارة موالية لحكم الفرثيين فقد كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم؛ وقد لعبت دوراً رئيساً في العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى، فغذت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود ضد الرومان، كما كانت هي بدورها تسند الفرثيين في حروبهم مع الرومان. وقد قامت العائلة المالكة في حدياب بإنشاء عدة أبنية في القدس من ضمنها قصر فخم وقد أمدّت أهل أورشليم بالمواد الغذائية في زمن كلوديوس (٤١ ـ ٥٤ م) حين حلّت بهم المجاعة[٥٤]. وقد زارت الملكة «هيلانة» ملكة حدياب مدينة القدس وقبيل وفاتها أمرت بحفر قبر لها في الصخر كما حفرت قبوراً مجاورة لأبنائها في المكان الذي يسمّى اليوم «قبور السلاطين» أمام مدرسة المطران في القدس. وتوجد اليوم كتابة منقوشة على قبر هيلانة ملكة حدياب في مقبرة السلاطين المذكورة التي يعود تاريخها إلى ٥٠ ـ ٦٠[٥٥].

ولا بدَّ من التوضيح هنا أن حكّام إمارة حدياب، سواء أكانوا وثنيين أم متهودين، هم من أهل البلاد. لذلك عندما نقول إن إمارة يهودية وجدت في هذا القطر أو ذاك في تلك الأزمنة فهذا لا يعني أن يهوداً جاؤوا من فلسطين واستولوا على الحكم في ذلك القطر. فإمارة حدياب مثلاً كان أميرها مونوبازس الأول وثنياً من أهل البلاد تزوج من أخته هيلينا فأنجبت إيزاط الأول، والظاهر أن الوثنيين كانوا يحلّلون الزواج من الأخت. وفي تلك الغضون اعتنق إيزاط الأول الديانة اليهودية وهو صبي بتأثير أحد التجار اليهود عندما كان في مدينة كاراكس

---

(٥٤) J. Neusner, op. cit, I, pp. 57, 61-78.

انظر ايضاً: «تاريخ كلدو وآثور»، ج ٢؛ «تاريخ الموصل» لمؤلفه سليمان صائغ، ١: ١٩.

(٥٥) «مخطوطات البحر الميت» تأليف ميللر بروز وترجمة محمود العابدي، عمان، ١٩٦٧، ص ٢١٢. انظر ايضاً: D. Diringer, «Writing», 1965, p. 139.

سباسينو على شط العرب، كما اعتنقت أمه هيلانة الدين اليهودي أيضاً تحت نفس التأثير. فلما مات مونوبازوس الأول خلفه ابنه إيزاط الأول المتهود على العرش، وعلى الرغم من النتائج السياسية المترتبة على هذا التحول في المذهب وخاصة بالنسبة للأسرة الحاكمة في البلد، فإنَّ ذلك لم يغير ما كان الناس عليه من حيث قوميتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم قبل التحول المذكور. ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن التحول من الوثنية إلى اليهودية أو إلى المسيحية بعد ظهورها كان أمراً مألوفاً في الشرق في هذه الفترة بالذات، كما قامت في نفس الوقت حركة قوية بين اليهود لاعتناق المسيحية وذلك بعد ظهورها مباشرة. وقد استمر هذا التذبذب عدة قرون حتى كان ظهور الإسلام فقضى على هذا التذبذب حيث دخل الوثنيون في الإسلام أفواجاً كما دخل بعض اليهود وبعض المسيحيين في الإسلام أيضاً وخاصة العرب منهم.

٧ ـ موجز تاريخ إمارة حدياب

وقد اعتبرت الكتابات اللاتينية والكتابات اليهودية تسمية حدياب مرادفة لآشور القديمة وهي على ما يرجح كلمة آرامية مأخوذة من اسم الزابين اللذين كانا يحدّان المملكة في أول نشأتها شمالاً وجنوباً. وقد ورد ذكر أيابين ـ حدياب على لسان هيرودوتس في القرن الخامس قبل الميلاد حيث قال: «تضفي هذه المنطقة على أرمينية سعة بالغة تمتد نحو الجنوب، وبذلك تضم مساحة شاسعة تعتد جزءاً من آشور ومادي عادة. وفي هذه المنطقة أربعة من المجاري المتقاطعة، ومن الضروري عبورها بالقوارب جميعاً، أولها دجلة، والثاني والثالث يحملان الاسم الواحد، وذلك على الرغم من أنهما نهران مختلفان لا ينبعان من محل واحد، ذلك أن أولهما نابع في أرمينية، بينما ينبع الثاني من بلاد (الماتيين)، ورابعهم يُدعى (جنديز Gyndes). ومما لا شكَّ فيه أن المقصود بالنهرين اللذين يحملان اسماً واحداً وأنهما نهران مختلفان لا ينبعان من محل واحد هما الزاب الأعلى والزاب الأسفل، أما النهر الرابع (جندين) فهو نهر ديالى. هذا مع العلم أن الزابين قد احتفظا باسميهما المشترك على ما ورد في المدونات الأشورية، فيسمي زينوفون (القرن الرابع ق.م.) نهر الزاب (زاباتس) ودیابا وزاب ودياب متشابهان. وقد أطلق إميان مرقلان (القرن الرابع للميلاد) اسم الزابين (أديابين ـ حدياب) على المنطقة التي يرويانها فيقول: «إن في هذه البلاد نهرين لا ينقطعان وقد سبق لنا عبورهما، إنهما «دياباس» (Diabas)

و«حدياباس» «Adiabas» وعلى كل منهما جسر من زواريق واسم حدياب مشتق من اسم النهر الثاني».

وقد تعاقب على حكم حدياب وعاصمتها أربيل الأشوريون والماديون (الإخمينيون) والإغريق والفرثيون والأرمن والرومان والساسانيون فالعرب. لقد كان الإقليم وعاصمته أربيل على قدر كبير من الازدهار أيام الأشوريين إلاَّ أن سقوط الأمبراطورية الأشورية سنة ٦١٢ ق.م. آل إلى استيلاء الماديين على حدياب وعلى عاصمتها الدينية أربيل. ثم انتهى حكم الفرس على أثر فتح الإسكندر لأربيل سنة ٣٣١ ق.م. وهنا دخل الإغريق إلى الشرق فخضعت حدياب إلى حكمهم ودام هذا الحكم من بعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م. حوالى قرنين من الزمن حيث استولى بعد ذلك الفرثيون على الإقليم. وفي سنة ٨٣ ق.م. غزا ملك أرمينية تكران الثاني الكبير (٩٤ - ٥٦ ق.م.)[٥٦] سورية وشمالي فلسطين وامتدت فتوحاته حتى وصل إلى عكة وتُشير الأخبار إلى أنه نقل عدداً من يهود فلسطين الشمالية إلى أرمينية[٥٧] وهدفه الاستفادة منهم في تشجيع الحركة العمرانية في بلاده وبعث الحركة التجارية فيها بإنشاء مراكز لها في أرمينية، فيعملون على تنميتها وتقدمها. وقد احتل تكران حدياب الفرثية أيضاً، إلاَّ أنه انسحب من سورية وفلسطين سنة ٦٩ ق.م. تحت ضغط الرومان، كما أنه انسحب من حدياب سنة ٦٤ ق.م. في عهد الملك الفرثي أفراهاط الثالث (٧٠ - ٥٧ ق.م.) فأُعيدت إلى حظيرة الدولة الفرثية. وقد اتسعت حدود إمارة حدياب بضم منطقة نصيبين والأراضي المجاورة لها في عهد ملوك حدياب المتهودين. ثم احتلها تراجان سنة ١١٥ م إثر مقاومة عنيفة إلاَّ أن الفرثيين استرجعوها بعد وفاة تراجان سنة ١١٧ م. ولكن الرومان لم ينقطع طمعهم في حدياب وأملهم في سلخها من الدولة الفرثية، فقد غزاها سفيروس سنة ١٩٦ م إلاَّ أن أولفاس الرابع (١٩١ - ٢٠٧ م) استطاع أن يرده على أعقابه، ولكن ذلك لم يمنع سفيروس من القيام بمحاولة أخرى فغزاها في السنة التالية واستطاع هذه المرة الاستيلاء عيها وإلحاقها بالأمبراطورية الرومانية. وقد اتخذ لقب أديابنيوس أي صاحب حدياب. وفي عهد الساسانيين (٢٢٦ - ٦٣٧ م) قامت عدة دويلات وثنية في إقليم حدياب إلى أن شقت المسيحية طريقها إليها حتى غدت حدياب

---

(٥٦) Ency. Brit, 19'5, Vol II, p. 419.

(٥٧) Neusner, op. cit., I, pp. 14, 26-27, III, p. 339.

في سنة ٥٠٠ الميلادية مستقراً لأسقفية نسطورية وتبعتها أسقفية الموصل والمدن المجاورة. وتدل القرائن التاريخية على أن أكثر اليهود في حدياب من زمن إمارة حدياب اليهودية قد تحولوا إلى المسيحية بعد تغلبها وإسناد البيزنطيين لها(٥٨). وبقي إقليم حدياب وعاصمته أربيل تحت حكم الفرس الساسانيين إلى أن زالت دولتهم بالفتح الإسلامي حيث دخل أهل «حدياب» في دين الإسلام الحنيف(٥٩).

وكان قد حاول أحد ملوك «حدياب» المسمَّى «قردك» الاستقلال عن الأمبراطورية الساسانية وتبعيته لها في عهد الملك الساساني شابور الثاني (٣٠٩ - ٣٨٣ م) ولكنه أخفق وقتل مدافعاً في قصره في عام ٣٥٩ م. وقد شهدت حدياب في أوائل العصر العباسي معركة تاريخية فاصلة وقعت عند الزاب الأعلى بين الموصل وأربيل (١٣٢ هـ/ ٧٤٩ م) بين آخر خلفاء الأمويين مروان وبين جموع العباسيين بقيادة عبدالله بن علي فهزم مروان وأتباعه.

٨ - موجز تاريخ أربيل عاصمة حدياب

وقد شهدت مدينة أربيل أحداثاً مهمة عبر تاريخ منطقة حدياب لعبت فيها الديانتان اليهودية والمسيحية دوراً خطيراً انعكست نتائجه على وضع المنطقة بأسرها. لذلك يحسن أن نعرض نبذة عن تاريخ هذه المدينة العريقة وتطورها في مختلف العصور.

كانت أربيل من المدن الرئيسة المهمة في العصور القديمة، فقد كانت مزدهرة في العهد الآشوري القديم بحيث غدت من بين الحواضر الآشورية الرئيسة فورد ذكرها باسم «أربيلا» في كتابات أحد ملوك هذا العصر المدعو «شمسي أدد» (٨٢٣ - ٨١١ ق.م.). وقد كانت إلى جانب ازدهارها الحضاري والعمراني إحدى القواعد العسكرية الآشورية، كما أنها كانت مركزاً دينياً مهماً لعبادة الآلهة الشهيرة عشتار وقد سميت «عشتار أربيلا» لتمييزها عن عشتار نينوى وعشتار مدينة أكد العاصمة الأكدية وقد اشتهر معبد عشتار أربيلا بأنَّه كان مركزاً للتنبؤ والفأل بطريقة فحص الكبد. وبلغت أربيل ومعبدها أوج ازدهارهما في عهد سرجون الثاني (٧٢٢ - ٧٠٥ ق.م.) وأخلافه. وقد وجه الملك آشور بانيبال

---

(٥٨) Neusner, op. cit., II, p. 243.

(٥٩) انظر مقال المرحوم فؤاد جميل بعنوان (حدياب أربيلا) المنشور في مجلة سومر، المجلد ٢٥ (١٩٦٩)، ص ٢١٩ - ٢٥٦.

(٦٦٩ ـ ٦٢٦ ق.م.) عنايته لشؤون المدينة فأقام سوراً لها وجدَّد بناء معبد عشتار. كما نالت المدينة من الحظوة والعناية في عهد الملك سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م.) فأقام لها مشروعاً لإروائها يتألف من قناة تأخذ من وادي باستورا على بعد نحو عشرين كيلومتراً شمالي أربيل. وقد أصاب مدينة أربيل كثير من الدمار إبان هجوم الفرس الماديين والبابليين الكلدانيين على بلاد آشور حتى سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م. وقد ضمت أربيل إثر ذلك إلى الدولة البابلية الكلدانية التي امتد حكمها بين سنة ٦٢٦ و٥٣٩ ق.م. ثم سقطت المدينة بيد الإخمينيين وظلت تابعة لهم حتى عام ٣٣١ ق.م. وهو العام الذي وقعت فيه المعركة التأريخية الحاسمة في كوكه مله بين الملك دارا الثالث آخر ملوك الدولة الفارسية الأخمينية وبين الإسكندر. ثم دخلت أربيل ضمن الأمبراطورية السلوقية بعد وفاة الإسكندر سنة ٣٢٣ ق.م. وظلت تابعة للسلوقيين حتى ظهر الفرثيون على المسرح.

ويتميز العصر الفرثي في بلاد الرافدين بالازدهار الكبير الذي حققته عدة مدن ومراكز عمرانية ومنها أربيل حيث صارت مركز إقليم ومملكة هي مملكة حدياب التي سبق الكلام عنها. فأصبح لأربيل في هذا العصر مكانة بارزة لدى الملوك الفرثيين بسبب موقعها الستراتيجي وخصب المنطقة التي تقع فيها فضلاً عمَّا كان لها من قدسية عند الفرثيين فكان أكثر ملوكهم يُدفنون في أربيل، ولمَّا غزاها الامبراطور الروماني كراكالا في أوائل القرن الثالث الميلادي (٢١٦ م) نبش قبور ملوك الفرثيين وانتهك حرمتها فكان ذلك إهانة كبرى للفرثيين الذين أخذوا يترقبون الفرصة للانتقام فتوترت العلاقة بينهم وبين الرومان ولم تنته إلاَّ بتنازل مكرينوس خلف كراكالا فدفع تعويضاً مالياً ضخماً عن انتهاك سلفه لحرمة قبور الملوك الفرثيين. وقد لعبت اليهودية دوراً سياسياً مهماً في العصر الفرثي هذا وذلك إثر تهود إيزاط ملك حدياب واعتلاء سلالة يهودية عرش مملكة حدياب في القرن الأول الميلادي، ثم بعد ذلك لعبت النصرانية هي الأخرى دوراً خطيراً أيضاً باشتداد حركة التنصير في المنطقة ونمو نفوذ الكنيسة المسيحية فيها وخاصة التنصير بين اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى هذه المنطقة. وقد ظهر في أربيل عدد من الكتّاب المسيحيين من بينهم الكاتب المسمَّى «شيحازخا» الذي ألف في تاريخ أربيل بالسريانية.

وكانت أربيل مسرحاً لوقائع حربية كثيرة بين الرومان والفرثيين ثم بين الرومان والساسانيين وازدهرت في عهدهم كما ازدهرت أيضاً في العهود العربية

الإسلامية فقد كتب المؤرخون والبلدانيون العرب في وصف ازدهارها التجاري وفي وصف قلعتها القديمة الشهيرة وجامعها.

وقامت في إقليم أربيل (حدياب) في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) إمارة أسَّسها في عام (٥٦٣ هـ/ ١١٦٧ م) زين الدين علي كوجك بن بكتكين في عهد المستنصر بالله (٦٢٣ ـ ٦٤٠ هـ، ١٢٢٦ ـ ١٢٤٣ م) وجعل مدينة أربيل عاصمة لها. فتوسعت رقعة هذه الإمارة حتى شملت الأقاليم والإمارات المجاورة فضُمَّ إليها إقليم شهرزور وإقليم الموصل وسنجار وحران والهكارية وتكريت ومنطقة داقوق (داقوقا)، ووصف المؤرّخون ازدهار أربيل في هذا العهد وخاصة ازدهارها التجاري الواسع، فكانت تُقام فيها الأسواق التجارية ولاسيما في مواسم الأعياد وبقي من آثار هذه الإمارة الآن منارة الجامع الذي بناه مظفر الدين «كوكبري» صهر صلاح الدين الأيوبي وهو آخر حكّام الأسرة البكتكينية وهو الجامع الذي أُطلق عليه اسم مسجد الكف. وبوفاة السلطان مظفر الدين في عام ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م) آلت الدويلة إلى الخليفة المستنصر بالله العباسي.

وتعرَّضت أربيل إلى هجوم المغول قبيل استيلائهم على بغداد وقد تمَّ لهم احتلالها بعد فتح بغداد بمساعدة بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل (القرن الثالث عشر الميلادي).

وتقوم الآن الأحياء القديمة على تل أثري مرتفع يسمَّى «قلعة أربيل» وهو يمثل لنا بقايا أدوار السكن منذ أقدم العصور. ويشغل هذا التل مساحة قدرها حوالى ٦٠,٠٠٠م٢ وارتفاعه زهاء ٣٥ متراً[٦٠].

٩ ـ التبشير بالنصرانية بين اليهود المسبيين في آشور (حدياب)

يرى بعض الباحثين المحققين أن غالبية اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى منطقة آشور الجبلية (انظر الفقرتين الثانية والثالثة من هذا الفصل) والتي كانت منطقة حدياب وعاصمتها أربيل من ضمن المناطق التي استقروا فيها قد صبؤوا إلى النصرانية بعد وفاة المسيح[٦٠أ]، فكانوا على رأي هؤلاء الباحثين يهوداً عندما جاء بهم الآشوريون إلى آشور، ثم لمَّا ظهر المسيح اتخذ أكثرهم تعاليمه ديناً

---

(٦٠) انظر: طه باقر، المرجع السابق، ص ٦٣٣ ـ ٦٥٩.

(٦٠ أ) Neusner, op.cit., II, p. 243.

لهم، وذلك نتيجة أعمال البعثات التبشيرية المسيحية التي أوفدها الحواريون الى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحي الجديد بينهم، مما يدل على أن الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال بهم. وقد حافظ هؤلاء اليهود الصابئون إلى النصرانية على تقاليدهم وعاداتهم ولغتهم القديمة، وهي نفس تقاليد وعادات ولغة اليهود القاطنين إلى جانبهم في تلك المناطق الجبلية، وهم أصبحوا قلة بينهم بقوا على يهوديتهم، ثم بعد ظهور النسطورية في القرن الخامس الميلادي[٦١]. اعتنقوا هذا المذهب وحافظوا عليه وعلى تعاليمه الأصلية باللغة السريانية القديمة (لغة المسيح) كما كانت عليه قبل أكثر من ألف وخمسمائة سنة[٦٢].

تدل المدونات التاريخية المسيحية على أن ثلاثة من تلاميذ السيد المسيح السبعين، وهم «ادى» و«ماري» و«احى»، جاؤوا بعد وفاة المسيح مباشرة إلى المشرق للتبشير بتعاليمه بين اليهود المسبيين وبين الوثنيين لتحويلهم إلى المسيحية. فقد ورد في أخبار فطاركة كرسي المشرق[٦٣] ما يفيد أن «مار ادي» وهو من السبعين الذين صحبوا المسيح قد ذهب إلى المشرق للتبشير هناك بالدين الجديد بين اليهود والوثنيين، فبدأ بناحية «حزة» والموصل و«باجرمي» وعاد إلى مدينة الرها، وتوفي هناك. وحزة هي إمارة حدياب في منطقة شمالي العراق وعاصمتها أربيل، وهي المنطقة التي نُقل إليها الأسباط العشرة من اليهود في العهد الآشوري نفسها وقد سبقت الإشارة الى ذلك. أما «باجرمي» فهي قرية من أعمال البليخ[٦٤]. وهذه الأماكن هي منطقة آشور نفسها التي ذكرت التوراة أن سرجون الثاني نقل الأسباط العشرة إليها، أي «حلح» و«خابور نهر جوزان» و«هارا»[٦٥].

والمهم هنا أن ماري بن سليمان يشير إلى «أن التعميد لم يقتصر على الوثنيين وإنما شمل اليهود أيضاً». ونحن نعلم أنه ليس هناك يهود في منطقة

---

(٦١) نسبة إلى نسطور صاحب المذهب المسيحي المعروف باسمه ومؤداه أن للمسيح شخصيتين (أقنومين) إلهي وإنساني.

(٦٢) انظر ما يلي في الفصل الثاني حول المسيحية ودور النسطورية فيها.

(٦٣) ماري بن سليمان، «أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل»، ص ١ ـ ٣.

(٦٤) ياقوت في معجم البلدان ١ : ٤٥٤.

(٦٥) انظر ما تقدّم حول ذلك في الفقرتين الثانية والثالثة من هذا الفصل.

حدياب غير اليهود الذين سباهم الآشوريون إليها، لذا فلا يمكن أن يكون المقصود باليهود الذين تمَّ تعميدهم، أي الصابئين إلى النصرانية، غير اليهود (الأسباط العشرة) الذين سباهم الآشوريون إلى تلك المنطقة. فيذكر ماري بن سليمان أن «أحي» و«ماري» توجها إلى نصيبين وأعمدا أهلها وأنفذ ماري إلى المشرق و«أحي» إلى «قردي وبازبدي». وكانت نصيبين من ضمن منطقة حدياب، أمَّا «بازبدي» فهي قرية في قبالة جزيرة ابن عمر قرب «باقردي» بازبدي في غربي دجلة وباقردي في شرقيه كورتان متقابلتان[٦٦]. وبقي ماري يطوف بلاد حدياب وكركوك وراذان وكشكر وساليق وميشان حتى وفاته في المداين سنة ٨٢ للميلاد. وكان قد أقام في المشرق ثلاث وثلاثين سنة، فأسَّس هناك كرسي الفطركية في المداين، وصار هو أول كل الأساقفة وناظر كرسي الفطركية[٦٧].

ولا يُخفى أن عمل التبشير بين اليهود المسبيين في إبان ظهور المسيحية كان أسهل على أدي وأحي وماري انجازه من أن يقوموا به بين الوثنيين لسببين، أولهما أن اليهود سبق لهم أن آمنوا بالتوحيد وأن دين المسيح لم يأتِ لهدم شريعة موسى، ألم يقل المسيح «لا تظنوا أنِّي جئت لأنقض الشريعة والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُتمِّم»[٦٨]. هذا من جهة، ومن الجهة الأخرى، أن هؤلاء الحواريين كانوا يتكلمون مع اليهود المسبيين ويتفاهمون معهم باللغة الأصلية نفسها التي كان اليهود والحواريون يتكلمون بها على حد سواء، وهي الآرامية لهجة المسيح، بينما كان يصعب عليهم التفاهم مع الوثنيين بلغاتهم المختلفة التي كانوا يجهلونها. هذا عدا كون اليهود مختتنين والختان بحسب مآثر الديانة الموسوية علامة العهد مع الرب. لذلك يرى فرويد أن هناك احتمالاً قوياً أن موسى نفسه كان مختتناً[٦٩] والختان عادة مصرية قديمة[٧٠]، وعلى هذا الأساس يؤكِّد الباحثون أن أول المتنصرين في الشرق والغرب كانوا من بين اليهود[٧١].

---

(٦٦) ياقوت ١: ٤٦٦، ٤٧٦.

(٦٧) «تاريخ كلدو وآثور» ٢: ٢؛ «أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل» لعمر بن متى؛ «أخبار فطاركة كرسي المشرق من تاب المجدل» لماري بن سليمان.

(٦٨) متى ٥: ١٧.

(٦٩) «موسى والتوحيد» الترجمة العربية ص ٤٩ ـ ٥٨.

(٧٠) انظر كتاب «العرب واليهود في التاريخ» للدكتور أحمد سوسة، الطبعة الرابعة المفصلة، ص ٤٦٧، ٤٧٢.

(٧١) J. Neusner, op. cit., Vol. I, p. 183.

ويؤيِّد ذلك الأب أدي شير فيقول ما نصه: «أن أول جماعات نصرانية قامت في بلادنا تألفت من اليهود»[٧١أ]. ويشير نيوزنر أن هناك عدداً كبيراً من يهود أرمينية الذين وُجدوا في أرمينية من زمن السبي الآشوري ثمَّ من زمن الملك تكران الكبير قد تنصروا أيضاً[٧٢].

ويؤكِّد المؤرّخون والباحثون أن إقليم حدياب الذي كان المركز الرئيس لليهود المسبيين من عهد الآشوريين شهد انطلاق حركة تنصر واسعة ظهرت فيه في القرون الأولى المسيحية حتى صار مركز أسقفية نسطورية في زمن مبكر من العهد المسيحي، وقد عرفت باسم أسقفية حدياب أو أسقفية أربيل، وظلت هذه الأسقفية محتفظة بمركزها المهم بحيث أن الجاثليق النسطوري نقل مقره في عام ١٢٨٠ م من بغداد إلى أربيل[٧٣]. وصارت الجماعات الصابئة إلى النصرانية من اليهود تعرف بالمينيم (Minim) والشخص الصابي إلى النصرانية بالمين (Min) حتى صار كل مسيحي من أصل يهودي يُعرف بهذا الاسم[٧٣ع٢].

وتتفق التواريخ المسيحية والكتب الطقسية القديمة على أن أولى الجماعات النصرانية في الشرق تألفت من اليهود المتنصرين، وأن تلميذي السيد المسيح أدي وماري هما اللذان بشَّرا أولاً بالمسيحية بين اليهود منذ الجيل الأول للمسيح. وأول أسقف عُيِّن في أربيل عاصمة حدياب كان من اليهود المتنصرين تنصَّر على يد الماراداي في أربيل، ثم تولَّى مهمة التبشير بالمسيحية بعد أدي وماري أساقفة من اليهود المتنصرين أيضاً كانت أعمالهم التبشيرية بين اليهود من أبناء طائفتهم. فقد تولَّى كرسي أسقفية أربيل عشرة أساقفة بين سنة ١٠٤ وسنة ٣١٢ للميلاد كانوا كلهم من اليهود المتنصرين كما تدل على ذلك أسماؤهم وهم: يقيدا وشمشون وإسحاق وإبراهام ونوح وهابيل وعبيد مشيحا وحيران وشحلوبا وآحاد بوي. وفيما يلي تسلسل وزمن توليهم كرسي أسقفية أربيل:

(٧١ أ) أدى شير، «كلدو وآثور»، ج ٢، ص ٨.

(٧٢) Ibid, III, p. 346.

(٧٣) طه باقر، مجلة المجمع العلمي الكردي، م٣، العدد الأول ١٩٧٥، ص ٦٥٢ ـ ٦٥٣.

(٧٣ أ) Neusner, op. cit., II, pp. 25, 74. III, pp. 10-16, 31, 354-358.

الاسم	مدة إشغالهم الأسقفية وزمنها
يقيدا	١٠ سنوات (١٠٤ ـ ١١٤ م)
شمشون	٣ سنوات (١٢٠ ـ ١٢٣ م)
إسحاق	١٣ سنة (١٢٣ ـ ١٣٦ م)
إبراهام	١٥ سنة (١٥٠ ـ ١٦٥ م)
نوح	١٦ سنة (١٦٥ ـ ١٨١ م)
هابيل	٧ سنوات (١٨٤ ـ ١٩١ م)
عبيد مشيحا	٢٥ سنة (١٩١ ـ ٢١٦ م)
حيران	٣٣ سنة (٢١٦ ـ ٢٤٩ م)
شحلوبا	١٥ سنة (٢٤٩ ـ ٢٦٤ م)
آحاد أبوي	١٨ سنة (٢٦٤ ـ ٢٨٢ م)

وقد ذكرت الأخبار أن پقيدا الذي عُيِّن أول أسقف في حدياب هو من الذين تتلمذوا على المار أدي في أربيل وكان من عائلة يهودية فقيرة وتنصَّر نحو سنة ٩٩ م فاضطهده أهله وحبسوه لكنه هرب ولحق بمار آدي وهو يكرز بالإنجيل في جبال حدياب وبقي عنده خمس سنوات، ثم جعله أسقفاً وأرسله إلى أربيل سنة ١٠٤ م. ونصّر پقيدا أهله وكثيرين من سكان المدينة وتوفي سنة ١١٤ ودُفن في منزل أهله[٧٤]. وقد مارس پقيدا مهام أسقفية أربيل في زمن ملكي الفرث پاقور الثاني (٧٧ ـ ١١١ م) وخوسرو (١١١ ـ ١٢١ م) وكانت إمارة حدياب آنذاك تحت حكم أسرة يهودية حكمت حدياب بين سنة ٣٦ وسنة ١١٥ م[٧٥].

ونخلص مما تقدّم أن التبشير بالمسيحية قد تمَّ في القرنين الثاني والثالث للميلاد على شكل واسع بين اليهود في منطقة حدياب على يد أساقفة من اليهود الصابئين إلى النصرانية، وكان ذلك بعد انقراض حكم السلالة اليهودية في حدياب على يد الأمبراطور تراجان سنة ١١٦ م. وهذا يكشف لنا أن اليهود الذين أسرهم الآشوريون ونقلوهم إلى جبال شمالي العراق وجبال أيران وتركيا وهم الأسباط العشرة الذين اعتبرهم المؤرّخون مفقودين كانوا لا يزالون في أماكنهم الجبلية التي استقروا فيها ولكن كمسيحيين لا كيهود. ومن الواضح أن

(٧٤) «تاريخ كلدو وأثور»، ج٢، ص ١ ـ ١٤.

(٧٥) انظر ما تقدّم حول إمارة حدياب في الفقرة ٦.

هؤلاء اليهود المسبيين وجدوا في منفاهم في هذه المنطقة الجبلية المنيعة خير موئل يحميهم من غارات الفاتحين فحافظوا على كيانهم واستقلالهم ولغتهم السريانية ومعها طقوس المذهب النسطوري، حيث كانوا في مأمن بعيدين عن ويلات الحروب وعاشوا كيهود قبل المسيح وكمسيحيين بعد المسيح.

والدليل على أن أكثرية اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى منطقة شمالي العراق وإلى جبال تركيا وإيران أصبحوا بحكم المفقودين نتيجة تنصرهم، أن اليهود الذين تمركزوا في بابل من سبي الكلدانيين فيما بعد لم يشيروا في كتاباتهم إلى وجودهم في جبال كردستان، وسبب ذلك أنهم كانوا يعتقدون أنهم اندمجوا بمحيطهم الوثني وأخذوا بالوثنية ديانة أهل المنطقة التي حلُّوا بها[٧٦]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

ونحن نعلم أن اليهود في بابل من سني نبوخذ نصر قد أسَّسوا عدة مدارس دينية وازدهرت عندهم الدراسات الفقهية على إثر انتقال علمائهم من فلسطين وكوَّنوا لهم مجتمعاً يهودياً ذا إمكانيات سياسية واقتصادية واجتماعية يحسب له حساب في العلاقات الدولية. فلو كان يهود شمالي العراق باقين على يهوديتهم لعلم بهم الربيون في بابل واستغلوهم في تنمية الإمكانيات الاقتصادية والدينية والاجتماعية بل والسياسية أيضاً في توسيع نفوذهم وقوتهم. فلو كان هؤلاء اليهود باقين على يهوديتهم لكان من واجب الربيين وزعماء اليهود في بابل أن يوفدوا عدداً من الأحبار إلى مناطقهم لتنظيم أحوالهم الدينية. فإذا رجعنا إلى التلمود البابلي نجده مليئاً بأخبار يهود بابل وتنظيماتهم الدينية والاجتماعية مع أخبار علمائهم ومدارسهم وما إلى ذلك من أوصاف عن حياتهم اليومية، لكن لم نجد شيئاً يذكر عن أخبار يهود شمالي العراق الذين كانوا يفوقون يهود بابل في عدد نفوسهم عدة أضعاف. وهل هناك دليل أقوى من المدلول الذي مرَّ بنا على تنصُّر يهود كردستان وهو أن التبشير بالمسيحية تمَّ على أيدي أساقفة من اليهود الذين تنصروا فبشروا بالمسيحية بين أبناء طائفتهم وهم مرتبطون معهم بوشائج عائلية ولغوية كان باستطاعتهم التأثير فيهم وإقناعهم بأفضلية الدين المسيحي الذي جاء لإصلاح ما أُدخل على الدين اليهودي من الانحراف عن دين موسى؟..

ويبدو أن الصابئين إلى النصرانية من اليهود كانوا في البداية يحفظون

---

(٧٦) Neusner, op. cit., III, pp. 31, 40.

السبت والأحد على أساس أنهم كانوا لا يزالون متمسكين ببعض وصايا الناموس وطقوسه، بينما كان المتنصرون من الأمم لا يحفظون إلاَّ الأحد ومع توالي الأيام صار الجميع يحفظون يوم الأحد فقط(٧٧). مع أنه لا يزال بعض الفرق المسيحية يعرف بالسبتية فيراعي السبت بدل الأحد.

وهناك نقطة مهمة لا بدَّ أن يسترعى الانتباه إليها، ألاَ وهي أن عدد اليهود الذين نقلهم الآشوريون إلى منطقة آشور القديمة (حدياب) في ثلاث حملات متتالية على إسرائيل ويهوذا بلغ ما يربو على أربعمائة ألف نسمة. ففي الحملة الأولى استولى الملك تجلات بلاشر الثالث على كل مدن إسرائيل عدا السامرة ونقل جميع سكان هذه المدن إلى آشور، ومع أنه لم يذكر عددهم ولكن لا بدَّ أنه كان أكثر من مائتي ألف نسمة إذا قسنا هذه الحملة بحملة سنحاريب التي نقل فيها أكثر من مائتي ألف نسمة من يهوذا وحدها. ولما كانت يهوذا تؤلف سبطين وإسرائيل تؤلف عشرة أسباط على قول التوراة فيكون ما قدرناه عن عدد الذين نقلهم تجلات بلاشر الثالث من جميع مدن إسرائيل بمائتي ألف نسمة أو ما يزيد تقديراً معتدلاً. ثم ينبئنا سرجون الثاني أنه نقل ما تبقى من يهود إسرائيل في مدينة السامرة التي احتلتها في الحملة الثانية ما مقداره ٢٧,٢٩٠ نسمة، كما أن سنحاريب يدعى في مدوناته أنه نقل من أسرى يهوذا ٢٠٠,١٥٠ نسمة إلى المنطقة نفسها (أي أشور). فمجموع هؤلاء يبلغ أكثر من أربعمائة ألف نسمة، ونحن نعلم أن هؤلاء كلهم بقوا في مناطقهم الجبلية أكثر من ٢٥٠٠ سنة فكان المفروض أن يزدادوا إلى أكثر من ضعف عددهم الأصلي في خلال هذه الفترة الطويلة التي قضوها منعزلين عن العالم في مناطقهم الجبلية. وهناك إثبات قاطع أن الأسباط العشرة من إسرائيل ومعهم الماسورون من يهوذا والذين ساقهم الآشوريون أسرى إلى جبال آشور كانوا موجودين في نفس المناطق التي نقلوا إليها في القرن الأول للميلاد. فإذا علمنا أن جميع اليهود في شمالي العراق لم يكن يربو عددهم عن ثلاثة عشر ألف نسمة حين غادروا مناطقهم الجبلية في حوادث فلسطين الأخيرة سنة ١٩٥٠ اتضح لنا على أصح الاستنتاجات أن الأكثرية الساحقة من اليهود المسبيين إلى آشور قد دخلوا في المسيحية بعد ظهور المسيح بطريق التبشير ثم صار هؤلاء اليهود المتنصرين يعرفون باسم النساطرة بعد أخذهم بالمذهب النسطوري في القرن الخامس للميلاد. ولانزواء هؤلاء

---

(٧٧) قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص ٣٩٦.

اليهود المتنصرين الذين صاروا يعرفون عبر التاريخ بالنساطرة في جبالهم النائية أكثر من ٢٥٠٠ سنة بعيدين عن الأحداث العالمية طوى الزمن الطويل أخبارهم حتى صار موضوع أصلهم لغزاً من الألغاز استغله الانكليز في مقاصد سياسية كما سنرى في بحثنا موضوع «المسيحية في الشرق ودور النساطرة فيها».

١٠ ـ أصل المسيحيين النساطرة في جبال كردستان وتسميتهم باسم آثوريين

لم يسبق أن نشب خلاف وغموض في أصل أحد الأقوام مثل الخلاف والغموض اللذين اكتنفا موضوع أصل المسيحيين النساطرة في كردستان، ولعل ذلك ناجم عن انزواء هذا الشعب في المناطق الجبلية المنيعة منذ أقدم العصور وصعوبة الوصول إلى مناطقهم مما جعلهم في وضع أمكنهم معه المحافظة على قوميتهم وعلى نفس اللغة التي كان يتكلم بها أجدادهم قبل أكثر من ٢٠٠٠ سنة، وكذلك المحافظة على كتبهم الدينية باللغة السريانية. هذا ما حمل بعض الباحثين على اعتبار كنيستهم النسطورية التي تُمارس طقوسها الدينية بنفس هذه اللغة أقدم كنيسة مسيحية لا تزال محافظة على تعاليمها الدينية الأصلية. لذلك تباينت الآراء وتعدّدت النظريات في تحديد أصل النساطرة، فقال بعضهم أنهم من بقايا النبط المسيحيين الذين هاجروا من سهول الموصل إلى جبال حيكاري وأورمية في العهد المغولي[٧٨]. وقال البعض الآخر انهم أحفاد كلداني بلاد ما بين النهرين الذين هجروا بلادهم الأصلية من جراء مضايقات الفاتحين والمغيرين ولجؤوا إلى جبال حيكاري في عهد قديم جداً، كما اعتبرهم البعض من العنصر الكردي كانوا يعيشون في جبال حيكاري في عهد قديم جداً، ولما اعتنقوا المذهب النسطوري سموا بهذا الاسم. كما ذهب بعضهم إلى أنهم اعتنقوا الديانة المسيحية في وقت متأخر، هذا على الرغم مما يثبت كونهم ساميين في قوميتهم وفي لغتهم السريانية السامية[٧٩].

وعلى الرغم من هذا الخلاف في تحديد أصل النساطرة فهناك إجماع على تسميتهم بالنساطرة عبر التاريخ، فقد عُرفوا بتسميتهم هذه منذ ظهور المذهب النسطوري في القرن الخامس للميلاد وذلك نسبة إلى نسطوريوس الذي دعا إلى

---

(٧٨) العقيد أمين الغمراوي، «قصة الأكراد في شمالي العراق»، القاهرة، ١٩٦٧، ص ١٠٢.
(٧٩) أمين زكي بك «خلاصة تاريخ الكرد وكردستان»، ص ١٣١.

اتباع تعاليم جديدة في مفهوم أصول العقيدة المسيحية (انظر ما يلي حول ذلك). وقد عرفتهم التواريخ المسيحية والكتب الطقوسية القديمة بهذه التسمية، كما عرفهم المؤرّخون العرب بهذه التسمية ذاتها في كتبهم. وقد سُموا أيضاً بالتيارية نسبة لأهم وأكبر عشائرهم (التياري العليا والتياري السفلي). وقد ظلت تسميتهم بالنساطرة مستعملة طوال القرون حتى اختار لهم رئيس أساقفة كنتربري تسمية جديدة هي اسم «آثوريين» وبالانكليزية (Assyrians) بمعنى آشوريين، وذلك حين أوفد بعثة تبشيرية إنكليزية سنة ١٨٨٦ م للتبشير بين النساطرة. وأن هذه البعثة إذ لم تستطع تحويلهم إلى اعتناق مذهبها فقد استطاعت إقناعهم بعدم لياقة التسمية النسطورية وأن تسميتهم باسم «آثوريين» ترفع من منزلتهم التاريخية في الأوساط العالمية، إذ لا بدَّ أن يكونوا أحفاد ذلك الشعب الأشوري العريق في السؤدد والحضارة. ومن بعد ذلك أخذ كل الباحثين والمبشرين من الإنكليز يجرون على هذا النحو، أي تسمية النسطوريين بالآثوريين.

وقد جاءت هذه التسمية الجديدة «آثوريين» تحريفاً لكلمة «سريان» على رأي البعض، وتحريفاً لكلمة «تياري» على رأي البعض الآخر. وإذا رجعنا للتسمية باللغة الانكليزية نجد أنه ليست هناك أية صعوبة في تحريف تسمية «سريان» إلى آشوريين، إذ يكفي اضافة حرف واحد لتصبح كلمة «سريان» (Syrian) آشوري (Assyrian). ومهما كان مصدر اشتقاق هذه التسمية الجديدة المحرّفة فإنَّ النساطرة لم يدعوا أنفسهم باسم آثوريين بمعنى آشوريين إلاَّ بعد وصول بعثة رئيس أساقفة كنتربري إلى مواطن النساطرة في منطقة حيكاري سنة ١٨٨٦ م، ثم نشرت دعاية واسعة لدعم هذه التسمية على لسان المبشّر الإنكليزي الدكتور ويكرام في كتاباته عن النساطرة(٨٠).

وفي تسمية النساطرة بالآثوريين يقول الدكتور شاكر خصباك في كتابه «العراق الشمالي» (ص ٢٢٤ ـ ٢٢٥ م) ما نصه: «يبدو أن اسم (آثوريين) هو تحريف للآشوريين Assyrian، قد أُطلق عليهم في أواسط القرن الماضي من قبل بعض الرحالة والكتّاب الإنكليز، ولعله كان تحريفاً لكلمة (السريان) Syrian

---

(٨٠) ومن كتبه العديدة في موضوع النساطرة. ويسميهم «الآشوريون»: W.A. Wigram, «An Intoduction to the History of the Assyrian Church, London, 1910; W.A. and E.A. Wigram, «Cradle of Mankind,» 1914; W.A. Wigram, «Our Smallest Ally», 1920; «Assyrian Settlement», 1922; «The Assyrians and Teir Neighbors», 1929.

باعتبارهم من الأقوام التي تتحدث باللغة السريانية. ومن الطبيعي أن تُميز تلك الأقوام بهذه التسمية نظراً لإحاطتها بمجموعات لغوية مغايرة كالمجموعات الكردية والتركية والإيرانية. غير أن هذه التسمية ما لبثت أن اقرنت على أيدي بعض الكتّاب الغربيين بالآشوريين القدماء، واعتبر هؤلاء القوم من أحفاد الاشوريين. وقد كان لمثل هذا التحول في التسمية مبررات سياسية وتاريخية. فأمّا المبررات السياسية فقد أثارها الرحالة والكتّاب الإنكليز ليثبتوا حقاً تاريخياً لهؤلاء الأقوام في منطقة الموصل الهامة، وقد أثبتت الوقائع فيما بعد قيمة تلك التسمية، إذ طالب الآثوريون بالفعل في أعقاب الحرب الكبرى الأولى بإقامة دولة لهم في شمالي العراق باعتبارهم يمتلكون حقاً تاريخياً في المنطقة. وأما المبررات التاريخية لهذه التسمية فتستند إلى كون الآثوريين ربما يكونون أساساً من منطقة الموصل بالفعل وقد غادروها فراراً من الاضطهاد في القرن الخامس عشر الميلادي والتجؤوا إلى مناطقهم الجديدة المنيعة في جبل حيكاري. ولا يمكننا الحكم بصورة علمية دقيقة على أصل القبائل الآثورية نظراً لافتقارنا إلى الدراسات العلمية الرصينة والأسانيد الثابتة البعيدة عن العاطفة والأهداف السياسية».

لقد حاول الدكتور ويكرام أن يستدل بطريقة عرض تصاوير فوتوغرافية على شبه ملامح الوجوه والتقاطيع بين الإنسان الآشوري المنقوش على الألواح الآشورية القديمة وبين تصوير أحد القسس النساطرة لدعم نظرية كون النساطرة منحدرين من الآشوريين القدماء[٨١]. وإذا رجعنا للمقارنة بين الصورتين لم نجد أي شبه بينهما بغير اللحيتين. لذلك نرى ستافورد صاحب كتاب «مأساة الآثوريين» مع أنه يؤيِّد ويؤكِّد نظرية ويكرام في مجرى بحثه عدة مرات[٨٢]، إلاّ أنه يرى في طريقة المقارنة بين التصويرين دليلاً ضعيفاً[٨٣]. ويتمسك بدليله الذي يعتبره أقوى حجة من طريقة المقارنة بين الصور التي اتبعها دكتور ويكرام، فيقول إن الشعوب التي تحكم مدة من الزمن في بلد ما لا بدَّ ان تترك وراءها أثر الجنس الذي يتكوّن منه الفاتحون دون أن يتغير على الرغم مما يكتنفه من اختلاط عادة. وهذا في رأيه ينطبق على الآشوريين الذين حكموا بلاد الرافدين

---

(٨١) «The Assyrians and Their Neighbors», pp. 178-179.

(٨٢) Stafford, op. cit., pp. 13, 15, 16, 18, 19, 39.

(٨٣) Ibid., p. 19.

عدة قرون إذ تركوا أثر جنسهم بالنساطرة[٨٤]. ويضيف إلى ذلك قوله: «ومما هو أوثق صحة وأكثر تأكيداً أن هذا الأثر المتبقي لم يتغير عن الأصل إلاَّ قليلاً في خلال الخمسماية سنة الأخيرة لأن التزواج بين الآثوريين ومجاوريهم كان معدوماً في خلال هذه الفترة[٨٥]. ونلاحظ أن ستافورد مع تأكيده في عدة أماكن من كتابه نظرية انحدار النساطرة من الآشوريين وذلك بنعتهم «بأحفاد ذلك الشعب العظيم» وأمثال هذه النعوت يحاول في بعض الأحيان أن يعزو الاعتقاد بهذه النظرية إلى النساطرة أنفسهم، فيقول إن الآثوريين (النساطرة) يعتقدون أنهم منحدرون من الآشوريين القدماء. والحقيقة أن النساطرة لم يكونوا يعتقدون بهذه النظرية ولم تخطر ببالهم أو فكَّروا فيها قبل أن يدخل الدكتور ويكرام المبشر الإنكليزي بلادهم في أواخر القرن التاسع عشر حيث لقنهم هذه الفكرة التي جاءت وفق رغبات المارشمعونية (البطريركية النسطورية) التي كانت تطمع بتشكيل دولة آثورية بزعامتها. وقد نجح الإنكليز بتعميم الفكرة وإقناع زعماء النساطرة أنهم أحفاد الآشوريين القدماء وأن لهم الحق أن يمتلكوا أرض أجدادهم، ولكن الخلافات المستحكمة بين رؤساء القبائل النسطورية وانعدام اتحاد الرأي بينهم والظروف السياسية بغير صالحهم أدت إلى فشل التخطيط البريطاني حتى تشتتوا ونكبوا بزوال كيانهم.

ويعترف المستر ادمونز الخبير البريطاني بشؤون الأكراد المعروف «بأنَّ النساطرة المسيحيين قد عُرفوا في إنكلترا باسم آشوريين»[٨٦]. ويعني بذلك أن إنكلترا هي التي ابتدعت هذه التسمية وتمسكت بها فأخذ الكتّاب الأنكليز بها وتبعهم الباحثون من الدول الأخرى وهم يجهلون ما كان يقصد به الإنكليز من إطلاق اسم آثوريين على النساطرة.

ويعلق الأب فردينان توتل اليسوعي على كلام ويكرام فيقول: فقد يرى الدكتور ويكرام «أن الآشوريين أو النساطرة المقيمين في بلاد ما بين النهرين إنما هم سلالة الدولة الآشورية الكبرى التي ازدهرت نحو القرن العاشر قبل المسيح، ثم تقلص ظلها وسقطت، ولم تندثر بقاياها كلها. . . وما بقاياها إلاَّ النساطرة

---

(٨٤) Ibid., p. 16.

(٨٥) Stafford, Op. Cit., p. 16.

(٨٦) بي. جي. ادمونز، «كرد وترك وعرب»، ترجمة جرجيس فتح الله، بغداد، ١٩٧١، ص ٧.

المقيمين في ديار الموصل، ويسمّي ويكرام كنيستهم (الآشورية) ويتخذ برهاناً على كونهم حقيقة أحفاد الآشوريين القدماء أنهم قطنوا على مدى الأجيال البلاد التي كانت في قديم الزمان مملكة آشور، وأن لهم تقاليد ينتسبون بها إلى الآشوريين، وأن لغتهم الآرامية في أصلها واحدة مع اللغة الآشورية، وأن ملامح وجوههم وتقاطيعها أشبه بالملامح والتقاطيع المصورة على الآثار الآشورية الثابتة إلى يومنا». ثم يضيف الأب فردينان إلى ذلك قوله: «ولا أدري هل يقتنع الآثوريون ببراهين الدكتور ويكرام على آشورية النساطرة؟.. فإنَّهم إن انتسبوا للآشوريين، فغيرهم أيضاً ينتسب إلى ذلك الشعب القديم كالقبائل الكردية؛ وإن سكنوا بلاد آشور القديمة فالأكراد أيضاً سكنوها. أمَّا ملامح التشابه بين صورة أحد النساطرة في يومنا وصورة أحد الآشوريين القدماء فليست دليلاً قاطعاً على آشوريته وكون لغة النساطرة آرامية الأصل فقد يدل أيضاً على أصلهم الآرامي»[٨٧].

وليس بخاف ما كان يرمي الإنكليز من وراء تسمية النساطرة بـ «آثوريين» من أغراض سياسية تهدف دعم حق النساطرة ببلاد آشور باعتبارهم من بقايا الآشوريين. وفعلاً أعقب ذلك أن تقدم المارشمعون رئيس طائفة النساطرة بعد الحرب العالمية الأولى بتوجيه من الإنكليز الذين كانوا مسيطرين على شؤون العراق وقتذاك بطلب إلى الحكومة العراقية لتشكيل دولة (آثورية؟) بزعامته تمتد من كفرى في جنوب كركوك إلى ديار بكر شمالاً[٨٨]. ثم وجه المارشمعون وأنصاره مذكرة إلى المعتمد السامي البريطاني في بغداد ضمنوها مطاليبهم. وقد تضمنت المذكرة المطالبة بالاعتراف بهم كملّة أي شعب مقيم في العراق لا كأقلية عنصرية أو دينية وأن يُعاد لهم وطنهم الأصلي الذي كان يعرف قبل الحرب سياسياً وإدارياً بسنجق حيكاري وأن توسع حدود العراق لتشتمل تلك الأراضي. وإذا استحال هذا فإنَّهم يطلبون إيجاد موطن لهم كملّة خصوصاً لجمع الآثوريين في العراق وخارجه الذين هم من التبعة العثمانية وأن يشمل هذا الموطن مناطق زاخو ودهوك وعقرة والأقسام الملاصقة لمنطقة العمادية ومنطقة العمادية كافة، على أن تكون هذه منطقة آثورية من الناحيتين السياسية والإدارية وتجعل شبه لواء

---

(٨٧) «الآشوريون والنساطرة»، مجلة المشرق م٢٨ (١٩٣٠) عدد تموز ١٩٣٠، ص ٥٠٩ - ٥١٠.

(٨٨) Stafford, op. cit., p. 39.

ملحق بلواء الموصل مركزه الإداري دهوك وأن تعترف الحكومة العراقية بزعامة المارشمعون على الملّة الآثورية، زعامة سياسية ودينية. وأن يكون منهم نائب واحد في المجلس النيابي العراقي... بشرط أن يصدر بذلك قرار رسمي من عصبة الأمم وبشرط أن يقترن بإخلاص وخضوع الآثوريين للحكومتين العراقية والبريطانية[٨٩].

ومما يدل على أن مصدر هذا التوجيه والتحريض هو سلطات الانتداب الإنكليزية التي تبنت مشروع إنشاء دولة آثورية على أرض الأكراد في العراق لاستخدامها في أغراضها الاستعمارية أن تقدَّم ارنولد ويلسون الحاكم الملكي العام في العراق فأرسل في آب ١٩٢٠ برقية إلى وزارة الحرب البريطانية ضمنها طلب تحقيق هذا المشروع حيث قال فيها ما نصه: «ستتهيأ لنا فرصة لإنصاف الطائفة الآثورية بطريقة ترضاها هي وترضاها الأفكار الأوروبية وتمكننا من حل مشكلة من أعسر المشكلات الخاصة بالأقلية الدينية والجنسية في كردستان، وتخلصنا من خطر داهم على مستقبل السلم في شمالي العراق»[٩٠].

وبعد أن حول الانكليز تسمية نسطوريين إلى آثوريين وصار الآثوريون يعتبرون أنفسهم آشوريين صدرت عدة كتب آثورية وهي تسترسل بالإشادة بتاريخ الآشوريين والكلدانيين وحضارتهما على أساس أن النساطرة هم أحفاد الآشوريين والكلدانيين، وهكذا تحوَّل البحث من تاريخ النساطرة إلى تاريخ الآشوريين والكلدانيين على أساس أن كليهما تاريخ واحد. ومن أهم هذه الكتب (كلدو وآثور) للأب آدي شير صدر سنة ١٩١٢ وهو يسرد تاريخ الآشوريين والكلدانيين ويسترسل في إظهار عظمتهما وما تركاه من تراث حضاري أثيل باعتبارهما أجداد النساطرة. ومنها أيضاً كتاب (الآشوريون في التاريخ) جمعه بالإنكليزية ايشو مالك جواردو ونقله إلى العربية سليم واكيم وطُبع في بيروت سنة ١٩٦٢.

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أنه لما دخل الإنكليز مدينة الموصل بعد استسلامها إليهم بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٩١٨ عيَّنوا الرحالة الإنكليزي الشهير

---

(٨٩) صفاء عبد الوهاب المبارك، «انقلاب سنة ١٩٣٦»، رسالة ماجستير، كلية الآداب العراقية، ١٩٧٣، ص ٣٥. نقلاً عن مركز حفظ الوثائق، ملفة وزارة الداخلية رقم د/ ١١ (الأقليات وما يتعلق بها) حزيران ـ تموز ١٩٣٣، اوراق تسلسل ٢٦، ٢٩.

(٩٠) المرجع السابق نقلاً عن: A. Wilson, «Mesopotamia, 1917-1920, Clash of Loyalties,» Vol. 2, pp. 39-47.

الزعيم العسكري ليجمان حاكماً عسكرياً وسياسياً على ولاية الموصل وبقي في هذا المنصب حتى تشرين الأول ١٩١٩. فصدرت في خلال هذه الفترة جريدة باسم الموصل كانت تُعنى بنشر الأوامر والأنباء المتعلقة بإدارة البلاد، فأوعز ليجمان إلى رئيس تحريرها بأن يُعنى عناية خاصة بنشر أخبار الآثوريين وأن يُطلق على الآنسة سورما عمة المارشمعون بطريرق النساطرة لقب صاحبة السمو الأميرة الآثورية سورما، وطلب إليه أن يضيف بأنَّ صاحبة السمو موجودة الآن في لندن وقد زارت المراجع الحكومية العليا وقابلت أولي الشأن فيها، طالبة منهم تحقيق الوعود التي قطعها الإنكليز لمواطنيها في أثناء الحرب بإنشاء وطن قومي للآثوريين الكلدانيين في العراق الشمالي (الموصل وجوارها)، فاستغرب رئيس التحرير ـ وهو كلداني المذهب ـ أقوال ليجمان ونفى وجود قوم باسم الآثوريين، ووجود أميرة عليهم، وأخذ يشرح له حقيقة هؤلاء الأكراد المتنصرين بالمذهب النسطوري، وأنهم ليسوا من الآثورية الكلدانية في شيء ولكنهم أكراد. . . ونصح ليجمان بوجوب عدم التطرُّق إلى هذه النغمة لأنها توجد شقاقاً بين سكان الموصل من مسلمين ومسيحيين، ومن مسيحيين فيما بينهم، لأن نصارى الموصل أنفسهم كانوا منذ القدم حتى الآن ينظرون إلى هذه الفئة من الأكراد المتنصرة بشيء من الجفاء فأبى ليجمان إلاَّ الإصرار على رأيه. هذا ما ذكره يوسف يزبك في كتابه (النفط مستعبد الشعوب)، بيروت ١٩٣٤، (ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧) ونقلاً عن كاهن عالم جليل مسيحي كاثوليكي زاره في الموصل، وأضاف قوله: (لقد لعب الاستعمار أدهى لعبة في حوادث التياريين وكاد ينجح فيها على طول الخط، وذلك أنه صوَّر تلك القبائل الكردية النسطورية للرأي العالمي بأنها (أمَّة) ذات تاريخ قومي مجيد، ولم يكتف الاستعمار بنسبة هذه القبائل إلى الآشوريين والكلدانيين، أصحاب التاريخ الأبلج في الحضارة وقال للرأي العام المسيحي في الدنيا: إن هؤلاء الآثوريين هم إخوتكم في المسيح، إنهم مظلومون، مضطهدون، تذبحهم الأكثرية المسلمة تعصباً وبغضاً وانتقاماً. . . هذا في حين لم تكن هذه القبائل الساذجة التي جعلها الاستعمار حطباً لموقد مطامعه فهي لم تكن يوماً بوارثة الأمة الآشورية، ولا تعرف آثور وكلدية، . . وقد اعتنقت المذهب النسطوري فكانت مسيحية بقدر ما تكون قبائل البدو الرحل مسلمة). (المرجع السابق، ص ٢٣٧ ـ ٢٣٨).

وقد شجب الباحثون في نظرية رئيس أساقفة كنتربري التي تُرجع اصل النساطرة إلى الآشوريين القدماء بعد إطلاق اسم (آثوريين) عليهم. ففي ذلك يقول

الأستاذ محمود الدرة: (والحقيقة هي أننا إذا استقصينا أصلهم وتحققنا تاريخهم وعلاقته بالشعب الآشوري القديم الذي نزح من الغرب والجنوب الغربي إلى العراق نجد أن للسياسة الاستعمارية دوراً كبيراً في هذه التسمية، مستفيدة في ذلك من غموض تاريخهم واختلاف الرأي فيه)(٩١). كما يقول المرحوم صديق الدملوجي: (والمسيحية في إمارة بهدينان هي النسطورية نسبة إلى نسطوريوس الذي قام بالدعوى فيها في أوائل القرن الخامس الميلادي ولا يصح أن يُعد هؤلاء النصارى معتنقي ديانة نسطوريوس بآشوريين إذ لا علاقة لهم بالآشورية)(٩٢).

ويلاحظ أن البريطانيين غيّروا سياستهم تجاه الآثوريين بعد أن قرروا إنهاء الانتداب على العراق وعقد معاهدة مع الحكومة العراقية يؤمنون فيها مصالحهم، وعليه أخذ رجالهم المسؤولون يقرون بحقيقة أصل الآثوريين فعدلوا عن وصفهم بأحفاد الآشوريين وأبانوا في وثائقهم السرية التي أبيح مراجعتها مؤخراً أن تسمية الآثوريين بالآشوريين تسمية مضللة وينبغي وصفهم بكونهم طائفة دينية تدين بالمذهب النسطوري مما يوجب تسميتهم بالنساطرة. ففي كتاب سري من السر فرنسيس همفريز السفير البريطاني في العراق إلى السر جون سايمون في وزارة الخارجية البريطانية بتاريخ ١٨ تشرين الأول ١٩٣٣ يقول ما نصه: «إن تسمية (آشوريين) التي أطلقت عليهم (الآثوريين) هي تسمية مضللة، لذلك يتوجب وصفهم كطائفة دينية وليس كأمة»(٩٢أ).

«The name Assyrians, which came to be applied to them later, is a misnomer. It is as a church and not as a nation, that Should be described».

وفي مذكرة سرية من (Sterdale Benett) من الدائرة الخارجية البريطانية عنوانها «ملخص تاريخي للقضية الآثورية» جاء ما نصه: «إن آثوريي العراق الذين تتجه مساعي عصبة الأمم حالياً إلى إيجاد وطن جديد لهم في مكان ما هم أقلية دينية وليس لهم صفة عرقية، لذلك فمن الأصح تسميتهم بالنساطرة»(٩٢ب).

«The Assyrians of Iraq For ahom the league of Nations at present is trying to find a new home et se whwew, are a religions rther than a racila minority. It would be more correct to refer to them as Nestorian».

---

(٩١) «القضية الكردية»، ص ٩٤.

(٩٢) «إمارة بهدنيان»، ص ١٣.

(٩٢أ) سجلات وزارة الخارجية البريطانية Fo 371-1684/E 6229, Oct. 18, 1933.

(٩٢ب) سجلات وزارة الخارجية البريطانية Fo 371-17834/E 1035, Feb. 12, 1934.

١١ ـ دراسة الدكتور غرانت في أصل النساطرة:

وقد كادت هذه المسألة (مسألة أصل النساطرة) تبقى غامضة فيسدل الزمن الستار على حقيقتها لولا ظهور أحد الباحثين قبل حوالى ١٤٠ سنة، فأخذ على عاتقه دراسة هذا الموضوع دراسة علمية عملية، وقد ساعدته الظروف التي وجد فيها، وهي أنه قضى عدة سنوات في منطقة النساطرة فتجول بينهم في مواطنهم في جبال تركيا وإيران والعراق، وبعد استقصائه للحقائق واستدلاله بالبراهين القوية الحجة توصَّل إلى أن النساطرة في منطقة الجبال هم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون بعد قضائهم على مملكة إسرائيل إلى المناطق الجبلية الكردية الموزعة بين تركيا وإيران والعراق الحالية وهؤلاء هم الأسباط العشرة الذين اعتبروا بحكم المفقودين لاختفاء أخبارهم نهائياً بعد أن تنصروا إثر ظهور النصرانية، ثم تبنوا المذهب النسطوري الذي حافظوا على تعاليمه وطقوسه ولغة كتبه الأصلية في مواطنهم الجبلية المنعزلة أكثر من ألفي سنة. وهذا الباحث هو الدكتور غرانت، الطبيب والمبشر الأمريكي الذي كان قد حل بين النساطرة في مواطنهم على رأس بعثة تبشيرية أوفدها مجلس البعثات البروتستانتية الأمريكية سنة ١٨٣٥ م، وبحكم مهنته كطبيب استطاع أن يتوغل بين القبائل المسيحية النسطورية والقبائل الكردية في تلك المناطق الجبلية المنيعة والمحفوفة بالمخاطر، فاتخذ الدكتور غرانت أورمية مركزاً لعمله وأسَّس عشر مدارس في القرى المسيحية في مختلف أنحاء المنطقة ومدرسة واحدة للبنات داخلية في أورمية[٩٣].

وقد تعلَّم الدكتور غرانت لغة النساطرة التي يتفاهمون بها ما بينهم (اللهجة الآرامية السريانية المعروفة بالترجوم) وترجم بعض أقسام من الإنجيل ومن العهد القديم إلى هذه اللغة وجلب مطبعة لطبع الكتب بها، كما تعلم اللغة الكردية مما سهل عليه إنجاز مهمته. وقد قضى الدكتور غرانت هو وعائلته ست سنوات في

(٩٣) أورمية بلدة إيرانية تقع قرب الساحل الغربي للبحيرة المعروفة بنفس هذا الاسم (بحيرة أورمية). هي مسقط رأس زرادشت ومركز للمجوس عبدة النار، كما أنها مركز من أعرق مراكز النصرانية في العالم، كنيستها من أقدم الكنائس السريانية الشرقية ككل الكنائس الجبلية. غزتها الفرق المسيحية بمذاهبها المختلفة كفرق الروس الأرثوذكس والرومان والفرنسيين الكاثوليك والمعمدانيين الأمريكان والبروتستانت الإنكليز كل من هؤلاء يبذل أقصى الجهود لجر أتباع هذه الكنيسة إلى مذهبه، سكانها حسب إحصاء سنة ١٩٥٦ (٦٧١٥٨٠) نسمة أكثرهم من الأتراك وفيها أقليات من الأرمن والنساطرة.

المنطقة الموزعة بين تركيا وإيران والعراق، وبعد دراسة عميقة لعادات هؤلاء النساطرة وتقاليدهم وطقوسهم الدينية واتصالاته بالشخصيات الدينية والقبائلية من النساطرة واليهود بخاصة اتصاله ببطريرق النساطرة الأكبر (المارشمعون) الذي كان مقره في «قوجانس» التابعة لقضاء (جولامرك) التركي، توصل إلى أن النساطرة القاطنين في كردستان هم من أحفاد الأسباط العشرة الذين سباهم الآشوريون وأبعدوهم إلى مناطق آشور النائية، وهي المناطق التي ورد ذكرها في التوراة، أي «حلح» و(خابور نهر جوزان) و(هارا) ومدن مادي. وهؤلاء هم الاسباط العشرة الذين اعتبروا مفقودين لانقطاع الاتصال بهم وطمس أخبارهم بعد تشتيتهم في مناطق كردستان الجبلية النائية فأُطلقت عليهم تسمية «الأسباط المفقودة» (The Lost Tribes) وقد كان هؤلاء على رأي الدكتور غرانت يهوداً عندما نفاهم الآشوريون إلى هذه المناطق الجبلية البعيدة(٩٤)، ثم لمَّا ظهر المسيح بعد أكثر من سبعة قرون إتخذ أكثرهم بل كلهم تقريباً تعاليمه ديناً لهم وذلك نتيجة إرسال البعثات المسيحية التبشيرية التي أوفدها الحواريون أتباع المسيح إلى هذه المناطق للتبشير بتعاليم الدين المسيحي الجديد بينهم مما يدل على أن الحواريين كانوا على علم بوجود الأسباط العشرة في تلك المناطق وكانوا على اتصال مسبق بهم. وقد حافظ هؤلاء اليهود المتنصرين على تقاليدهم وعاداتهم القديمة التي هي نفس تقاليد وعادات ولغة اليهود القاطنين إلى جانبهم في تلك المناطق، وهم قلة بينهم بقوا على يهوديتهم، حتى أنه كان من الصعب التميز بين النساطرة وبين اليهود القاطنين في المنطقة نفسها حيث كان كلاهما يتكلمان بلغة واحدة ويلبسان لباساً واحداً. وقد أورد الدكتور غرانت أدلة كثيرة بصورة مفصلة لدعم ما توصل إليه بخصوص أصل النساطرة في كتاب نشره بالإنكليزية تحت عنوان «النساطرة أو الأسباط المفقودة»، وطُبع هذا الكتاب في لندن سنة ١٨٤١ م، ثمَّ تُرجم إلى الفرنسية وطُبعت الترجمة بباريس سنة ١٨٤٣ م.

أمَّا الأدلة التي يستند إليها الدكتور غرانت والتي أدت به إلى التوصل إلى النتائج المذكورة فيما مرَّ فقد أوردها بشكل مفصل في كتابه ندون فيما يلي خلاصتها:

أولاً - إن اللهجة التي يتخاطب بها النسطوريون ما بينهم هي اللهجة نفسها

(٩٤) انظر ما تقدم حول سبي اليهود إلى المناطق الجبلية من كردستان.

التي يتكلم بها اليهود القاطنون إلى جانبهم مما يدل على أن كليهما يرجعان إلى أصل واحد وقد جاؤوا إلى منطقة آشور من بلد غريب يتكلم أهله بهذه اللهجة «لغة الترجوم» وهو فلسطين. ويؤكِّد الدكتور غرانت أن النسطوريين المسيحيين في أورمية يتفاهمون مع اليهود القاطنين في العمادية بلهجة واحدة بحيث يتعذر التمييز بينهما ـ كما يؤكِّد أنه كان يتكلم مع يهود أورمية بلهجتهم السريانية العامية بنفس السهولة التي يتكلم بها مع النساطرة المسيحيين، ويستشهد الدكتور غرانت بأشخاص ذكر أسماءهم يقول أن هؤلاء درسوا اللغة السريانية العامية عند النساطرة وعند اليهود في منطقة كردستان وهم يؤيِّدون ما ذهب إليه من أن الفريقين يتكلمان بلهجة واحدة. وينتهي الدكتور غرانت إلى أن هذه حجة قوية لا تقبل الجدال بأنَّ كلا الفريقين ينتميان إلى أصل واحد، أي إلى بلد غريب جاءا منه إلى منطقة آشور، وهذا البلد الغريب هو فلسطين التي كان يهود إسرائيل يتكلمون بهذه اللهجة قبل سبيهم إلى آشور. وهذه هي اللهجة نفسها التي كان يتكلم بها المسيح وهي غير لهجة الكتب المقدّسة وهي اللغة السريانية الكلاسيكية. ويُشير الدكتور غرانت إلى نقطة هي مهمة في نظره، وهي أن النساطرة واليهود في جبال كردستان هم الجماعة التي بقيت تتكلم بهذه اللهجة (الآرامية) السامية القديمة ومعهم بعض أهالي القرى المسيحية في سورية الذين لا يزالون يتكلمون هذه اللهجة ولعلهم يرجعون إلى نفس المنطقة التي جاء منها اليهود أي فلسطين[٩٥].

ثانياً ـ إن يهود كردستان لا يختلطون مع النساطرة ونادراً ما يتزاورون ما بينهم، واليهودي لا يأكل من النسطوري، وهذا دليل آخر على أن النسطوريين المسيحيين واليهود في كردستان يرجعون إلى أصل واحد. فإذا رجعنا إلى التاريخ نجد أن هذه هي نفس العداوة التقليدية بين اليهودية والمسيحية ورثها اليهود والمسيحيون عن أجدادهم على الرغم من رابطة اللغة التي تربط بينهما. ولا يزال اليهود حتى هذا اليوم لا يحجمون عن تعبيرهم عن هذه العداوة كلما يُبحث موضوع المسيحية وصلتها باليهودية[٩٦]، وصلة النساطرة واليهود في كردستان هي أشبه بصلة اليهود بالسامريين في فلسطين[٩٧].

---

(٩٥) A. Grant, «op. cit.,» pp. 153-163.

(٩٦) A. Grant, op. cit., pp. 199-202, 127.

(٩٧) السامريون فئة قليلة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة المنسوبة إلى النبي موسى، وتُعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة إلى السامرة وهم يسكنون في نابلس =

ثالثاً ـ إن الشعب النسطوري غريب في علاقته مع القاطنين بجواره، فهو منعزل تماماً لا يختلط مع أي عنصر غير عنصره.

وهذه هي الخصلة نفسها التي يتميز بها اليهود مما يدل على أن النساطرة ورثوها عن أجدادهم اليهود ـ مع العلم أن النساطرة لا يختلطون حتى مع إخوانهم في الدين أي الأرمن ولا يتزاوجون معهم. ومن أبرز ما ورثوه عن الأجداد اليهود أنهم لا يزالون يعيشون على شكل قبائل منفصلة بأسمائها الخاصة كما كانت عليه الأسباط اليهود في فلسطين[٩٨].

رابعاً ـ إن جميع أسماء بطارقة النساطرة تقريباً وأكثر أسماء النساطرة هي أسماء يهودية وردت في التوراة، كذلك أسماء النساء النسطوريات، وهذا ما يدل على صلتهم بالأجداد اليهود[٩٩].

خامساً ـ إن هناك شبهاً وثيقاً بين تركيب جسم النسطوري المسيحي وبين التركيب الجسمي لليهود القاطنين في نفس المنطقة التي يسكنها النساطرة المسيحيون، بحيث لا يستطيع حتى أهل المنطقة أن يميِّزوا بين النسطوري والمسيحي واليهودي القاطن بالمنطقة نفسها، ويؤكِّد الدكتور غرانت بأنَّه هو نفسه لم يستطع أن يميِّز بين النسطوري المسيحي واليهودي في كردستان التي عاش فيها عدة سنوات، ويستشهد بأشخاص ذكرهم بأسمائهم من الإرساليات التبشيرية يؤيِّدون ذلك[١٠٠].

سادساً ـ يذكر الدكتور غرانت أن المرجع الأساس الذي يمكن الاستدلال به على أصل النساطرة هم اليهود القاطنون في نفس المنطقة التي يسكنها النسطوريون، لذلك فقد اتصل بالعديد منهم وخاصة العارفين منهم، فأيَّدوا له أنهم هم والنسطوريون من أصل واحد جاء بهم الآشوريون من فلسطين إلى جبال

(شكيم القديمة) وتوجد لديهم نسخة قديمة من الأسفار الخمسة على رق يدَّعون بأنَّها تُرجع إلى ما قبل عهد المسيح، وهم يرفضون كل ما عداها وما يزالون يتمسَّكون بها حتى اليوم. وقد استقلت هذه الفئة بكيانها الديني، وعمل اليهود على إخراجها من الحظيرة اليهودية، وقد بنت لها هيكلاً خاصاً بها على جبل «جرزيم» عند نابلس واعتبرته بمثابة «جبل الطور». وقد قام بينها وبين اليهود عداء استمر حتى هذا اليوم.

(٩٨) A. Grant, op. cit., pp. 202-206, 194-197.

(٩٩) Ibid., pp. 193-194.

(١٠٠) Ibid., pp. 192-193.

آشور، ثم ارتد القسم الأكبر منهم عن اليهودية وصبؤوا إلى النصرانية بعد وفاة المسيح مباشرة على يد الحواريين. وقد سجل الدكتور غرانت حديثاً بتاريخ ٦ مارت ١٨٤٠ م مع اثنين من العارفين اليهود وهما حزقيال ودانيال من أورمية فأكَّدا له بحضور الأسقفين النسطوريين مار يوسف ومار اليا وبحضور نساطرة آخرين أن زمن تحوّل إخوانهم اليهود إلى المسيحية مدوّن لدى الأحبار اليهود في وثائق مخطوطة قديمة فُقدت بتقلب الأحوال ولا يمكن إبرازها، ثم يضيف الدكتور غرانت أن يهوداً آخرين من أورمية أيّدوا له أقوال حزقيا ودانيال كما أيَّد له ذلك أيضاً الحاخام الأكبر الذي قابله في الكنيس بحضور مساعديه مؤكِّداً أن النساطرة هم من إخوانهم المرتدين عن اليهودية وقد أخذوا بالمسيحية في زمن المسيح أو في زمن حواريه بعد وفاة المسيح مباشرة[١٠١].

سابعاً - يؤكِّد الدكتور غرانت أن الاعتراف بتحول اليهود المسبيين إلى المسيحية لم يقتصر على اليهود القاطنين إلى جانب النساطرة بل شمل أيضاً النساطرة أنفسهم، فالنساطرة العارفون وحتى عامة النساطرة يعترفون بأنهم من سلالة بني إسرائيل حتى أصبحت تسمية النساطرة وبني إسرائيل تسمية مشتركة لشعب واحد. ويضيف الدكتور غرانت إلى ذلك قوله بأنَّ بعض النساطرة يسمُّون أنفسهم بأهل الناصرة وهذه التسمية تعني عندهم اليهود المرتدين عن اليهودية والمتحولين إلى المسيحية وهي لا تستعمل للدلالة على غير النساطرة بين أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى. ويقول الدكتور غرانت أنه شاهد بعض الرسائل للنساطرة موجهة إلى البطريرك المار شمعون يلقبونه فيها ببطريرك جميع أهل الناصرة[١٠٢]. ويذكر الدكتور غرانت أيضاً أن بطريرك النساطرة أكَّد له أن العائلة التي ينتمي إليها تنحدر من سلالة نفتالي أحد الأسباط العشرة التي نقلها الآشوريون إلى جبال كردستان، وقد ورد ذكر هذا السبط بالذات في كتابات تجلات بلاشر الثالث (٧٤٦ - ٧٢٧ ق.م.) حيث قال إنه استولى على نفتالي وضمها إلى آشور، ومما ذكره البطريرك إلى الدكتور غرانت أيضاً أن هناك وثائق مخطوطة قديمة تثبت ذلك غير أنها غرقت قبل ستين سنة في نهر الزاب مع مخطوطات أخرى قديمة عندما كان يُراد نقلها عبر النهر في فيضانه العالي[١٠٣].

---

(١٠١) Ibid., pp. 126, 240.

(١٠٢) Ibid., pp. 164-170, 195-197.

(١٠٣) Grant, op. cit., pp. 195-196.

ثامناً ـ يقول الدكتور غرانت إن من الثابت أن المسبيين اليهود إلى آشور قد تحوّلوا إلى النصرانية بعد ظهور المسيح على يد الحواريين مباشرة بعد وفاة المسيح، حيث اتجه الحواريون إلى منطقة آشور وقد كانوا يعلمون بوجودهم هناك فأخذوا يبشرون بين إخوانهم في آشور دون غيرهم، لأنَّ الحواريين أنفسهم كانوا مختتنين وكان اتصالهم بغير المختتنين (أهل الغرلة) يُعد عندهم خطيئة آنذاك(١٠٤). هذا مع العلم أن المعمودية حلّت محل الختان فيما بعد وصارت تجري عند النساطرة في اليوم الثامن من عمر الطفل كما كانت العادة عند الأسباط العشرة كانوا يختنون الأطفال الذكور في اليوم الثامن من العمر أيضاً(١٠٥).

تاسعاً ـ كان مركز البطريرك عند النساطرة مركز الربيين أنفسهم الذي كان سائداً بين الأسباط العشرة، فكان البطريرك يرأس المجامع الدينية ويفرض القصاص وسلطته ممتدة من الإله(١٠٦).

عاشراً ـ إن العادات الاجتماعية والحياة اليومية عند النساطرة من حيث الحرفة والطقوس واللباس والزينة والزواج والضيافة والثأر بين القبائل وما إلى ذلك من الاحتكاكات اليومية في المجتمع النسطوري هي نفسها كان يمارسها الأسباط العشرة في فلسطين(١٠٧).

وقد زار الأب ساوثكيت منطقة كردستان واطلع على أعمال المبشرين الأمريكان بين النساطرة فوصف مدارسهم وقال أن الدكتور غرانت اكتسب شهرة واسعة بين الأكراد والنساطرة كطبيب ناجح وكانوا يسمونه «حكيم صاحب».

حادي عشر ـ إن الكتاب المقدّس يشير إلى أن التبشير بالمسيحية بين الأسباط العشرة قد تمَّ في عصر الحواريين وما بعده إذ جعلت أولى مهمات

---

(١٠٤) كان أهل الختان من اليهود يعتبرون الاتصال بأهل الغرلة خطيئة بدليل النص التالي الوارد في الكتاب المقدّس: «فلما صعد بطرس إلى أورشليم خاصمه الذين من أهل الختان قائلين إنك دخلت عند رجال قلف وأكلت معهم» (أعمال الرسل ١١: ٢ - ٣). Ibid., p. 224.

(١٠٥) Grant, op. cit., p. 191.

(١٠٦) Ibid, p. 197.

(١٠٧) H. Southgate, «Narrative of a Tour Through Armenia, Kurdistan, Persia and Mesopotamia, London, 1840, Vol. I, pp. 301-311.

الحواريين التبشير بين الأسباط العشرة فقط (انظر أعمال الرسل ١٠: ٣٦، ٢٦: ٦ ـ ٧)[١٠٨].

ثاني عشر ـ إن هناك اثباتات قاطعة أن الأسباط العشرة كانوا موجودين في حدياب (آشور) في القرن الأول للميلاد، ففي خطاب هيرودس غريبا ملك فلسطين في عهد الأمبراطور كاليجولا والأمبراطور كلوديوس (٣٧ ـ ٥٤ م) الموجَّه إلى يهود فلسطين ما يؤيِّد ذلك حيث كان في جملة ما قاله في خطابه: «إن إخوانكم في حدياب لا يستطيعون أن يمدوكم بأية مساعدة لأن الفرثيين لا يسمحون لهم بذلك». كما أن يوسفوس الذي عاش في القرن الأول للميلاد يؤكِّد بكل وضوح أن الأسباط العشرة كانوا إلى ذاك اليوم في البلد الذي نقلوا إليه أسرى فيما وراء الفرات. كما جاء في التوراة التي كتبت في وقت متأخر ما يؤيِّد ذلك أيضاً «فسبي إسرائيل من أرضه إلى هذا اليوم». (٢ مل ١٧: ٢٣)[١٠٩].

ويرى العلامة الدكتور نيوزنر صاحب كتاب «تاريخ اليهود في بابل، إن الدلائل التي أوردها الدكتور غرانت في دعم الرأي القائل بأن النساطرة هم في الأصل من اليهود الذين نفاهم الآشوريون إلى منطقة كردستان ثم صبؤوا إلى النصرانية بعد ظهور المسيح تقيم حجة قوية لتقبل هذه النظرية، ويؤكِّد أن أتباع كنيسة الشرق كان معظمهم من اليهود المتنصرين الذين انضموا إلى النسطورية[١١٠] ويضيف نيوزنر إلى ذلك قوله «إن أول المتنصرين في الشرق كانوا من بين اليهود»[١١١]. ويؤكِّد ذلك الأب أدي شير فيقول في كتابه «كلدو وآثور» (ج٢ ص ٨) «إن أول جماعات نصرانية قامت في بلادنا تألَّفت من اليهود».

ويؤكِّد القس بطرس نصري الكلداني في مقاله عن أصل النساطرة المنشور في المشرق م١٦ (١٩١٣) (٥٠٠) كون أصل قبائل جيلو الآثورية من اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى بلاد آشور بقوله: «وفي جنوب غربي كوار توجد جبال شامخة وأودية وعرة وعميقة تسمَّى داسان العليا وهناك يسكن أهل جيلو ويبلغ عددهم أكثر من ١٥٠٠ بيت ولهم أسقف يسمَّى مار سركيس وأكبر قرية في جيلو هي زيريني ويجلس فيها رئيس جيلو المدعو بملك. وروى بعضهم أن سكان

---

(١٠٨) Grant, op. cit., p. 224

(١٠٩) Ibid, pp. 222.

(١١٠) J. Neusner, op. cit, Vol. III, pp. 15-16.

(١١١) Ibid, Vol. I, p. 183.

جيلو هم من جنس اليهود وفي سحنتهم ولونهم شبه بلون اليهود ومعنى اسمهم الجالية ولا يبعد أن يكون أصلهم من اليهود الذين كانوا قد سبوا إلى نينوى في سالف الأزمنة. وهؤلاء يقضون حياتهم غالباً في المهاجرة وقليلون هم الذين يشتغلون في بلدهم - إذ ليس لهم مكان يتمكنون فيه من الزراعة وتربية الغنم والمواشي، وقسم كبير من سكان جيلو مع ملكهم هم كاثوليك.

وأهم من كل ذلك أن هرمز رسام وهو آثوري تجنَّس بالجنسية البريطانية وكان يمثل الآثوريين في الأوساط السياسية الدولية يعترف بكل صراحة أن الآثوريين جاؤوا في الأصل مع اليهود من أور الكلدان[١١٢].

١٢ - زمن وجود النساطرة في مناطقهم الجبلية

لقد اختلف الباحثون في تحديد زمن وجود النساطرة في المناطق الكردية الجبلية النائية، فقال بعضهم إن وجودهم في هذه المناطق يرجع إلى زمن الغزو المغولي لبلاد الشرق (في غربي آسيا)، فيقول ماتييف ومار يوحنا في كتابهما «تاريخ الآثوريين» (ص ١٦) ما نصه: «والمغول قوم يدينون بالعقيدة السامانية ولكنهم مع ذلك طلبوا من الباباوات والملوك في أوروبا المسيحية مساعدتهم في القضاء على الدول الإسلامية كما رجوا قبول انضمامهم تحت لواء المسيحية، فقد أرسل أرجون خليفة هولاكو بعثة إلى أوروبا برئاسة (أويغور بارصوما) المغولي الذي اعتنق النسطورية، وعند فشل هذه المحادثات قرَّر المغول اعتناق الإسلام - العقيدة الدينية للشعوب التي احتلوا أراضيها - ومنذ ذلك الوقت أخذوا يطاردون معتنقي الديانات الأخرى ويضطهدونهم. وقد انصب غضب المغول بالدرجة الأولى على الآثوريين (النساطرة) الذين كانوا يكوِّنون فئة أصحاب الحرف نصف الأغنياء. وقد أتم تيمور العمل الذي بدأ فيه أجداده وأخذ يطارد الآثوريين (النساطرة) من أقصى الصين حتى البحر الأبيض المتوسط. وقد استطاعت ثلاثة مجاميع آثورية الهرب من بطش المغول: توجهت الأولى إلى الهند (سواحل مالابار)، وتوجهت الثانية إلى قبرص، أما المجموعة الثالثة وهي أكبر المجاميع فقد هربت مع البطريرك الآثوري إلى جبال كردستان.

وهذا ليس بدليل على أن النساطرة وجدوا في المناطق الجبلية من كردستان لأول مرة على إثر الغزو المغولي، بل هو دليل على أن النساطرة كانوا موجودين

---

(١١٢) (سجلات وزارة الخارجية البريطانية) Fo 371/ 16889/ 1538/ 7/ 93,23/ 3/ 33.

في هذه المناطق قبل ذلك وقد لجأ إليهم النساطرة من مختلف الأنحاء هرباً من المغول. والدليل على أن النساطرة كانوا موجودين في هذه المناطق الجبلية منذ زمن قديم مشكّلين مركزاً حصيناً للكنيسة النسطورية إن بطريرك النساطرة المار شمعون اختار هذه المنطقة ذاتها ليتخذها مركزاً رئيساً للكنيسة النسطورية عندما شعر بخطر زوالها عندما اشتد ضغط الكنيسة الكاثوليكية لحثهم على اعتناق مذهبها.

أما إذا اخذنا بنظرية غرانت القائلة بأنَّ أصل المسيحيين النساطرة من اليهود الذين نقلهم الآشوريون من فلسطين إلى المناطق الجبلية من آشور ثم بعد وفاة المسيح صبؤوا إلى النصرانية بطريق التبشير ثم أخذوا بالمذهب النسطوري بعد ظهور هذا المذهب ـ ـ فيكون النساطرة قد وجدوا في هذه المناطق الجبلية منذ زمن الآشوريين، أي قبل ٢٨٠٠ سنة وظلّوا في هذه المناطق محافظين على لغتهم السريانية القديمة وطقوسهم الدينية وتقاليدهم الأصلية. وأوضح دليل على وجودهم في هذه المناطق منذ زمن قديم جداً أن كنائسهم تعتبر أقدم الكنائس المسيحية في الشرق فالكنيسة النسطورية في أورمية تعتبر أقدم الكنائس المسيحية، إذ شُيِّدت في القرن الأول للميلاد[١١٣]. هذا ما يدل على أن المسيحية انتشرت في هذه المنطقة منذ القرن الأول للميلاد أي بعد وفاة السيد المسيح ثم كانت من أقدم الكنائس المسيحية التي أخذت بالمذهب النسطوري إن لم تكن أقدمها.

يتضح مما تقدم أن هناك موضوعاً رئيسياً يتصل اتصالاً مباشراً ببحث تاريخ يهود العراق القديم وذلك من حيث وجودهم لأول مرة في العراق عندما جيء بهم أسرى إلى شمال العراق قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة ومن حيث تحولهم إلى المسيحية ألا وهو تاريخ نشوء المسيحية ودور المذهب النسطوري فيه. لذلك نسوق إلى القارئ في الفصل الثاني من هذا البحث عرضاً موجزاً لتاريخ النصرانية وتطورها لتوضيح دور النسطورية فيه.

---

(١١٣) ماتفييف ومار يوحنا، «تاريخ الآثوريين»، ص ٣١.

الفصل الثاني

المسيحيَّة

ودور النسطورية فيها

«لا تظنُّوا أنّي جئت لأنقض الشريعة والأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأُتمِّم»

المسيحية ودور النسطورية فيها

١ ـ المسيحية بين الديانات السماوية.
٢ ـ النصرانية في أول أطوارها.
٣ ـ المسيحية على عهد الأباطرة الرومان.
٤ ـ عقد مجمع نيقية سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م.
٥ ـ التوحيد والثالوث في الديانة المسيحية.
أ ـ التوحيد عقيدة شرقية عربية الأصل.
ب ـ التوحيد والتعدد في الديانة المسيحية.
٦ ـ الكنائس الأربع الرئيسية قبل الانقسام.
٧ ـ أول انقسام في المسيحية ـ ظهور النسطورية.
٨ ـ انتشار النسطورية في الشرق.
٩ ـ اللغة السريانية لغة الكنيسة النسطورية.
١٠ ـ بطريركية النساطرة ـ المار شمعونية.
١١ ـ عقد مجمع خلكيدونية لسنة ٤٥١ م.
١٢ ـ ظهور اليعقوبية وانتشارها في الشرق.
١٣ ـ الانقسامات في الكنيسة المسيحية.
١٤ ـ انقسامات داخلية في الكنيستين النسطورية واليعقوبية.
١٥ ـ الكنيسة المسيحية الشرقية تؤمِّن الحفاظ على ثلاث لغات قديمة.
١٦ ـ التبشير بين النساطرة.
١٧ ـ الروس والنساطرة.
١٨ ـ البعثات الإنكليزية والنساطرة.
١٩ ـ البعثات الأمريكية والنساطرة.
٢٠ ـ النساطرة بعد دخول البعثات الأجنبية إلى مناطقهم.
٢١ ـ الصراع بين البعثات الأجنبية.
٢٢ ـ الصراع السياسي بين الدول.
٢٣ ـ النسطورية تصمد في معقلها في جبال كردستان.

١ ـ المسيحية بين الديانات السماوية:

إنَّ التحول من عقيدة دينية الى أخرى بين الأقوام في التاريخ القديم وبخاصة بعد ظهور الديانات السماوية الثلاث ـ اليهودية والمسيحية والاسلام ـ قد لعب دوراً مهماً في مجرى العلاقات السياسية الدولية في تلك الأزمان السحيقة. فقد كانت الديانة اليهودية أولى الديانات التي انتشرت بين الأقوام الوثنية نتيجة للتبشير بينهم. وكان التبشير بوجه خاص نحو رؤساء القبائل والأمراء، فإذا اعتنق رئيس قبيلة أو أمير أو ملك هذه الديانة فرضها على رعاياه. ولما ظهرت المسيحية أخذت هذه الديانة الجديدة تزاحم اليهودية، فلم تكتف بالتبشير بين الوثنيين بل وجهت جل اهتمامها للتبشير بالدين المسيحي الجديد بين اليهود لحثهم على التحوُّل إلى المسيحية. وكان أقدم مَن اعتنق المسيحية بعد ظهور السيد المسيح جماعات من اليهود وكان في مقدمتهم، على قول بعض الباحثين، اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى كردستان والذين صاروا يُعرفون بالنساطرة لاعتناقهم المذهب النسطوري في أول انشقاق في الكنيسة المسيحية. واستمر هذا التنافس والتزاحم بين اليهودية والمسيحية في تبشير كل منهما بعقيدة الآخر في وسط اضطهاد الوثنيين للطرفين حتى انتصرت المسيحية على اليهودية باعتناق الأمبراطور الروماني قسطنطين الأول في أوائل القرن الرابع الميلادي المسيحية فانتشرت المسيحية في أنحاء الدولة البيزنطية بعد أن جعلها ديانتها الرسمية. وفي انتشار اليهودية في اليمن على أثر اعتناق ملكها تبان أسعد أبو كرب في القرن الخامس للميلاد خير مثال لهذا التنافس بين الديانتين اليهودية والمسيحية فأجبر هذا الملك المسيحيين على اعتناق اليهودية ـ وعندما انقلبت الآية وانتصرت المسيحية طُبِّق نفس الدور على اليهود فأُجبروا على اعتناق المسيحية. وفي اعتناق ملك الخزر اليهودية وانتشارها في بلاد الخزر واعتناق أمير حدياب اليهودية من الأمثلة الأخرى في هذا المجال، وبظهور الإسلام أخذت الوثنية تلفظ أنفاسها الأخيرة في أكثر بلاد الشرق وقد دخل في الإسلام اليهود والمسيحيون على حد سواء بخاصة العرب منهم لما انطوى عليه هذا الدين الجديد من التسامح والمساواة، فقد اعتنق أكثر يهود ونصارى الجزيرة العربية وهم من أصل عربي الإسلام بعد أن نزحوا عن جزيرة العرب إثر إجلائهم منها في عهد الخليفة عمر (رض). ومن القبائل الكردية المسيحية التي اعتنقت الإسلام البروارية في منطقة العمادية وأكثر سكان منطقة بارزان بعد أن دخلتها الأسرة البارزانية.

ولما كان للنصرانية في أول أطوارها صلة مباشرة بموضوع يهود كردستان من السبي الآشوري وتحولهم إلى النصرانية ثم اعتناقهم المذهب النسطوري فلا بدَّ من عرض نبذة عن النصرانية في أول أطوارها ثم نبذة عن الانقسامات في الكنيسة المسيحية التي أدَّت إلى ظهور النسطورية ودورها في تأريخ المسيحية.

٢ ـ النصرانية في أول أطوارها:

نشأت النصرانية في الشرق على عهد المسيح على أُسس الديانة اليهودية وامتداداً لها، وقد قال يسوع: «لا تظنوا أنِّي جئت لأنقض الشريعة والأنبياء ما جئت لأنقض بل لأُتمِّم»[١].

وتتفق التواريخ المسيحية والكتب الطقسية القديمة على أن مار أدي ومار ماري واحي من تلاميذ السيد المسيح تلمذوا المشرق فقصدوا «بلاد الرها والموصل وبابل والشمال والجنوب وبوادي المغرب». وقضى مار ماري ثلاثاً وثلاثين سنة يطوف بين بلدان المشرق ثم أقام في المداين حيث أسَّس كرسي الفطركية فيها فثبَّته «وأمر أن لا يكون فطرك المشرق إلاَّ بها خاصة إلى آخر الزمان». ولما وافته المنية دُفن بدور قنِّي في سرجاد عن يمين المذبح بالبيعة الكبرى وقام المار ماري «بتلماذ جميع نواحي أرض بابل والعراقين والأهواز واليمن والجزائر وبلاد العرب سكان الخيم ونجران وجزائر بحر اليمن وبحر الهند» وكان ذلك في زمن افرهط ملك بابل إفراهاط الخامس (٢ ق.م. ـ ٥ ب.م.) ونيرون قيصر ملك الروم (٥٤ ـ ٦٨ م)[٢].

ومن تقاليد الكنيسة الكلدانية الشرقية أن مار آدي ومار ماري من تلاميذ السيد المسيح السبعين بشّرا في هذه الأصقاع من الشرق فذكر أحد المؤرِّخين العرب نقلاً عن العباديين نصارى الحيرة ما يؤيِّد هذا التقليد قائلاً[٣]: «والعباد تذكر أن أول البطاركة السريانيين الذين نزلوا كرسي المشرق على قديم الأيام بعد صعود المسيح إلى السماء بنحو ثلاثين سنة بعث توما أحد الاثني عشر آدي السليح من السبعين وهو نصَّر أهل المدائن ودير قنِّي وكسكر وغيرها من السواد وبنى بيعتين إحداهما بالمدائن دار مملكة فارس يومئذ وجعلها كرسياً لمَن يأتي

(١) متى ٥: ١٧.

(٢) انظر الفقرة ٩ من الفصل الأول.

(٣) المسعودي «التنبيه والإشراف» ص ١٤٤.

بعده من البطاركة ورسم أن لا تتم البطركة لمَن نصب لها إلاً في هذه البيعة وأخرى بدير قنّي وقبره بها».

وقد ورد في تاريخ يوسيبوس ما يُشير إلى أن أحد ملوك الرها المدعو أبجر الخامس (٤ ق.م. ـ ٥٠ ب.م.) لما سمع عن شهرة المسيح كتب إليه طالباً منه أن يأتي إلى الرها ليشفيه من مرض اعتراه، ومما قاله في رسالته له: لقد بلغني أن اليهود يضايقونك ويضمرون لك الشر فبلدي بلد صغير ولكنه بلد جميل وسني يسعنا كلينا، فأجابه المسيح مباركاً إياه ووعده أنه بعد قيامته يرسل إليه أحد تلامذته. والتقليد الشائع أن مار آدي أحد التلامذة السبعين أتى بعد وفاة المسيح إلى الرها وشفاه من مرضه وعمّده. وبذلك كان أبجر هذا أول المتنصرين من ملوك الرها[٤].

٣ ـ المسيحية على عهد الأباطرة الرومان:

وقد شقت المسيحية طريقها فنمت في الشرق بوجه خاص على عهد الرومان على الرغم من معاناة المسيحيين الأوائل شتى أنواع الاضطهاد من الوثنيين ووشاية اليهود بهم حتى تبنّى الملك قسطنطين الأول (٣١٢ ـ ٣٣٧ م) الكنيسة المسيحية فاعتنق هو نفسه الديانة المسيحية وأصدر سنة ٣١٣ مرسوماً يقضي بمنح المسيحيين حرية العبادة على دينهم في جميع أقطار الأمبراطورية الرومانية. ثم اتخذ سنة ٣٣٠ م بيزنطية عاصمة رسمية للأمبراطورية الرومانية وغيَّر اسمها وسمَّاها القسطنطينية على اسمه[٥]. ولا شك أن قسطنطين تأثَّر بتوجيهات أمه الملكة هيلانة وهي مسيحية ابنة قسيس سرياني من الرها، وقد جادت هيلانة على الأماكن المسيحية المقدسة بأموال جزيلة، فبنت كنيسة القيامة في أورشليم وكنيستين فوق مغارتي بيت لحم وجبل الزيتون كما بنت كنائس في الرها وطنها وحلب وغيرها من البلدان وبذلت مالاً كثيراً على أهل البؤس.

وعلى أثر ذلك تشكلت الكنيسة المسيحية في الشرق تحت رعاية وسلطة الأمبراطور. وبعد تقسيم الأمبراطورية الرومانية إلى غربية ومركزها روما، وإلى شرقية ومركزها القسطنطينية سنة ٣٦٤ م قويت كفة الكنيسة المسيحية في القسم

---

(٤) «كلدو وآثور»، ج١ ص ١٧١؛ ج٢ ص ٢.

(٥) يقول المسعودي في كتابه «التنبيه والإشراف» (ص ١٤٤) إن قسطنطين دان بالنصرانية بعد مضي عشرين سنة على اعتلائه العرش أي سنة ٣٣٢ م.

الشرقي من الأمبراطورية الرومانية، فصار الأمبراطور هو الذي يرشح بطريرك القسطنطينية، الذي يأتي في المقام الأول بين البطاركة يليه في المرتبة بطريرك الإسكندرية الذي يُعتبر الرئيس لكنيسة أفريقيا، ثم يأتي في الدرجة الثالثة بطريرك أنطاكية. وكانت لغة الطقوس الكنيسية اللاتينية في الغرب واليونانية في الشرق، ثم تغلَّبت السريانية في الكنيسة الشرقية. وقد اتخذت الكنيسة الشرقية في الهلال الخصيب من مدينة الرها (اورفة الحالية)[٦] مركزاً دينياً لها.

٤ ـ عقد مجمع نيقية[٧] سنة ٣٢٥ ومجمع القسطنطينية سنة ٣٨١:

وهكذا صار الأمبراطور في القسطنطينية يرعى الشؤون الكنيسية، فأوجد قسطنطين لأول مرة بإشارة أمه هيلانة فكرة عقد مجامع دينية تضم ممثلين من جميع الكنائس في العالم المسيحي للفصل في أمر الخلافات بين الرابين حول

---

(٦) الرها مدينة قديمة من بلاد بين النهرين كانت تعرف باسم «الرهو» في القرن الرابع قبل الميلاد، وبعد أن مصرها السلوقيون سنة ٣٠٤ ق.م. سمَّاها سلوقس الأول ايديسا (Edesse) على اسم إحدى مدن تراقية ودعاها اليونانيون (كاليرهو)، وصارت تُعرف عند الاراميين بـ «اورهاي» وعُرِّبت بالرها، واسمها المعروف اليوم «اورفة». وقامت في الرها مملكة عربية دامت حوالى ثلاثة قرون ونصف قرن وذلك بين سنة ١٣٢ ق.م. وسنة ٢١٦ ب.م. حكم خلالها ٢٣ ملكاً وُجدت أسماؤهم مرتَّبة ترتيباً زمنياً بحسب حكمهم في حولية الرها المدونة حوالى سنة ٥٤٠ م كما وجدت أسماء بعضهم على نقود ضُربت في أيامهم.

وقد كان للرها شأن خطير في ازدهار وانتشار الأدب السرياني المرتبط بالنصرانية بوجه عام وبالنسطورية بوجه خاص. فكانت الرها والحالة هذه من المراكز الدينية الكبرى في عهد الأمبراطورية البيزنطية حتى فتحها المسلمون على يد عياض بن غنيم سنة ١٧ هـ (٦٣٨ م)، ثم استولى عليها الصليبيون سنة ١٠٩٨ م وجعلت أولى المقاطعات اللاتينية إلاَّ أن المسلمين عادوا فاستردوها سنة ١١٤٤ م، وبقيت الرها مدينة مسيحية في ظل حكم الأتراك. (انظر: «تاريخ كلدو واثور» تأليف ادي شير، ١٩١٢، ١: ١٦٩ ـ ١٧٤؛ «المفصل في تاريخ العرب» للدكتور جواد علي، ٢: ٦١٩ ـ ٦٢٢؛ دائرة المعارف البريطانية، ١٩٦٥، ٧: ٩٦٨ مادة ايديسا).

(٧) نيقية (Nicaea) هي بلدة ايزنيك التركية الحديثة اتخذها ثيئودور الأول بين سنة ١٢٠٤ و١٢٦١ م عاصمة للأمبراطورية البيزنطية، وقد اشتهرت في تاريخ المسيحية لانعقاد هذا المجمع الكنيسي سنة ٣٢٥ م الذي حدّد فيه معنى النصرانية وأصولها ووضع تعريف للإيمان الصحيح (حول أعمال مجمع نيقية انظر: «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية» لمؤلفه سوبريوس يعقوب توما، بيروت ١٩٥٣، ص ١٩٧ ـ ٢٠٤).

أصول الديانة المسيحية واتخاذ القرارات التي يُتفق عليها على أن تُصبح هذه القرارات ثابتة ورسمية يجب أن يعمل بها جميع المسيحيين. فعُقد أربعة مجامع دينية في القرنين الرابع والخامس، عُقد أوّلها في ٢٠ مايس في سنة ٣٢٥ م في نيقية حيث اتخذ القرار بإثبات ألوهية المسيح وحدّد بعض النقاط المختلف عليها في المسيحية. وفي هذا الاجتماع حكم على آريوس بالهرطقة والضلال (انظر الفقرة ٥ من هذا الفصل). وقد دُونت قوانين نيقية باللغة اليونانية ثمَّ نُقلت إلى السريانية. ومنذ ذلك الوقت أصبحت الكنيسة الشرقية تحت حماية ورعاية الدولة وتحت رقابتها إلى حد ما ولو أن المسيحية لم يُعترف بها ديانة رسمية إلاَّ في أيام غراطيان سنة ٣٦٨ م.

أمَّا المجمع الثاني فعُقد في القسطنطينية سنة ٣٨١ م في عهد ثيئودوسيوس الأول (٣٧٩ ـ ٣٩٥ م) انتهى بإقرار الرأي القائل بألوهية روح القدس، وبذلك تقرَّر التثليث في الديانة المسيحية وأصبح هو العقيدة الرسمية التي يجب أن يعتنقها كل مسيحي ويُحكم بالكفر مَن يقول بغير ذلك.

وكان أن أحدث إعلان أمبراطور بيزنطة المسيحية ديناً لأمبراطوريته وإعلان نفسه حامياً لكل المسيحيين الساكنين خلف حدود بيزنطة رد فعل مباشر لدى ملوك فارس الذين اعتبروا جميع المسيحيين الساكنين في حدودهم أعداءً للأمبراطورية. ومنذ ذلك الوقت وحتى عام ٤٣١ م الذي ظهرت فيه الفرقة النسطورية المناوئة لكنيسة القسطنطينية ظلَّ المسيحيون مضطهدين من قبل الساسانيين إذ حُرِّم عليهم القيام بطقوسهم الدينية. ولاضطهاد المسيحيين في المملكة الفارسية سببان ديني وسياسي فالديني، لأنَّ الدين المسيحي كان مضاداً للمجوسية دين المملكة يومذاك، أمَّا السياسي فلأنَّ الكنيسة في هذه المملكة كانت خاضعة دينياً لسلطة الكرسي الأنطاكي الذي يقع في المملكة الرومانية. وكان اليهود يشون بالمسيحيين إلى السلطة الفارسية.

ومع أنه تمخَّض عن المجمعين (مجمع ٣٢٥ ومجمع ٣٨١ م) إقرار مبادئ عامة تمَّ الاتفاق عليها، لكنها تركت وراءها خلافات في أمور فرعية أدَّت على مر الزمن إلى انقسامات في الكنيسة المسيحية. والمسيحية شأنها شأن الأديان الأخرى تأثَّرت بمؤثرات عديدة حتى ظهرت فيها المذاهب والشيع، وصار كل مذهب يتهم المذهب الآخر بالهرطقة والخروج على أصول الدين والجنوح عن الصواب وكان أكثر الجدال بين هذه المذاهب يدور حول موضوع طبيعة المسيح وعلاقة الأم بالدين وموضوع النفس؛ «هل المسيح إنسان، أم هو رب، أم هو

من خلق الرب؟.. وهل هو والرب سواء، أو هو منفصل عن الرب؟.. هذه الأسئلة وأمثالها مما يتصل بطبيعة المسيح شغلت رجال الكنيسة وكتّلتهم كتلاً، كل كتلة ترى أن رأيها في طبيعة سيدها هو الرأي الصواب، وأنه هو الدين الحق القويم، وأن ما دونه ضلال وباطل. لذلك كفّر بعضهم بعضاً، واتهمت واحدة منها الأخرى بالهرطقة والبدعة. وكان من هذا الاختلاف ظهور المذاهب في هذا الدين الجديد.. وتولّد عن هذا الجدال ظهور الأريوسية أتباع «آريوس» و«السبيلية» وأتباع الثالوث ومذاهب أخرى نبعت من تلك البلبلة الفكرية التي أظهرها الاختلاف في طبيعة المسيح[٨].

٥ ـ التوحيد والثالوث في الديانة المسيحية:

إن الخلاف التقليدي القديم بين الشرق والغرب أخذ يصطبغ بصبغة دينية بالاضافة إلى النزعة السياسية التي كانت تطغى عليهما، وذلك بعد ظهور المسيحية واعتناق الأمبراطور الروماني للديانة المسيحية سنة ٣٣٢ م ثم تقسيم الأمبراطورية الرومانية إلى غربية ومركزها روما وشرقية ومركزها القسطنطينية سنة ٣٦٤ م. والخلاف الجوهري بين الشرق والغرب في هذه المرحلة كان دينياً وعقائدياً يدور حول الخلاف بين العقيدتين، عقيدة التوحيد التي تدعو إلى عبادة الإله الواحد لا شريك له وقد نمت جذورها في الشرق العربي وبين عقيدة الثالوث (الأب والابن وروح القدس) التي نمت في الغرب.

أ ـ التوحيد عقيدة شرقية عربية الأصل

إن الكنعانيين العرب كانوا أوّل مَن عرف وحدانية الإله في ثقافتهم الدينية وأول مَن نطق باسم الله خالق السموات والأرض، وكان يعرف باسم «إيل» أو إله أو الله في العربية الفصحى. والمعلوم أن ديانة العرب القديمة في جزيرة العرب كانت قائمة على الوثنية، فلما هاجر سكان الجزيرة العربية إلى الهلال الخصيب إثر الجفاف الذي حلَّ ببلادهم جاؤوا بديانتهم إلى مستوطناتهم الجديدة مع لغتهم وثقافتهم حاملين معهم آلهتهم وأهمها الإله القمر «سين» إذ كانت عبادة هذا الإله شائعة في جميع أنحاء الجزيرة العربية تقريباً جنوبها وشمالها، كما كان معروفاً في بلاد الحبشة. وكان الإله الشمس شائعاً لدى القبائل العربية أيضاً، حيث كان مؤنثاً عند السكان في جنوبي الجزيرة العربية ومذكراً عند الشماليين،

(٨) الدكتور جواد علي «المفصل في تاريخ العرب»، ٦: ٦٢٤.

وعلى العكس من ذلك كانت الزهرة إلهاً مذكراً عند الجنوبيين ومؤنثاً عند الشماليين. ويرى الدكتور ديتلف نيلسون إن هذا التغيير في جنس الشمس والزهرة يشير إلى انتقال الديانة السامية العربية القديمة من الجنوب إلى الشمال وتغيرها بسبب البيئة الجديدة، ويعتقد أن تسمية سيناء مأخوذة من الإله سين المذكور. وهناك ما يدل على أن بعض القبائل العربية في جزيرة العرب كانت تمارس التوحيد، وكان هؤلاء يعرفون بالأحناف[٨أ]. هذا مع العلم أن ذكر (الله) كان شائعاً عند شعراء الجاهلية قبل الإسلام فمعظمهم كان يدرك معنى الإله العلي الذي يهيمن على كل شيء خالق السموات والأرض. فقد جاء في ديوان امرئ القيس الشاعر العربي الشهير ما يشير بوضوح إلى رفضه عبادة الأصنام وميله إلى وحدانية الإله[٨ب] فكان الاصطلاح «ملة إبراهيم حنيفاً» شائعاً عند العرب قبل ظهور الإسلام وقد اشتهر بهذا اللقب أفراد من مفكري العرب سمت نفوسهم عن عبادة الأوثان إذ كانوا يرون أن التقرب إلى الله بالحجارة أمر لا قيمة له. لذلك فقد أطلق لقب الأحناف على مَن عرف بنبذه الشرك وميله إلى التوحيد[٨ج]. والمسعودي يؤيد ذلك بقوله: «إن العرب كانت في جاهليتها فرقاً، فمنهم الموحد المقر بخالقه، المصدق بالبعث والنشور، موقناً بأنَّ الله يثيب المطيع، ويعاقب العاصي»[٨د] ويذهب الدكتور ديتلف نيلسون في مجرى بحثه عن تاريخ الأديان إلى أن «جزيرة العرب هي الوطن الأصلي للعنصر السامي والشعوب الشمالية التي نشأت فيها الحضارات السامية الشمالية الرفيعة، والدين العربي القديم هو الخطوة الأولى السابقة للدين البابلي والآشوري المعقد، كما أن ذلك الدين العربي القديم هو الذي مهَّد لهذا التطور التاريخي للدين العبري (اليهودي) مع حرصه على الاحتفاظ بدين الآباء دين الصحراء البدائي الذي دان به الشعب وأجداده الأولون، كما أنه بقي زمناً طويلاً موضوع نزاع وعراك شديدين بين العقيدتين الدينيتين السامية الشمالية والسامية الجنوبية والذي تطور أخيراً إلى الثالوث الإلهي (الآب والابن وروح القدس) ومن ثم خطا خطوات أخرى في التوحيد

(٨أ) «حضارة العرب» للدكتور غوستاف لبون، ترجمة عادل زعيتر، ص ٩٩ ـ ١٠٠ (ط ٤).

(٨ب) انظر: «أديان العرب قبل الإسلام»، مجلة العربي، العدد ١٦٨، تشرين الثاني ١٩٧٢، ص ٤٤ ـ ٤٩.

(٨ج) ولفنسون، «تاريخ اليهود في بلاد العرب»، ص ٧٨ ـ ٨٠.

(٨د) «مروج الذهب»، ج٢ ص ١٠٢.

المسيحي في صورته القديمة التي نعرفها في الحضارة العربية القديمة»(٨هـ).

وكانت الديانة الكنعانية العربية أرقى ديانات الأمم السامية الوثنية، فقد احتفظت بطابعها البدوي السامي وبالتقاليد القديمة السائدة في جزيرة العرب، وكان أكبر آلهة الكنعانيين العرب وأعلاها مقاماً الإله «إيل» الذي لقب بالإله العلي أو الإله العظيم (Supreme God)، وهو اسم الإله «إيل» الوارد في التوراة وقد ورد اسمه فيها ٢٢٩ مرة واطلق عليه اسم الله (تك ٢٨ : ١٧ ـ ١٩) وقد اقترن الإله إيل بإبراهيم الخليل وتؤكد التوراة أن الإله «إيل» هو الإله الذي كان يعبده إبراهيم الخليل، والدليل أن كلمة إيل عربية الأصل إن ملوك العرب في الجزيرة العربية قبل الإسلام كانوا يقرنون أسماؤهم باسم الإله إيل تيمناً وتبركاً به على غرار التسميات العربية الحديثة باضافة اسم الله إلى اسم الشخص مثل اسم عبدالله وعبد الإله وعبد الخالق الخ...

وكان للإله إيل المكانة الرفيعة نفسها عند الآراميين، فقد ورد اسمه مضافاً إلى أسماء بعض ملوكهم، فاشتهر بين الملوك الآراميين الملك «متى إيل» ملك أرباد الذي وقع معاهدة دفاع مشترك مع الملك الآشوري نيراري (٧٥٤ ـ ٧٤٥ ق.م.) (مجلة سومر، ١٩ (١٩٦٣) ص ١١٩) ـ كما اتخذ الهكسوس، وهم من أصل عربي بدوي كما يُعتقد وحكموا مصر بين سنة ١٧٨٥ وسنة ١٥٨٠ قبل الميلاد، اسم الإله إيل للتبرك به فأضيف إلى أسماء بعض ملوكهم إذ ورد اسم أحد ملوكهم باسم «يعقوب إيل» وقد ذكر اسم مكان باسم «يوسف إيل». ومما يثبت جلياً أن إيل أو الله كلمة عربية الأصل إن أكثر ملوك معين وسبأ كانوا يضيفون اسم الإله إيل إلى أسمائهم تبركاً به. ويقول الأستاذ الجميلي في كتابه «تاريخ العرب في الجاهلية» أن إيل تعني الرب أو الإله وقد وردت في مختلف اللهجات العربية القديمة، في المعينية والسبئية والبابلية والآرامية والكنعانية والسريانية والعبرانية فتطورت عنها كلمة الإله أو الله في العربية الفصحى». ويذكر قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الثانية، بيروت ١٩٧١، ص ١٤٢ أن كلمة إيل سامية ومعناها في الآكدية الإله بصورة عامة، أمّا في الأوجريه (نسة إلى أوغاريت) فإنّها تعني أبو الآلهة.

وفي موضوع الإله إيل ومكانته عند العرب يقول الدكتور ديتلف نيلسون في

(٨هـ) الدكتور ديتلف نيلسون ورفاقه، «التاريخ العربي القديم»، الترجمة العربية ص ٥٣.

بحثه التاريخي عن الأديان في شبه جزيرة العرب: «أن هناك اسماً واحداً بين أسماء آلهة العرب يجب أن نذكره وهو مشترك بين جميع الأسماء وبه تتصل أكبر مشكلة في الديانات السامية وذلك الاسم هو «ال» أو إله بمعنى الله، وكان هذا الإله إل معروفاً في كل مجاميع النقوش العربية القديمة، فذلك الإله وذلك الاسم كانا إذن معروفين فيها قبل الإسلام ليس فقط في شمالي بلاد العرب بل وفي كل جزيرة العرب». ويرى العلامة «شافر» أن ما يسبغه الكنعانيون من نعوت التعظيم والتفوق لإله واحد فوق الجميع يدل دلالة واضحة على ميل الكنعانيين لتقبل عقيدة التوحيد(٨و). هذا ويؤيد العلامة ديسو (Dussaud) في كتابه «العرب في سورية قبل الإسلام» (ص ٥٥ ـ ١٦٣) «إن النقوش الصفوية أخبرتنا وللمرة الأولى وبدليل لا يقبل الشك كيف أن الله كان معروفاً لدى العرب وكان مقدساً خاصة في المجمع الإلهي العربي الشمالي قبل أن يبشر به الإسلام كإله للتوحيد». وقد ورد اسم الإله إيل في الكتابات الفينيقية بصيغة «إيلوس» وهو الإله إيل الكنعاني نفسه (يوسف الحوراني «نظرية التكوين الفينيقية»، ص ٦٣). وفي بحثه عن ديانة العرب قبل الإسلام ذهب لودولف كريل (Ludolf Kreh) إلى أن العرب القدماء كانوا من الموحدين في الأصل غير أنهم تركوا التوحيد بعدئذ وعمدوا إلى عبادة النجوم والأصنام والأحجار والأشجار، وبذلك انحطت الحالة الدينية عندهم (جواد علي، مفصل العرب قبل الإسلام ١ : ١٣٦).

يتضح مما تقدّم أن الكنعانيين العرب إجمالاً سبقوا أُمم العالم طراً في نشر أرقى ديانات الأُمم السامية الوثنية، لذلك كان تأثيرهم الديني لا يقل عن تأثيرهم العلمي. وفي ذلك يقول ولفنسون: «وللكنعانيين عدا تأثيرهم العلمي والصناعي على العالم المتمدن، فضل عظيم آخر وهو تأثيرهم الديني في جميع الأُمم السامية، فقد كانت ديانتهم أرقى ديانات الأُمم السامية الوثنية لذلك تأثرت بها ديانات بابل وورث الآراميون والإسرائيليون والعرب هذا التأثير» (تاريخ اللغات السامية، ص ٥٣).

وفي موضوع عبادة الأصنام يقول الدكتور منيف الرزاز: «وفي الجاهلية لم يكن العرب يعبدون الأصنام وإنما كانوا يتخذونها إلى الله زلفى. واللات والعزى ومناة هم في زعم العرب بنات الله وليسوا آلهة وهبل هو (هابل). و(هاء) في كثير من اللغات السامية أل التعريف والبعل هو الإله الله. والحنيفية دين إبراهيم

(٨و) C.F.A. Schaffer, «The Cuneiform Texts of Ugarit», London, 1939, pp. 59-72.

الموحد كانت منتشرة كذلك. ولكن حين تفاقم اضطهاد المسيحيين الشرقيين من قبل الدولة الرومانية التي كانت تعذبهم وتصلبهم وتقتلهم وتنفيهم من الأرض لأنهم يوحدون في المسيحية، كان الرد الطبيعي لهم بعد ذلك أن يولد الإسلام ملخصاً لكل هذه الحقبة السابقة وأن يطرح التوحيد بكلمات بسيطة عندما قال: ﴿قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾. (الجذور التاريخية للقومية العربية، مجلة آفاق عربية، آذار ١٩٧٨، ص ٥).

ب ـ التوحيد والتعدد في الديانة المسيحية:

لم أجد فيما قرأت عن تاريخ المسيحية والخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية أوضح عرضاً وأدق تلخيصاً وأوسع شمولاً مما كتبه الدكتور منيف الرزاز نثبته هنا بالنص لأهميته قال: «إن الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية يتمثل في النزوع إلى التوحيد في كنيسة الشرق يقابله النزوع إلى التعدد حسب الفلسفة اليونانية الأفلاطونية في كنيسة العرب. والمعلوم أن المسيحية عطاء شرقي وأنها وُلدتْ في القدس ولم تولد في روما. هذه المسيحية منذ أن نشأت انقسمت إلى فرعين أساسيين، فرع عمّ منطقة الشام والعراق ومصر وشمال أفريقية وفرع نقله بولص وبطرس عن طريق أاثينا إلى روما فانتشر في أوروبا... وكانت المسيحية الشرقية دائماً تختلف مع المسيحية الأوروبية فيما يتعلق بالتوحيد والتثليث.. فمنذ فجر التاريخ وحتى ظهور الإسلام ثمة نزوع مستمر إلى التوحيد، هذا النزوع إلى التوحيد خاص بأمم المنطقة التي هي الوطن العربي اليوم.. ومن هذا النزوع وُلِدَ بعد ذلك الدين اليهودي[٨ز] ثم وُلِدَ الدين المسيحي.. وهذا النزوع ترجم نفسه إلى نزوع إلى التوحيد مستمر وقائم ممتد على مدى التاريخ. أخناتون في مصر كان أول مَن طرح التوحيد. وحين كانت الآلهة متعددة في شرق الوطن العربي وأيضاً في الجزء الإفريقي ممثلاً بالفينيقيين كان هناك دائماً إله الآلهة الذي كان يسمَّى إمَّا بعل أو إيل، وإيل تطورت لتصبح إله، وإيل إله، الله. والله لم يذكر اسمه عند العرب لأول مرة بعد الإسلام، كثيرون منا ينسون أن الرسول (ﷺ)

(٨ز) إن الدين اليهودي رغم أنه يعتبر ديناً يدعو إلى التوحيد إلاَّ أنَّه لا يمثل التوحيد الكامل بمعناه الحقيقي (Monotheism) فهو يدعو إلى مبدأ التفريد (Honotheism) وهو المبدأ الذي اعتنقته الأقوام القديمة عندما كانت كل مدينة تختص بإله واحد من بين مجموعة الآلهة بدون نبذها عبادة الآلهة الأخرى والقضاء عليها (طه باقر، «مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة»، ط١، ج٢، ص ٣٠٣).

اسمه محمد بن عبدالله أي أن كلمة الله كانت موجودة في الجزيرة العربية قبل ولادة الرسول (ﷺ). (انظر ما تقدّم عن دور العرب في ابتداع التوحيد).

«أمّا الخلاف بين الكنيسة المسيحية الشرقية والكنيسة الغربية فيتمثل في النزوع إلى التوحيد في كنيسة الشرق يقابله نزوع إلى التعدد في كنيسة الغرب: فالمذهب الكنسي الغربي يقول إن المسيح له طبيعتان، طبيعة إلهية، وطبيعة إنسانية في آن معاً وإن هاتين الطبيعتين مختلطتان اختلاط النبيذ بالماء يعني لا تميز بينهما. أما مسيحيو الشام ومصر فقالوا إن للمسيح طبيعة واحدة فقط ولذلك سموا في الأدب المسيحي «مونوفيزايتس» (Monphysites) أي المؤمنين بالطبيعة الواحدة بينما سمي المسيحيون الغربيون (ديوفيزايتس) أي المؤمنين بالطبيعتين. إذن هذا النزوع إلى التوحيد كان دائماً موجوداً ونراه في المسيحية حتى القرن الرابع والخامس والسادس الميلادي. ولقد تعرّض مسيحيو هذه المنطقة إلى اضطهاد شديد جداً من الدولة الرومانية وكان اضطهاد المسيحية عنيفاً في الشام وفي مصر وشمال أفريقية بحيث لجأ معظم المسيحيين الشرقيين إلى الصحارى يقيمون فيها الصوامع والأديرة بعيداً عن شرطة الدولة الرومانية. أما الدوناتيون بشمال أافريقيا فقد قاموا بثورة فلاحية اجتماعية ضد الدولة الرومانية وضد سلطة البابا في نفس الوقت. . لذلك كانت المسيحية الشرقية تسمي مذهب روما وبيزنطة المذهب الملكاني أي مذهب الملك، مذهب الحكومة المعادية للشعب[٨ط]. وهكذا كان الاختلاف بين الكنيستين يعبر عن الثورة ضد السلطة الرومانية الحاكمة لشعوب هذه المنطقة. ولذلك فانتشار المسيحية في القرون الثلاثة الأولى كان بين شعوب الوطن العربي وبين العبيد في روما نوعاً من الثورة ضد السلطة الرومانية اليونانية القائمة. ولم تصبح الدولة بطبيعة الحال مسيحية إلاّ على زمن قسطنطين وبعد قسطنطين في أوائل القرن الرابع الميلادي»[٨م]. وينتهي الدكتور الرزاز بقوله «إن النزوع إلى التوحيد كان قائماً في جميع الحضارات العربية، فمنذ فجر التاريخ وحتى الإسلام ثمة نزوع مستمر إلى التوحيد. . والمسيحية منذ أن نشأت انقسمت إلى فرعين أساسيين، فرع عم في منطقة الشام

(٨ط) انظر ما يلي في الفقرة (١٢) عن تدخل الحارث بن جبلة ملك الغساسنة وابنه المنذر وسعيهما في إطلاق الحرية لجميع النصارى كل على مذهبه.

(٨م) الدكتور منيف الرزاز، «الجذور التاريخية للقومية العربية»، مجلة آفاق عربية، عدد آذار ١٩٧٨، ص ٢ ـ ٥.

والعراق ومصر وشمالي أفريقيا وفرع نقله بولص وبطرس عن طريق أثنيا إلى روما فانتشر في أوروبا وكانت المسيحية الشرقية دائماً تختلف مع المسيحية الأوروبية.

وكان قد ظهر الاختلاف بين الكنيستين لأول مرة عندما طرح آريوس بطريرك الإسكندرية رأياً ضد الكنيسة الغربية. وآريوس مولود في ليبيا سنة ٢٥٠م. فقال إن الله واحد لا يلد ولا يولد وأن المسيح ليس ابناً لله وأنه بشر ولكنه أكمل البشر، ولأنه أكمل البشر فقد اصطفاه الله. ولذلك فالمسيح هو بتعبير آريوس روح من الله وكلام منه. ولقد استدعي آريوس إلى القسطنطينية وعقد له أول مجمع كنسي في نيقية في ٢٠ مايس من سنة ٣٢٥ م لبحث المواضيع العقائدية بأمر الأمبراطور قسطنطين وحوكم بالهرطقة ونفي ومات في المنفى في القسطنطينية سنة ٣٣٥ م[٨ك].. والفنداليون (Vandals) الذين احتلوا شمال أفريقيا بعد ذلك بمدة قصيرة جداً كانوا آريوسيين أي تابعين لآريوس. ثم ظهرت الفرقة السبيلية (Sabellianism) في حوالى سنة ٢٣٠ م وهي نسبة إلى الشخص الذي ابتدع تعاليمها وهو سبيليوس (Sabellius) الذي يقول إن الله ليس الاب والابن وروح القدس بل بالعكس إن هذه الأقانيم الثلاثة كلها مظهر لوحدة الإله، والمسيح شخص مثل الأشخاص الآخرين. وسبيليوس مثل آريوس من أصل ليبي أيضاً من أهل بلدة بنتابوليس (Pentapolis). وقد لاقت دعوته رواجاً في بلده أول الأمر وبعد ذلك في المقاطعات المجاورة، فقاومها رجال الدين المسيحي وفي مقدمتهم ديونيسيوس (Dionisius) أحد أساقفة الإسكندرية. ثم ذهب سبيليوس إلى روما في أوائل القرن الثالث ولكن دعوته لم تلق تشجيعاً في حين أن معتنقيها في الشرق ازدادوا في أعقاب منتصف القرن الثالث الميلادي. والسبيلية أصبحت بصورة إجمالية تسمية لجميع مظاهر عقيدة التوحيد التي تنطوي على الاعتراف بمقام المسيح من حيث قدسيته الدينية[٨ل].

وأخيراً ظهرت النسطورية ففاقت كل زميلاتها انتشاراً كما سيلي في الحديث عن النسطورية[٨ي]. وهكذا كان المسيحيون الشرقيون آريوسيين وسبيليين ونساطرة ويعاقبة ودوناتيين. الأريوسيوس والسبيليون في ليبيا والنساطرة في شمال العراق وشمال إيران ومنطقة أرمينيا واليعاقبة في سوريا ومصر والدوناتيون في شمال افريقيا.

(٨ك) Encycl. Brit., 1965, 2:381-383, 40, «Arianism, Arius».

(٨ل) Ibid., Vol. 19, p.791 «Sabellianism - Sabellianus».

(٨ي) Ibid., Vol. 16, pp. 251-253, «Nestorians - Nestorius». وانظر ما يلي الفقرتان ٨ و٩.

٦ ـ الكنائس الأربع الرئيسية قبل الانقسام:

وهكذا فقد كانت الكنيسة المسيحية في بدايتها، أي قبل الانقسامات الداخلية، مؤلَّفة من أربعة كراسي كنيسية، هي الأنطاكي والإسكندري والروماني والقسطنطيني، وكان أكبر هذه الكراسي الكرسي الأنطاكي الذي كان يشمل آسيا كلها فكانت له سلطة على كل الشرق المسيحي على اختلاف أجناسه. وقد أسَّس هذا الكرسي الأنطاكي القديس بطرس رئيس الرسل وصار أوَّل بطاركته. وكان الكرسي الأنطاكي يرأس في أوج عزه اثني عشر كرسياً مطرانياً ومئة وسبعة وثلاثين كرسياً أسقفياً، أي كانت له سلطة على أساقفة بلاد سورية وفينيقيا وبلاد العرب وفلسطين وقليقية وقبرص وما بين النهرين إلى أقصى بلاد الفرس والهند والصين. وهكذا امتدت بطريركية أنطاكية إلى الكنائس التي وراء حدود المملكة الرومانية في آسيا حتى الهند.

وكانت لغة الأبرشية الأنطاكية اللغة السريانية وصارت أبجديتها حروف هجاء لمعظم الأمم الشرقية، وبها تناقش المجمع الرسولي الأورشليمي سنة ٥١ م وبهذه اللغة احتفلت الكنيسة المسيحية لأول مرة بالقربان المقدس. وكانت لغة اليهود في الأصل السريانية أيضاً وكانت هذه لغتهم في أيام المسيح. ولما تنصَّر الأرمن على يد القديس غريغوريوس المنور في سنة ٣٠١ م بعد أن كانوا يدينون بالمزدكية الوثنية كتبت الكنيسة الأرمنية بالأبجدية السريانية ونبغ بعض أساقفتها بالسريانية، وفي حدود سنة ٤٤٠ م وضع أحد علمائهم الأبجدية الأرمنية ونقل الكتاب المقدس من السريانية إلى الأرمنية[٩].

وكان مطران سلوقية وقطيسيفون أو الجاثليق يدير دفة الأمور الكنيسية في المملكة الفارسية خاضعاً للكرسي الأنطاكي ومؤيِّداً منه بل نائباً عنه في هذه المملكة.

أمَّا الكتاب المقدّس فمن المعلوم أن أسفار العهد القديم دُوِّنت باللغة العبرية ما عدا سفر أيوب الذي كُتب أولاً بالآرامية ثم تُرجم إلى العبرية وما عدا بعض سفر دانيال وسفر عزرا وسفر نحميا الذي دُوِّن بالسريانية. وكانت أول ترجمة للعهد القديم إلى اليونانية قد تمَّت في عهد بطليموس فيلادلفوس ملك

---

(٩) «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية» لمؤلفه سوبريوس يعقوب توما، بيروت ١٩٥٣، ص ٧٨ ـ ٨١، ١٧٠ ـ ١٧١.

مصر (٢٨٠ ـ ٢٤٧ ق.م.) وهي الترجمة التي اشتهرت بالسبعينية. ثم تُرجم العهد القديم إلى اللاتينية في القرن الأول للمسيح، وفي أواخر القرن الأول نقل العهد العبري إلى السريانية بواسطة بعض اليهود المتنصرين وعرفت هذه الترجمة بالبسيطة واستعملتها الكنيسة السريانية دون السبعينية. أمَّا أسفار العهد الجديد فقد دُوِّنت باللغة اليونانية ما عدا إنجيل متى والرسالة إلى العبرانيين وهي لغة الأدب والاجتماع عصرئذ. ولا شك في أن ترجمة سريانية للعهد الجديد وُجدت في البلاد السريانية في أوائل القرن الثاني. ومن المرجح أن الكتاب المقدس تُرجم إلى اللغة الحبشية (لغة الجعيز) في أواخر القرن الخامس للميلاد.

وقد أُسِّست في سنة ٣٩٠ م مدرسة لاهوتية كبرى في أنطاكية، وتشير الأخبار الكنيسية أنه كان في أنطاكية على الدوام مدرسة للعلوم الدينية وأخرى شهيرة للعلوم الفلسفية العالية كان يُخرج فيهما أساتذة كبار وعلماء.

وقد شهد الكرسي الأنطاكي هزيمة فقد فيها الكثير من نفوذه إذ استولى عليه الآريوسيون في منتصف القرن الرابع وما يليه وكان هؤلاء يدعون إلى الأخذ بنظرية كون المسيح مخلوقاً إنسانياً وليست له صفة الربوبية لأن الله ثابت لا يتغير ولا شريك له ولا يمكن أن يُوصف الابن القابل للتغير بالإله(١٠).

أمَّا الكرسي الإسكندري فقد كانت سلطته على أفريقيا (بلاد مصر وأثيوبيا وليبيا) وكانت لغة الكنيسة الإسكندرية في بداية الأمر اليونانية، وكان في الإسكندرية في هذا الزمن مدرسة لاهوتية كبرى مشهورة تسير على فلسفة أفلاطون المؤسسة على الرموز غير أن المدرسة الأنطاكية سلكت طريقة أخرى مستندة على فلسفة آرسطو المبنية على البرهان والمنطق، وسارت المدرستان على طريقتين فلسفيتين مختلفتين في تفسير الكتاب المقدّس، فالمدرسة الإسكندرية كانت تطلب لكل آية ثلاثة معان وهي الروحي والحرفي والرمزي. أمَّا المدرسة الأنطاكية فقد اعتنت بالتفسير الحرفي اللغوي فقط. وقد أفرط تلامذة المدرستين بسلوكهما هاتين الطريقتين الفلسفيتين في تفسير الكتاب المقدّس الأمر الذي أدَّى إلى ظهور بعض البدع(١١).

---

(١٠) Ency Brit., 1965, 2: 381-383, 401.

(١١) «تاريخ الكنيسة السريانية الأنطاكية، ص ١٥٨ ـ ١٥٩.

وأما الكرسيان الروماني والقسطنطيني فقد كان هناك خلاف بينهما منذ البداية، فبابا روما كان يعتبر نفسه أعلى سلطة في الكنيسة لأن الحواريين بولص وبطرس وغيرهما من المسيحيين الأوائل استشهدوا فيها، في حين أن أباطرة القسطنطينية كانوا يعتبرون كرسيهم يمثل أعلى سلطة للكنيسة. كما كان هنا خلاف آخر غاية في الأهمية بين كنيسة الشرق وكنيسة الغرب، فقد كانت اللغة اليونانية هي السائدة في الشرق واللغة اللاتينية هي السائدة في الغرب، وعند الترجمة من الأصل اليوناني إلى اللغة اللاتينية كان معنى الكلمات الدينية يتغير قليلاً كما تغيّرت معتقدات الدين وطقوسه. وأثار هذا كثيراً من الجدل غير الودي بين الكرسيين، وقد زادت هذه الخلافات مع مرور الزمن زيادة كبيرة، ثم أثير نزاع بينهما حول عبادة التماثيل والصور للشهداء والقديسين وتلاميذ يسوع وأمه مريم وليسوع نفسه. فكانت هذه الخلافات سبباً في انقسام الكنيسة الرومانية قسمين، كنيسة الشرق الأرثوذكسية وكنيسة الغرب الكاثوليكية. وفي أثناء ذلك غزا البرابرة أوروبا واستولوا عليها وتحوّل هؤلاء البرابرة إلى المسيحية تحت تأثير بابا روما، فزاد ذلك من سلطان الكنيسة الغربية في روما وسيطرت تقريباً على معظم أوروبا وأرسلت بعثات التبشير في كل مكان لتنصير جميع البشر، وجمع بابا روما في شخصه سلطتي السماء والأرض وصار يوصف بأنَّه ظل الله في الأرض وخليفة المسيح وأمير جميع الأمم والممالك. هذا في حين أن الكنيسة الشرقية آخذة في التدهور والانحلال، إذ شهدت انقسامات داخلية أضعفت كيانها[١٢].

٧ ـ أول انقسام في المسيحية ـ ظهور النسطورية:

وكان أول انقسام بارز في الكنيسة المسيحية ظهور العقيدة النسطورية نسبة إلى معتنقها نسطوريوس الذي نصبه الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠ م) بطريركاً في القسطنطينية سنة ٤٢٨ م. وتعاليم نسطوريوس تدعو إلى أن للسيد المسيح طبيعتين (أقنومين): أقنوم الإنسان يسوع وأقنوم الله، أي هو إله تجسد في فترة معينة فأصبح إنساناً، ثم عندما توفي رجع إلهاً ولذلك له طبيعتان ولكنهما مثل الزيت والماء لا يختلطان. قال النساطرة لا يجوز أن تسمّى مريم العذراء أم الله بل هي بشر ولدت المسيح بالشخصية البشرية وأن المسيح مات على الصليب

(١٢) «قصة الديانات» تأليف سلمان مظهر، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٧.

كإنسان[١٣]. فاعتبرت تعاليم نسطوريوس هذه بدعة ضالة تخالف المبادئ العامة التي تدين بها الكنيسة، وكان الحكم على نسطوريوس وأتباعه في مجمع إيفيسس[١٤] المنعقد سنة ٤٣١ م بالضلال والإلحاد فعزل نسطوريوس من أسقفية القسطنطينية، هذا مع العلم أن أسقفية أنطاكية وقفت إلى جانب نسطوريوس مؤيِّدة لتعاليمه، ولكن «سيريل» بطريرك الإسكندرية وأتباعه ومطارنة روما كانوا ضد نسطوريوس وظلّوا متمسكين بالرأي القائل بالطبيعة الواحدة للمسيح وصار هؤلاء يعرفون بالمنوفيسيتيين (Monophysites)[١٥] أي المؤمنين بالطبيعة الواحدة للمسيح. ولم يمض وقت طويل حتى صار للنساطرة أتباع كثيرون مما أدَّى إلى نمو النسطورية وبروز الانشقاق الخطير في الكنيسة المسيحية[١٦].

٨ ـ انتشار النسطورية في الشرق:

وكانت الرها المركز الرئيس للثقافة النسطورية ومن أهم معاقل الأدب

---

(١٣) قضى نسطوريوس سنواته الأولى في «جرمانيسيا» في سورية (ماراس الحالية في جنوب تركيا) ودرس في أنطاكية حيث تشرب بمبادئ مدرستها اللاهوتية الشهيرة فأصبح راهباً في أحد الأديرة، عيِّن قسيساً فاشتهر بالزهد والتعبُّد واستقامة الرأي وصحة المعتقد والفصاحة. وعلى هذا رشَّحه الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني إلى كرسي الأسقفية (أبرشية أستامبول سنة ٤٢٨ م).

(١٤) ايفيسس (Ephesus) مدينة يونانية قديمة تقع بقاياها بالقرب من قرية «سلجوق» في مقاطعة أزمير التركية.

(١٥) انظر دائرة المعارف البريطانية ٩٦٥، ١٥: ٧٤٦.

(١٦) كان منشأ الخلاف في الرأي نشوب خصومة شخصية بين «سيريل» بطريرك الإسكندرية وبين نسطوريوس بطريرك القسطنطينية فاشتد هذا الخلاف بينهما حتى أصبح من الأحداث الخطيرة في الأحوال الداخلية، مما اضطر الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني (٤٠٨ ـ ٤٥٠م) أن يدعو إلى اجتماع المجمع الديني حيث عقد في إيفيسس في السابع من حزيران سنة ٤٣١ م، فانتهز «سيريل» تأخُّر وصول مطارنة أنطاكية وعقد اجتماعاً برياسته حضره مئتا مطران وقرروا خلع نسطوريوس من منصبه كبطريرق القسطنطينية، إلاَّ أن نسطوريوس رفض الاعتراف بهذا القرار. ثم حضر بعد ذلك مطارنة أنطاكية في ٢٦ حزيران وعقدوا اجتماعاً بدورهم وقرروا خلع «سيريل» من منصبه كبطريرق الإسكندرية. وفي ١٥ تموز حضر ممثلو كنيسة روما فانضموا إلى جانب «سيريل»، وكانت النتيجة أن أُدين نسطوريوس واعتبر خارجاً على تعايم الكنيسة، وبعد أن قضى خمس سنوات معتكفاً في ديره القديم قرب أنطاكية نفاه الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني سنة ٤٣٦ إلى أعالي مصر حيث توفي سنة ٤٥١ م.

السرياني فكانت تعج بطلبة العلم السريان، وقد ازدهرت بوجه خاص في عهد «إيباس» (٤٣٦ ـ ٤٥٧ م) أسقف هذه المدينة، غير أن الأحوال قد تغيّرت بعد وفاة «إيباس»، حيث خلفه «نونوس» أسقفاً للمدينة، كان هذا يمقت النسطورية متمسكاً بولائه للبيزنطية، فاضطر النساطرة تحت ضغط الأسقف الجديد للارتحال عن الرها. فاتخذوا من نصيبين مركزاً لنشاطهم الديني والثقافي فأسّسوا هناك أكاديمية جديدة حلّت محل الأكاديمية التي دمرها البيزنطيون في الرها، ولكن ما لبثوا حتى ارتحلوا عنها أيضاً خوفاً من بطش البيزنطيين وتوجهوا برياسة (بارصوما) زعيم الحركة النسطورية إلى مملكة فارس حيث وجدوا في الفرس (الساسانيين) أعداء الروم خير مَن يحميهم ويؤمّن لهم السلامة وحرية العقيدة. وفعلاً أظهر الساسانيون استعدادهم لحمايتهم ومنحهم الحرية الدينية وحرية التبشير بمذهبهم النسطوري بين رعايا المملكة. فلاقوا ترحيباً من الملك فيروز الأول (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م) الذي رأى فيهم خير أداة لمحاربة بيزنطة، فسمح لهم هذا الملك باقامة المعابد والمدارس وممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة وحسب طلب (بارصوما) فقد اعتبر الملك فيروز النسطورية ديناً لجميع مسيحيي الأمبراطورية الفارسية، «وأخذ مؤيدو (نسطور) تحت قيادة (بارصوما)، يجبرون الآثوريين بالنار والحديد على تقبل تعاليم (نسطور) وحسب قول جي. باسيت (J. Basset «Persia», P 471) فإنَّ سبعة آلاف من أنصار بيزنطة قد قتلوا أثناء معارك الاستعباد الديني التي قام بها بارصوما[١٧].

وفي عام ٤٩٦ للميلاد اجتمع في سلوقية العاصمة الفارسية المجمع الديني النسطوري، وأعلنت النسطورية ديناً رسمياً للمسيحيين وانتخب أول بطريرك نسطوري وهو باسم (باري). ومنذ ذلك الحين سُمِّيت الكنيسة النسطورية بكنيسة الشرق وسُمِّي بطريركها بطريركاً للكنيسة الشرقية. وفي ذلك الوقت نفسه أعطى الفرس استقلالاً محلياً داخلياً للنساطرة[١٨].

وهكذا فقد احتلت مدينة سلوقية في العراق مكانة الرها ونصيبين وصارت من أهم مراكز النسطورية الثقافية والتبشيرية في الشرق، فاستحكمت فيها النسطورية بمؤازرة السياسة الفارسية التي رمت إلى إقامة فواصل مذهبية بين

---

(١٧) تاريخ الآثوريين، تأليف ك. ماتييف ومار يوحنا ترجمة أسامة نعمان عن الروسية، ص ١١ ـ ١٢.

(١٨) المرجع السابق، ص ١٢.

نصارى فارس والروم[١٩]. ومن سلوقية نشر النساطرة مذهبهم في الأمبراطورية وفيما وراء حدودها فنقلوا تعاليمهم إلى تركستان والهند والصين. وازداد نفوذ كنيسة النساطرة في إيران حيث صارت تُعرف بكنيسة الشرق وهي تمارس طقوسها الدينية بالسريانية المعتمدة على منهج مدرسة الرها. وقد سمح الساسانيون للنساطرة أن ينشئوا مجالس طائفية لإدارة شؤونهم يديرها أساقفة منهم، فكانت لهم في القرن الخامس للميلاد سبع أسقفيات في الأقاليم الإيرانية. ومن سلوقية انتقل المذهب النسطوري إلى أهل الحيرة فصار أكثر نصارى الحيرة نساطرة وأسَّسوا أسقفية تابعة لكرسي جاثليق المداين مركز البطريركية. ومن أهل الحيرة انتقلت النسطورية إلى جزيرة العرب وكذلك إلى اليمن حيث كانت بين اليمن والحيرة علاقات تجارية وثيقة، وقد نُشر هذا المذهب بشكل واسع بعد دخول الفرس إلى اليمن (٥٧٠ ـ ٦٢٨ م) لما كان عليه الفرس من موقف عدائي تجاه كنيسة الروم[٢٠] وهكذا انتشرت الأرثوذكسية النسطورية من الصين حتى أورشليم ومن الهند والجزيرة العربية حتى مصر فأصبح لها خمس وعشرون أسقفية في القرن الحادي عشر الميلادي[٢١].

وقد قابل النساطرة فتوح العرب المسلمين بترحيب صميم حين أوقع العرب المسلمون هزيمة بجيش الفرس في القادسية في عام ٦٣٧ للميلاد وفي فارس في عام ٦٤٢ للميلاد. وقد ورد في الأخبار أن البطريرك النسطوري (ايشو باوي) قابل رسول النبي محمد (ﷺ) سنة ٦٢٨ م واستلم منه شهادة كانت لا تزال محفوظة في إحدى الكنائس النسطورية القديمة ـ مارزيا ـ حتى عام ١٩١٤ للميلاد[٢٢].

وعلى العموم كان المسيحيون النساطرة يتمتعون في الفترة بين دخول العرب المسلمين إلى العراق وإيران وحتى غزوات المغول في زمن جنكيزخان وهولاكو وتيمورلنك في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد بحرية تامة فقد ازدهرت ثقافتهم وانتشرت مدارسهم في جميع أنحاء الشرقين الأدنى والأقصى وامتدت

---

(١٩) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ٧٥.

(٢٠) المرجع السابق ٦: ٧٢ ـ ٨٠.

(٢١) إبراهيم خليل أحمد، «الاستشراق والتبشير وصلتهما بالأمبريالية العالمية» ١٩٧٣، ص ٢٣ ـ ٢٥.

(٢٢) «تاريخ الآثوريين» مرجع سابق، ص ١٣.

دعوتهم إلى النسطورية في الصين ومنغوليا ومنشوريا وكورية وتايوان وسيبريا والهند وسيلان ودول آسيا الوسطى(٢٣) فحملت ثقافتهم هذه طابعاً عالمياً وأثّرت إلى حد كبير على الفكر العربي في الدولة الإسلامية وبالنتيجة على الفكر الأوروبي عن طريق العرب(٢٤) ففي القرن الحادي عشر استطاعوا أن يكسبوا إلى دينهم إحدى القبائل المنغولية التي يبلغ عدد أفرادها مائتي الف نسمة، وبعد ذلك ترجموا الى المنغولية كتابي العهد الجديد والعهد العتيق كما حققوا نجاحاً كبيراً في الصين(٢٥).

وقد ساهم النساطرة في البحوث العلمية التي كان يقوم بها العلماء في بيت الحكمة الذي شيَّده الخليفة المأمون في القرن التاسع للميلاد، كما ساهموا في ترجمة المخطوطات الإغريقية والسريانية القديمة للفلاسفة والرياضيين والأطباء والفلكيين والكتَّاب إلى اللغة العربية، وكان الخلفاء يرسلون النساطرة والإيرانيين إلى الخارج لجمع المخطوطات ودراسة اللغات الأجنبية ثم عانت النسطورية والمسيحية بوجه عام الكثير من الاضطهاد والمطاردة في كل مكان في عهد المغول في القرنين الثالث عشر والرابع عشر فتوجه بعضهم إلى الهند (سواحل مالابار) وتوجّه البعض الآخر إلى قبرص في حين أن أكبر المجاميع هربت مع البطريرك النسطوري إلى جبال كردستان حيث كان يقيم إخوانهم النساطرة منذ القديم. ومنذ ذلك الوقت أخذت النسطورية تتقلص تدريجياً بعد غزو المبشرين الكاثوليك إلى ديارهم ودعوتهم إلى نبذ النسطورية والتحول إلى الكاثوليكية، فاستطاع هؤلاء المبشرين أن يُخضعوا النساطرة لسيطرتهم في كل البلاد ما عدا النساطرة الذين اعتصموا في جبال كردستان مع بطريركهم وأصبح الصابئون إلى الكثلكة يُعرفون بالنساطرة الكلدان ولقب بطريركهم بلقب بطريرك بابل(٢٦).

٩ ـ اللغة السريانية لغة الكنيسة النسطورية:

تنتمي لغة النساطرة المعاصرة إلى أُسرة اللغة الآرامية (التي تدخل ضمن

---

(٢٣) J.W. Etheridge, «The Syrian Churches», p. 81.

(٢٤) Luke «Mosul and its Minorities», p. 7.

(٢٥) «تاريخ الآثوريين»، مرجع سابق، ص ١٥.

(٢٦) انظر: اوليري، «مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب»، ترجمة دكتور تمام حسان، القاهرة ١٩٥٧، ص ٦٩ ـ ١٠٧.

اللغات السامية) والتي كان النسطوريون يتكلمون بها منذ القديم، وهي المعروفة اليوم بالسريانية، وقد تمكَّن البقايا من النساطرة الذين ثبتوا في أماكنهم في جبال كردستان من أن يحافظوا على هذه اللغة التي كان يتكلم بها المسيح قبل حوالى ألفي سنة، وكان لا يزال بقايا النساطرة في جبال حيكاري قبل أن يخرجهم الأتراك من مواطنهم الأصلية في تركيا وهم الذين سُمُّوا بالآثوريين مؤخراً[٢٧] يمارسون طقوسهم الكنيسية بهذه اللغة: فيقول المبشر الإنكليزي الدكتور ويكرام «إن صلوات خدمة القدّاس النسطورية هي أقدم ما يُطبق في البلاد المسيحية على الإطلاق فالمراسيم تقام تماماً كما كانت تُقام في السنة ٤٥٠ الميلادية والروايات التاريخية تمتد به إلى زمن أقدم من هذا»[٢٨] ويكمن السر في استطاعة هذه الفرقة بأن تبقى حتى هذا اليوم على عنصرها وثقافتها الدينية أنها وجدت في ظروف ملائمة في مناطق جبلية منيعة نائية منعزلة. هذه هي اللغة السريانية الكلاسيكية التي كانت مستعملة في الكتب الدينية والطقوس المسيحية النسطورية. وكان النساطرة يتكلمون فيما بينهم بلهجة سريانية قديمة يعتقد أنها اللهجة نفسها التي كان يتكلم بها المسيح واليهود في عهده في فلسطين، وقد صارت هذه اللهجة تُعرف بلغة الترجوم[٢٨أ] وهذه هي اللغة نفسها التي بقي يتكلم بها يهود كردستان الذين كان قد سباهم الآشوريون إلى منطقة آشور في القرن الثامن قبل الميلاد ـ وهي اللهجة ذاتها التي كان يتفاهم النسطوريون بها ما بينهم، ومع أنها لهجة ذات اصل واحد إلاّ أنها تختلف قليلاً بين لهجات نساطرة تركية ونساطرة إيران ونساطرة العراق. وذلك نتيجة إدخال بعض الكلمات الكردية إلى لهجة نساطرة تركيا والكردية والفارسية إلى لهجة نساطرة إيران والعربية إلى لهجة نساطرة ناحية الموصل وذلك بمرور الزمن بتأثير احتكاك النساطرة بالأكراد والإيرانيين والعرب غير أن هذه الفوارق لا تعيق التفاهم بينهم.

وكانت الكتب العتيقة تُقرأ بالرها بالعبرية والحديثة باليونانية فنقلهما الأساقفة إلى السريانية، هذا نص ما ورد في «أخبار فطاركة كرسي المشرق من كتاب المجدل» لماري بن سليمان (ص ٣) في هذا الصدد: «ان كتب العتيقة (العهد القديم) كانت تُقرأ بالرها بالعبرية إلاّ أن بعض الأساقفة امتعض من ذلك

---

(٢٧) انظر ما تقدم في الفقرة ١٠ من الفصل الأول.

(٢٨) ويكرام «مهد البشرية»، ترجمة جرجس فتح الله، ص ٢٤٩.

(٢٨ أ) الدكتور علي عبد الواحد وافي، «اليهودي واليهود» ص ١٩.

ونقلها إلى السريانية ونقل الحديثة (العهد الجديد) من اليونانية إلى السريانية أمونيوس الغزي وقوم قالوا إن ططيانوس الذي عمل الإنجيل المسمَّى ذياطا سارون وصارت الكتب تُقرأ باليونانية وبالسريانية».

وقد استطاع البقايا من النساطرة في منطقة كردستان، وهم أحفاد اليهود الذين سباهم الآشوريون إلى جبال كردستان في منطقة حدياب (آشور) من أن يحافظوا على هذه اللغة السريانية، اللغة التي كان يتكلم بها المسيح قبل حوالى ألفي سنة، وكان لا يزال بقايا النساطرة في جبال حيكاري قبل أن يخرجهم الأتراك من مواطنهم الجبلية في تركيا، وهم الذين صاروا يُعرفون مؤخّراً بالآثوريين[٢٩] يمارسون طقوسهم الكنيسية بهذه اللغة. ويكمن السر في استطاعة هذه الفرقة بأن تبقى حتى هذا اليوم على عنصرها وثقافتها الدينية أنها وجدت في ظروف ملائمة في مناطق جبلية منيعة نائية منعزلة.

وتفيد الأخبار أن البطريركية النسطورية استقرت في عهد البطاركة المتأخرين في قوجانس في منطقة حيكاري الواقعة في ولاية وان حيث يقيم النساطرة في جبال تركيا وذلك ليكون بعيداً عن مبشري رومه الذين كانوا يهدفون إلى تحويل جميع النساطرة إلى الكاثوليكية.

١٠ ـ بطريركية النساطرة ـ المار شمعونية:

بطريركية النساطرة وراثية في أسرة واحدة منذ سنة ١٤٥٠ م ويُطلق لقب «مار شمعون» على كل مَن يتولى البطريركية على النساطرة، ويشترط على مَن يكون بطريركاً أن لا يأكل اللحم مدة حياته حتى أمه وهي حاملة به، كما أنه محرّم على البطريرك النسطوري أن يتزوج. وهكذا ينتقل المنصب من عم إلى ابن الأخ ويبقى منحصراً في الأسرة، مع العلم أن القساوسة ورجال الدين الآخرين أحرار في الزواج كما يشاؤون. وكانت تسكن هذه الأسرة في القديم في بلدة القوش، ثم انتقلت إلى «عين كاوة» في أربيل وبقيت فيها طويلاً، ثم انتقلت الى «قوجانس» في حيكاري (منطقة جوله مرك).

والمار شمعون هو المرجع الديني الأعلى للمذهب النسطوري والزعيم الأكبر عند النساطرة وهو الذي يعين المطارنة والأساقفة ويسن القوانين والأنظمة

(٢٩) انظر ما تقدم في الفقرة ١٠ من الفصل الأول.

الدينية للكنيسة النسطورية في الشرقين الأدنى والأقصى. وكان يتبع المذهب النسطوري نحو واحد وعشرين كرسياً للمطارنة. وقد تعوَّد المار شمعون أن يسلك في أعماله سلوك زعيم قوم أكثر من سلوك بطريرك للكنيسة. فهو لا يفصل بين هذين المنصبين.

وكان المار شمعون في أثناء حوادث الحرب العالمية الأولى (مار بنيامين) وعلى إثر قتله على يد زعيم الأكراد «سمكو» سنة ١٩١٨ م حلَّ محله أخوه (مار بولص) وكان عليلاً فلم تدم بطريركيته طويلاً حيث توفي بالسل سنة ١٩٢٠ في مخيم بعقوبة، وقد خلفه المار شمعون ايشاي بن داود وهو ابن أخ بنيامين، وكان هذا البطريرك صبياً في الثانية عشرة من عمره فكانت وصية عليه عمته (سرما خانم) التي كانت تطمع بالعرش الآشوري، وقد أتمَّ ايشاي البطريرك الصبي دراسته في إنكلترا، ورجع إلى العراق وهو مشبع بفكرة جديدة لقَّنه إياها الإنكليز وهي أن النساطرة ينحدرون من الآشوريين ومن واجبه أن يجمع طائفته ويعيد مجد ذلك الشعب الآشوري العظيم أجداد النساطرة من جديد. وكان نتيجة لموقفه السلبي تجاه إسكان الآثوريين في العراق الأثر في إشعال نار ثورة الآثوريين على الجيش العراقي التي كان مصيرها الفشل والقضاء عليها. فنُفي البطريرك إثر ذلك من العراق وارتحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية. وتدل آخر الأخبار أن البطريرك ضرب بالتعاليم الكهنوتية النسطورية التي تحرم عليه الزواج عرض الحائط وتزوج رغم ذلك وانتزع صفة المار شمعون عنه. فكان عمله هذا نذيراً بنهاية المسرحية التي شهدت تمزيق شمل النساطرة إذ قتل البطريرك في أمريكا على يد أحد الآثوريين.

١١ ـ مجمع خلكيدونية لسنة ٤٥١ م:

ونظراً لتمركز المسيحية في الشرق وانتشار مدارسها وفروعها فضلاً عن اتخاذها ديانة رسمية للأمبراطورية البيزنطية فقد تمتعت الكنيسة الشرقية البيزنطية بنفوذ كبير وانتشار واسع، في حين أن الكنيسة الغربية كانت فعالياتها على نطاق ضيق. ويتضح لنا ذلك إذا رجعنا إلى أول اجتماع للمجمع الديني المنعقد في نيقية سنة ٣٢٥ م، إذ نجد أن مجموع عدد المطارنة الذين حضروا هذا الاجتماع كان ٢٢٠ مطراناً لم يكن بينهم سوى خمسة مطارنة من الأقطار الغربية[٣٠].

---

(٣٠) دائرة المعارف البريطانية، ١٩٦٥، ٦: ٦٣٣.

لذلك شهدت الكنيسة الشرقية البيزنطية عدة انقسامات داخلية في حين أن الكنيسة الغربية حافظت على وحدتها ومركزيتها نسبياً، فقد كان لبطريق القسطنطينية سلطة واسعة، وبصفته رئيساً للكنيسة البيزنطية له الحق بأن يتوج الأمبراطور على كرسي الحكم، لكن كان للأمبراطور في الوقت نفسه الحق أن يختار البطريق من بين ثلاثة أسماء يرشحهم المجمع الديني وبإمكانه إن شاء أن يرشح اسماً آخر من غير هؤلاء الثلاثة.

وقد أثار انتشار النسطورية القلق على وحدة الكنيسة البيزنطية وتأثير ذلك على الوضع السياسي في الأمبراطورية، مما حمل الأمبراطور على محاولة إيجاد حل لهذه المشكلة المعقدة، فبعد وفاة الأمبراطور ثيئودوسيوس الثاني سنة ٤٥٠ م خلفته أخته وزوجها مارقيان (٤٥٠ ـ ٤٥٧ م) في الحكم، وكان كلاهما يميل إلى الرأي القائل بأنَّ للمسيح طبيعتين (أقنومين)[٣١]، فدعا مارقيان المجمع الديني للاجتماع وعقد هذا الاجتماع في خلكيدونية[٣٢] سنة ٤٥١ م، فكان أكبر مجمع شهدته الكنيسة المسيحية، إذ كان يضم ٥٢٠ مطراناً أُقرَّ فيه مبدأ الطبيعتين في شخص المسيح لكن من غير انفصال أو تقسيم كما دعا إليهما نسطوريوس، فالطبيعتان موحدة في شخص واحد وقد أُقرَّ ذلك بدافع الرغبة في حل لنزاع بين الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية وبين الكنيسة النسطورية كحل وسط، ومع ذلك رفضته الجماعة القائلة بالطبيعة الواحدة في المسيح (جماعة المنوفيستينيين) مما أدى إلى انقسام الكنيسة الشرقية إلى شُعَب ثلاث الكنيسة الأرثوذكسية الرسمية وكنيسة النساطرة، ثم الجماعة التي رفضت القرار الذي اتخذه المجمع الخلكيدوني بشأن العقيدة وقد عرفوا باليعاقبة. ومن غريب الصدف أن هذا الاجتماع الذي أُقرَّ فيه مبدأ نسطوريوس من حيث الأساس عقد في نفس السنة التي توفي فيها نسطوريوس.

---

(٣١) انظر دائرة المعارف البريطانية ١٩٦٥، ٦: ٦٣٣ ـ ٦٣٧.

(٣٢) خلكيدونية Chalcedon ميناء قديم من مدن بيثانيا يقع مقابل مدينة استامبول (القسطنطينية) خربها متريدات السادس ملك الفرثيين ـ (٦٣ ق.م.) ثم استعادها الرومان، وقد احتلها كسرى الثاني ملك الفرس في سنة ٦١٦ م. اشتهرت في عقد اجتماع المجمع الديني لسنة ٤٥١ فسُمِّي باسمها.

١٢ ـ ظهور اليعقوبية وانتشارها في الشرق:

وعلى إثر إقرار المجمع الديني المنعقد في خلكيدونية مبدأ الطبيعتين في شخص المسيح من غير انفصال ظهرت جماعة من المسيحيين في سورية وما وراءها سُمِّيت بالسريان الأرثوذكس اعتبرت موقف كنيسة الروم الأرثوذكسية في أنطاكية المنسجم مع قرار المجمع الخلكيدوني موقفاً مخالفاً للتعاليم المسيحية الأساسية والتي لا تعترف بغير الطبيعة الواحدة في شخص المسيح. وهي بذلك تنضم إلى جماعة المنوفيستينيين في مبادئها. وصارت هذه الجماعة تُسمَّى أتباع كنيسة أنطاكية بالملكيين (Melkites) أي أعوان الأمبراطور، وشكّلت بطريركية خاصة بها. وصار هؤلاء يُعرفون بالسريان الأرثوذكس أو اليعاقبة نسبة إلى منظمها يعقوب البرادعي مطران الرها (٥٠٠ ـ ٥٧٨ م). وقد ذكر المسعودي اليعاقبة فقال «إن اليعقوبية والجورقان هم نصارى وديارهم مما يلي الموصل وجبل الجودي»[٣٣] وكان بعض اليعاقبة فعلاً يسكن منطقة زاخو ودهوك وعقرة. وكان لليعاقبة دير يسمَّى دير «القيارة» وصفه ياقوت الحموي قال: «دير القيارة لليعقوبية على أربعة فراسخ من الموصل في الجانب الغربي من أعمال الحديثة مشرف على دجلة وتحته عين القار وهي عين تفور بماء حار وتصب في دجلة.. ويقصد هذا الموضع للتنزه والشرب ويستحمون من ذلك الماء الذي يخرج من القار وله قائم» كما كان لليعاقبة بيعة وصفها ياقوت أيضاً قال: «ويجاور بيعة دير الروم في الجانب الشرقي من بغداد بيعة لليعقوبية مفردة لهم حسنة المنظر عجيبة البناء مقصودة لما فيها من عجائب الصور وحسن العمل»[٣٤] وكان لليعاقبة دير آخر بتكريت سُمِّي «دير جلتاني» وكانت في أيامه أسقفيتان على العرب: أسقفية عُرفت بأسقفية العرب، وأسقفية التغلبيين أو «السن» وكرسيها في «عاقولا» هي الكوفة، أمَّا أسقفية العرب فكانت في الحيرة[٣٥].

وقد اتخذ بطريرق اليعاقبة مقره في أنطاكية أولاً، ثم انتقل إلى دير الزعفران قريباً من ماردين حيث كان له أتباع في القرى الجبلية من ماردين وفي جوار الموصل وفي مقاطعات حلب وحمص، إلاَّ أنه ظلَّ يُلقَّب ببطريرك أنطاكية وسائر المشرق، ثم بعد الحرب العالمية الأولى انتقل أكثر أتباع كنيسته من تركيا

---

(٣٣) «مروج الذهب» الجزء الثاني طبعة بيروت، ١٩٦٥ ص ١٠١.

(٣٤) «معجم البلدان»، ج٢، ٦٦٢، ٦٨٩.

(٣٥) الدكتور جواد علي «تأريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ٨٢.

فاتخذ مقره في حمص سنة ١٩٢١، ثم انتقل إلى دمشق سنة ١٩٥٩ حيث لا يزال مقيماً فيها.

وقد نشر المذهب اليعقوبي في بلاد الشام وفي البادية وبين الأقباط والأرمن والأحباش وقد نشره الأحباش في اليمن إثر الاحتلال الحبشي لليمن (٥٢٥ ـ ٥٧١ م)، كما دخل أكثر الغساسنة في هذا المذهب فتعصبوا له وظلُّوا متمسكين به مدافعين عنه إلى ظهور الإسلام. وقد اصطدم اليعاقبة بالكنيسة الرسمية لأمبراطورية الروم لمعارضتهم قرارات المجمع الخلكيدوني كما اصطدموا بالنساطرة لمخالفاتهم التعاليم النسطورية القائلة بأنَّ للمسيح طبيعتين وأقنومين فجرت معارك دموية بينهما. وفي تواريخ اليعاقبة روايات عن اعتناق بعض الملوك الغساسنة لهذا المذهب وتعلقهم به ودفاعهم عنه كالحارث بن جبلة «٥٢٩ ـ ٥٦٩ م) وابنه المنذر (٥٦٩ ـ ٥٨٢ م)، وقد روي أن الأخير عنَّف البطريرك «دوميان» في أثناء زيارته للقسطنطينية لتهجمه على اليعاقبة وطلب إليه الكف عن ذلك والاتفاق مع بطريرك اليعاقبة على التآخي والتحابب تجنباً للفرقة. ومما ذكر أيضاً أن المنذر كتب إلى القيصر لتهجمه على اليعاقبة وطلب إليه الكف عن ذلك والاتفاق مع بطريرك اليعاقبة «طيباريوس الثاني» (٥٧٨ ـ ٥٨٢ م) للتدخل في الأمر وحمل البطريرك والأساقفة على إيقاف حملاتهم على اليعقابة والسعي في إطلاق الحرية لجميع النصارى كل على مذهبه، وقد رُوي أنه جرت مناظرة بين الحارث بن جبلة وبطريرك الملكيين «افرام» (٥٢٦ ـ ٥٤٥ م) فأفحم فيها الحارث خصمه على ما يدّعيه اليعاقبة بقوة حجته. وكان لليعاقبة مشهد القديس «سرجيوس» في الرصافة يحجون إليه للتبرّك به وكان أمراء الغساسنة يبالغون في تعظيمه وتقديسه[٣٦].

وعلى الرغم من أن النساطرة واليعاقبة قد استعملا في كنيستيهما لغة شرقية هي اللغة السريانية إلاَّ أنهما لم يهجرا اللاتينية واليونانية اللتين كانتا اللغتين الرسميتين للكنيسة الغربية والكنيسة الأرثوذكسية الإغريقية الأصلية على التوالي فقد استمر رجالهما يدرسون العلوم المختلفة كالفلسفة والمنطق وغيرهما من العلوم باللغتين المذكورتين. ولتعليم أبنائهما تلك العلوم قاموا بترجمتها إلى لغتهما السريانية فساعدوا على تحقيق الاتصال الثقافي بين الشرق والغرب، ثم

---

(٣٦) المرجع السابق، ج٦ ص ٨١ ـ ٨٥.

نقلوا كتبهم من السريانية إلى العربية فأتموا بذلك مشروعاً إنسانياً عظيماً تمَّ نموه وازدهاره في الإسلام[٣٧].

١٣ ـ الانقسامات في الكنيسة المسيحية:

يتضح مما تقدّم أن الكنيسة المسيحية انقسمت إلى عدة كنائس، ففي الشرق أي في آسيا وافريقيا، كان أول انقسام في الكنيسة المسيحية. حيث ظهرت ثلاث طوائف لكل منها كنيستها الخاصة بها، وهي: أولاً الكنيسة الأرثوذكسية النسطورية[٣٨] وأتباعها هم الذين يقرُّون مبدأ الطبيعتين المنفصلتين في شخص المسيح، وقد انتشر هؤلاء في الأمبراطورية الساسانية في العراق وسوريا وفي الجزيرة العربية وفي إيران وقد امتدت تعاليمهم إلى تركستان والهند والصين. وهذه هي الكنيسة التي صارت تُعرف بكنيسة الشرق وقد نقلت معها اللغة السريانية التي كانت تُمارس طقوسها الدينية بها. ثانياً كنيسة أنطاكية للروم الأرثوذكس، وهذه تتبع الكنيسة الرسمية لأمبراطورية الروم، وكانت تُمارس طقوسها الدينية باللغة اليونانية والسريانية ثم أخذت اللغة العربية تحل محلها منذ القرن التاسع الميلادي حيث صارت تتسم بالطابع العربي خاصة بعد تقسيم الأمبراطورية الرومانية ونزوح اليونان من آسيا الصغرى. وتستعمل اللغة الإنكليزية في الولايات المتحدة الأمريكية. وتشمل سلطة بطريركية أنطاكية للروم الارثوذكس المطارنة التابعين لها في سورية (حمص، حماة، اللاذقية، السويداء) وفي لبنان وبغداد ونيويورك. وقد انتقل مقر البطريركية من أنطاكية إلى دمشق وذلك منذ القرن الرابع عشر للميلاد ولا تزال حتى هذا اليوم فيها. كانت هذه البطريركية مؤيِّدة لتعاليم نسطوريوس القائلة بالطبيعتين في شخص المسيح في الأصل كما سبق شرح ذلك في اجتماع المجمع الذي عُقد في أفيسس سنة ٤٣١ م. وأيَّدت بعد ذلك ما أقرّه المجمع الخلكيدوني في سنة ٤٥١ م والذي يقرّ فكرة الطبيعتين في شخص المسيح لكن من غير انفصال، وهو المبدأ الذي شجبه اليعاقبة وأسَّسوا بطريركية خاصة بهم. ثالثاً، الكنيسة الأرثوذكسية اليعقوبية أو السريان الأرثوذكس وهذه تضم جماعة المنوفيسيتيين الذين لا يقرُّون بغير طبيعة

---

(٣٧) المرجع السابق، ص ٨٥.

(٣٨) إن لفظة الأرثوذكسية مأخوذة من اليونانية بمعنى الرأي أو المذهب الحق أو المستقيم لتمييزها عن الكاثوليكية وهي لفظة يونانية أيضاً بمعنى الديانة العامة العالمية.

واحدة في شخص المسيح، وهم يمارسون طقوسهم الدينية باللغة السريانية نفسها التي يستعملها النساطرة في طقوسهم وقد ظلَّ بطريركهم يلقب بـ «بطريرك أنطاكية وسائر المشرق» وقد انتشر هذا المذهب بين الأقباط والأحباش والأرمن. وأخيراً، أخذت الأيام تمهد للإنقسام الرئيسي بين الشرق والغرب على الصعيدين المذهبي والسياسي نتيجة للاحتكاك بين الكنيسة الغربية في روما والكنيسة الشرقية الواسعة الانتشار بفروعها المتشعبة، وخاصة بعد تقسيم الأمبراطورية الرومانية سنة ٣٦٤ م إلى غربية وشرقية، حتى شهد القرن الحادي عشر (١٠٥٤ م) الانقسام الكبير بين الشرق والغرب إلى انقسام خطير بين الكنيستين، كنيسة كاثوليكية غربية استعملت اللغة اللاتينية لغة رسمية لها، يرأسها البابا في روما ويعتقد أتباعها بعظمته وعظمة كنيسته وكنيسة شرقية أرثوذكسية تفرَّعت منها الانقسامات الرئيسية في الديانة المسيحية.

وبعد احتلال الترك للقسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أصبحت الطوائف ذات المذاهب المختلفة في الكنيسة الشرقية الأورثوذكسية طوائف مستقلة في إدارة شؤونها الدينية باسم «ملة»، فالمسيحيون الأورثوذكس في آسيا الصغرى وفي اليونان وأوروبا الشرقية عدا روسيا أصبحوا هم والنساطرة والمنوفيستيين وغيرهم من الطوائف الدينية رعايا الدولة العثمانية معترف بكيانهم الديني. أمَّا ما يختص بروسيا فقد دخلت المسيحية إليها عن طريق الكنيسة البيزنطية عندما اعتنقها «فلاديمير القديس» سنة ١٠٣٧ م وظلَّت تخضع لبطريركية القسطنطينية حوالى قرنين حيث كان كل الأساقفة والمطارنة من الإغريق ثم غلب بعد ذلك العنصر الروسي (السلاف) في الكنيسة. وبعد أن تبلورت الوحدة الروسية ادَّعى إيفان الثالث (١٤٦٢ ـ ١٥٠٥ م) على أثر استيلاء الترك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م أنه الممثل الشرعي الوحيد للكنيسة الأورثوذكسية في العالم وصارت تسمَّى بطريركية الأورثوذكس الروس باسم بطريركية موسكو وكل روسيا وصارت كنيستها تُعرف بالكنيسة السلافية وقد أُلغيت البطريركية في عهد بيتر الأول في سنة ١٧٢١م ثمَّ أُعيدت ونُصِّب تيخون (١٨٦٥ ـ ١٩٢٥ م) بطريركاً لموسكو وكل روسيا في ٤ كانون الأول ١٩١٧ م. ثم أُلغيت البطريركية في ٥ شباط ١٩١٨ بعد الثورة البلشفية وصُودرت كل ممتلكاتها.

١٤ ـ انقسامات داخلية في الكنيستين النسطورية واليعقوبية:

وما أن حلَّ القرن السادس عشر للميلاد حتى حدث انقسام جديد في داخل

النسطورية، فمنذ سنة ١٥٥١ اعتنقت جماعة من أتباع الكنيسة النسطورية المذهب الكاثوليكي التابع لروما، فصار هؤلاء يتّسمون بالكلدان المتحدين (Chaldean Uniates) وأطلقوا على كنيستهم اسم الكنيسة المتحدة (Uniate Church) أمّا الذين بقوا على النسطورية فقد حافظوا على تسميتهم بالنساطرة. هذا مع العلم أن هؤلاء الكلدان المتحدين مع أنهم ارتبطوا بالولاء إلى روما إلاّ أنهم احتفظوا بلغتهم السريانية وطقوسهم الدينية وأنظمتهم الكنيسية. وقد تأسّست إثر ذلك بطريركية كلدانية فكان مقرّها في دير الربان هرمزد في القوش ثم انتقلت إلى مدينة الموصل. وفي سنة ١٨٤٥ تمَّ اعتراف السلطات العثمانية بطائفة الكلدان كملة مستقلة في شؤونها الدينية.

وقد حدث الانقسام نفسه في كنيسة اليعاقبة حيث تحوَّلت جماعة من اليعاقبة عن مذهبهم إلى المذهب الكاثوليكي التابع لروما فصار هؤلاء يتّسمون بالسريان الكاثوليك أو اليعاقبة المتّحدين في حين أن الذين بقوا على مذهبهم صاروا يُعرفون بالسريان الأرثوذكس أو اليعاقبة وقد تمَّ اعتراف السلطات العثمانية في سنة ١٨٣٩ بالكنيسة السريانية الكاثوليكية بعد انفصالها عن كنيسة اليعاقبة واعتبرت طائفة مستقلة «ملة» أيضاً وكان كرسي بطريرق هذه الكنيسة في ماردين ثم انتقل في أواخر القرن الثامن عشر للميلاد إلى الشام[٣٩] هذا مع العلم أن هؤلاء الكلدان والسريان الكاثوليك مع أنهم ارتبطوا بالولاء إلى البابا في روما إلاّ انهم احتفظوا بلغتهم السريانية في ممارسة الطقوس الدينية والأنظمة الكنيسية.

١٥ ـ الكنيسة المسيحية الشرقية تؤمن الحفاظ على ثلاث لغات قديمة:

ويرجع الفضل إلى الكنيسة المسيحية الشرقية في الحفاظ على ثلاث لغات قديمة، عدا اللاتينية واليونانية، هي السريانية في الشرق والقبطية في مصر والجعيزية في الحبشة.

والسريانية أقدم لغات الكنيسة المسيحية الشرقية، فكلمة سريانية استعملت أول مرة للدلالة على اللهجات الآرامية المختلفة وذلك عندما أطلق لقب السريان على الأقوام الناطقة باللغة الآرامية التي اعتنقت الديانة المسيحية وظلَّ لقب

(٣٩) انظر ما تقدم عن اليعقوبية في الفقرة ١٢ من هذا الفصل.

الآراميين يُطلق على الفئات التي بقيت على الوثنية. وكانت الآرامية لغة المسيح والحواريين وبها كتب بعض العهد القديم وهو يشتمل على كتب عزرا ودانيال وأرميا وقليل من سفر التكوين، وبها كُتب الإنجيل على ما يرجح وإن الكتابات الطقسية الدينية لمختلف الكنائس الشرقية دوِّنت بلهجات مشتقة من الآرامية وبأقلام مأخوذة من الأبجدية الآرامية[٤٠]. أمَّا اللغة الآرامية الكلاسيكية فقد اقتصرت على لغة طقسية لخمس طوائف شرقية.

وقد تكاملت اللغة الآرامية القديمة في شمالي سورية في الفترة بين القرنين الحادي عشر والثامن قبل الميلاد، وهي الفترة التي ازدهرت فيها الدول الآرامية منتهزة فترة ضعف الأمبراطورية الآشورية لمواصلة نموها وانتشارها. إلاَّ أن هذا الازدهار السياسي الذي تمتعت به الدول الآرامية في هذه الفترة لم يدم طويلاً إذ سرعان ما استعاد الآشوريون قوتهم وراحوا يهدمون معاقل الآراميين الواحد بعد الآخر ولم ينته القرن الثامن قبل الميلاد حتى قُضي على استقلال الدويلات الآرامية. ولكن التدهور السياسي لم يقض على الثقافة الآرامية بل على عكس ما كان يُتوقع فقد أخذ المستعمرون أنفسهم باللغة الآرامية التي أخذت تنتشر انتشاراً سريعاً حتى تبنتها أقوام كثيرة وصارت تحتل المكانة الأولى بين سائر اللغات في العلاقات الدولية، وذلك لسهولة أبجديتها. واستمرت الآرامية تزدهر في العهد البابلي الحديث (٦١٦ ـ ٥٣٩ ق.م.). وعلى أثر الغزو الفارسي على بلاد الشرق (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م.) انتشرت اللغة الآرامية بصورة واسعة فامتدت من فارس إلى البحر المتوسط حتى أصبحت اللغة الرسمية في كثير من البلدان بين الفرات والحدود المصرية، ثم امتدت شطر نواحي آسيا الصغرى وشمالي الجزيرة العربية حتى احتلت في أوج ازدهارها وانتشارها معظم أجزاء الشرق الأوسط بل تعدته إلى المشرق الأقصى وبلغت بلاد الهند والصين. ولما كانت العبرية مشتقة من الآرامية فقد تغلبت الأخيرة على العبرية وحلَّت محلها في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد.

والدليل على انتشار اللغة الآرامية في جميع الشرق الأدنى أن تسمية «آراميين» صارت تشمل جميع القبائل الساكنة قديماً في البلاد الفسيحة الواسعة والمحدودة ببلاد الفرس شرقاً والبحر المتوسط غرباً وبلاد الأرمن وبلاد اليونان في آسيا الصغرى شمالاً وحدود جزيرة العرب جنوباً والتي كانت تعرف قاطبة

---

(٤٠) Diringer, «The Alphabet», p. 235.

ببني آرام والآراميين مع أن بعض هذه القبائل كانت تُسمَّى بأسماء خصوصية كتسمية أهل بابل وما يجاورها من قبائل الكلدانيين وسكان مملكة آشور بالآشوريين وتسمية أهل الشام بالآدوميين، ولكن تسمية الآراميين كانت تشملهم جميعاً، وكانت كل هذه البلاد تتكلم بالآرامية، مثلما أن تسمية طي مثلاً وقريش وحمير وكنانة لا تخرج هذه القبائل من كونهم عرباً(٤١).

وقد ظهرت مجموعتان كبريان من اللهجات الآرامية انبثقتا من اللغة الآرامية القديمة، المجموعة الغربية وكانت تشمل فروعاً عديدة هي النبطية والتدمرية والآرامية اليهودية الفلسطينية التي كتب بها تلمود أورشليم والسامرية والآرامية المسيحية، والمجموعة الشرقية وهي تشمل اللغة السريانية الرهاوية وهي المعروفة بالكلدانية ولغة التلمود البابلي واللهجة المانديةولهجة الحضر، وقد انقرضت هذه اللهجات في حين كتب للغة الرهاوية البقاء.

وتُعرف اليوم اللهجة الآرامية الغربية الحديثة بـ «السورت» وما يزال بعض المسيحيين في القرى الواقعة شمال شرقي دمشق يتكلمون بها وقد خالطتها اللغة العامية الدارجة فتأثّرت إلى حد بعيد في ألفاظها باللغات التي سادت تلك المنطقة ولم تزل هذه الآرامية مستعملة في أربع قرى واقعة في الشمال الشرقي من دمشق وهي: «معلولا» و«نجعة» و«جب عبدين» و«صيدنايا» ومع أن هذه اللهجة وليدة الاحتكاك بين اللهجتين الغربية والشرقية فإنَّها تعتبر من اللهجات الشرقية إلاَّ أنها تُعد بقية حية للآرامية. وإلى وقت قريب كان اليهود القاطنون في شمالي العراق يتكلمون بالآرامية(٤٢).

أمَّا اللغة القبطية فهي إحدى اللغات الحامية كانت في سالف الأعصار لساناً يتداوله جمهور الشعب المصري، فكانت اللغة المصرية القديمة لسكان منف وثيبة وبقية أنحاء مصر. لذلك فهي مشتقة من اللغة المصرية القديمة واسم القبط كلمة مصرية يُراد بها المصري، ثم طرأ على هذه اللغة تطورات لغوية فخلفتها اللغة القبطية كفرع نما من دوحتها. وظلَّت هذه اللغة القبطية متداولة بين جمهور الشعب حتى شاعت في مصر اللغة اليونانية وقتاً طويلاً فأصبحت هي لغة الطقوس الدينية المسيحية، ثم عقبتها القبطية حتى جاءت الفتوحات العربية

---

(٤١) القس يعقوب اوجين حنا الكلداني، «دليل الراغبين في لغة الآراميين» الموصل، ١٩٠٠، ص ٧.

(٤٢) انظر ما تقدم في الفقرة ٩ من هذا الفصل والفقرة ١١ من الفصل الأول.

الإسلامية، فقامت اللغة العربية مقام اللغة القبطية في أكثر الصلوات التي نُقلت إلى العربية ليتمكن السامعون من فهم معانيها إلاَّ بعض القطع الدينية بقيت في اللغة القبطية الأصلية ينشدها الكهنة ولا يدرك معانيها إلاَّ قليلون، كما أن هناك بعض التراتيل لا تزال ترنم باللغة اليونانية. وتعتبر آثار الآداب القبطية في الكنائس القبطية العربية آداباً دينية أكثرها مترجم من اليونانية(٤٣).

وأمّا لغة الجعيز فهي أقدم لغة سامية انتقلت إلى الحبشة إثر زحف القبائل العربية من جنوبي شبه جزيرة العرب إلى الحبشة على مدى أجيال متباعدة في موجات متعاقبة ومعها دخلت لغاتها ولهجاتها كان أقدمها شيوعاً لغة الجعيز (اللغة الأم). وتسمية الجعيز موروثة من قبيلة يمانية يُدعى أفرادها «الأجاعز»، ولا يزال أثر الخط السبئي والحميري القديم المعروف بالخط المسند ظاهراً في كتابة لغة الجعيز، وهو من أقدم الآثار التي خلفتها حضارة الجنوب العربي في المجتمع الحامي في الحبشة. ثم اندثرت هذه اللغة تدريجياً بسبب تغلب اللهجات الكوشية المحلية عليها فانحصر نطاق استعمالها بفضل حروفها الأبجدية في كتابة الأدب والوثائق والطقوس الدينية فقط، وحتى يومنا هذا تُجرى الطقوس الدينية في الكنيسة الحبشية بلغة الجعيز كما وتُكتب بها الطقوس الدينية ليهود الحبشة (الفلاشا)، فللكنيسة الحبشية المسيحية وليهود الفلاشا إذن يعود الفضل في بقاء هذه اللغة على قيد الحياة(٤٤).

ويرى الباحثون أنه لولا الحضارة السامية التي نقلها وجاء بها المهاجرون عبر البحر الأحمر وغرسوا بذورها في المجتمع الحامي البدائي وأهمها اللغات المكتوبة التي ساعدت في تدوين منجزات الإنسان، لظلّت أثيوبيا كبقية الأقطار في افريقية تنطق بلغات عديدة ولكنها غير قابلة للتدوين وعلى هذا كان لإدخال هذه اللغة المكتوبة بالحروف الأبجدية أعمق الأثر في نشوء ورسوخ حضارة جديدة في هذه الربوع.

وتشير التقاليد الدينية إلى أن الكتب المسيحية الدينية تُرجمت إلى لغة الجعيز في حوالى نهاية القرن الخامس للميلاد على يد تسعة رهبان جاؤوا من

---

(٤٣) انظر مقال الأب الكسيس مالون اليسوعي في «أصل اللغة القبطية وتاريخها» المنشور في مجلة المشرق (١٩٠٠)، ص ٨٩١ ـ ٨٩٩. وانظر أيضاً: Ency, Brit., 1965, 6: 477-479, «Coptic Language, Coptic Church».

(٤٤) ممتاز العارف «الأحباش بين مأرب وأكسوم» بيروت ١٩٧٥، ص ٩ ـ ١٥.

سورية وعلى إثر ذلك نشأت الكنيسة المسيحية الحبشية على أُسس التعاليم المنوفيسيتية المرتبطة مع الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية في الاسكندرية وبعد الفتوح الإسلامية انقطعت صلات الكنيسة الحبشية عن العالم المسيحي ما عدا الكنيسة القبطية بمصر.

١٦ ـ التبشير بين النساطرة:

لقد بدأ التبشير بالكاثوليكية في المشرق منذ أيام الحرب الصليبية فكان نتيجة لنشاط البابوية المبذول في هذا السبيل أن نجحت أيام سبر يسوع الرابع ابن المسيحي صاحب كرسي المداين وهو بغدادي وطناً (١٢٢٦ ـ ١٢٥٦ م) بتوحيد كرسيه مع الكنيسة الكاثوليكية برياسة البابا في روما(٤٥).

«وقد شهد القرنان السادس عشر والثامن عشر صراعاً مريراً بين النساطرة والكاثوليك الذين كانوا يريدون إخضاع جميع النساطرة للعرش البابوي، وقد قام المبشرون الكاثوليك بشتى الوسائل لتحقيق غاياتهم فكانوا يشترون ذمم البيكات الأتراك والشيوخ الأكراد لكي يقوم هؤلاء بتحطيم ومحو الآثار النسطورية من معابد وكنائس في مناطقهم، وكان همهم ينصب على تحطيم الصلات التي تربط بين التاريخ القديم والحديث للنساطرة راغبين جعل بداية تاريخهم مرتبطاً بتاريخ انضمامهم تحت لواء البابوية... وقد اهتم هؤلاء المبشرون كثيراً بحرق وإتلاف الكتب والمخطوطات التي تخص تاريخ النساطرة ودينهم القديمين. وحسب ما يقول نساطرة الموصل فإنَّ مكتبة هذه المدينة التي تحتوي على آلاف الكتب القيّمة قد رُميت في النهر بأمر المبشرين الكاثوليك وقد ساعدهم في ذلك الشيوخ الأكراد والولاة الأتراك... وقد انتهت مساعي كنيسة روما في النهاية بالنجاح، وقد استطاعت أن تُخضع لسيطرتها جميع النساطرة في وديان شمالي العراق في عام ١٧٧٨ م وأصبح اسم هؤلاء النساطرة الكلدان ولُقِّب بطريركهم بلقب بطريرك بابل»(٤٦).

وتدل الأخبار أن بطاركة النساطرة لم يستطيعوا السكنى في بغداد والموصل بعد سنة ١٥٥٥ فقصدوا مدينة سعرت وقطنوا فيها خوفاً من بطش أعدائهم ومنها

---

(٤٥) الدكتور جعفر حسن خصباك، «العراق في عهد المغول الإيلخانيين»، بغداد، ١٩٦٨ ص ١٨٦.

(٤٦) ماتفيف ومار يوحنا، المرجع المار الذكر، ص ١٧ ـ ٢٠.

انتقلت البطريركية النسطورية إلى قوجانس في منطقة حيكاري حيث كان يقيم النساطرة في جبال حيكاري.

وهكذا فقد ازداد عدد الطائفة الكلدانية الكاثوليكية في المشرق واتسع نفوذ كنيستها حتى أصبح مجموع أفرادها في محافظات الموصل وبغداد والبصرة يشتمل على ١٨ قرية مجموع سكانها ٦٨٥٠٠ نسمة لهم كنائس وديارات كثيرة منتشرة في المدن العراقية، ومن أهم كنائسهم في العراق كنيسة الكلدان في بغداد وكنيسة الكلدان في الموصل وكنيسة تلكيف ودياراتهم لا يزال أكثرها عامراً بالرهبان وزاهراً بالمدارس الدينية، ومن أشهر ديارات الكلدان التاريخية دير مار ميخائيل في الموصل ودير الربان هرمزد في لحف جبل القوش ودير مار ورها (بطنايا). ومن الأديرة الحديثة دير السيدة في القوش يقع على هضبة تبعد عن القوش بمسافة ميل واحد[٤٧].

وقد أثار نشاط الكنيسة الكاثوليكية انتباه الدول الكبرى إلى النساطرة المسيحيين الصامدين في الجبال وقد ظلّوا محافظين على تقاليدهم وطقوس مذهبهم النسطوري ولغتهم السريانية. فأخذت هذه الدول تتزاحم ما بينها كل منها يسعى لجر النساطرة إلى جانبه وفرض حمايته عليهم عن طريق إرسالياتهم التبشيرية بغية استغلالهم سياسياً والتمهيد للتدخل في شؤون الدولة العثمانية المائلة للاحتضار وكسب النفوذ فيها بحجة حماية الأقلية المسيحية. فكان صراع عنيف بين الإرساليات المختلفة المذاهب التي تدعمها دولهم سياسياً على حساب النساطرة الذين باتوا حائرين بأمرهم إزاء الأطماع الاستعمارية والترغيبات المنهالة عليهم من كل جانب حتى صاروا مقتنعين بالاستناد على حماية أجنبية. كل ذلك أثار الشكوك في نفوس العثمانيين حكّام البلاد وفي نفوس الأكراد المحيطين بهم فأصبح النساطرة موضع ريبة ينظر إليهم كما ينظر إلى الخونة. وفيما يلي عرض موجز للأعمال التي قامت بها الإرساليات التبشيرية مع تقديم صورة لبعض الجوانب من الصراع بين هذه الإرساليات وبين الدول التي كانت تسندها لتحقيق أطماعها السياسية الاستعمارية.

١٧ ـ الروس والنساطرة:

يرجع تاريخ العلاقات الروسية النسطورية إلى أوائل القرن التاسع عشر حين

---

(٤٧) «الدليل العراقي لسنة ١٩٦٠»، ص ٤٢٩ ـ ٤٣٠.

نشبت الحرب الروسية الإيرانية (١٨٢٦ ـ ١٨٢٨ م) فقدَّم النساطرة أثناء هذه الحرب مساعدة كبيرة للجيوش الروسية كمرافقين وأدلاء. ثم توثقت الصلات بين النساطرة والحكومة الروسية القيصرية إثر ذلك فسمحت الأخيرة لمائة مجموعة من العوائل النسطورية من أورمية أن ينزحوا إلى جبال ما وراء القفقاس حيث تمَّ إسكان هؤلاء النساطرة في المنطقة القريبة من (يريڤان) ثم انتقلوا بعد ذلك إلى المناطق المجاورة عام ١٨٢٩. وظلّت علاقتهم متينة وقوية مع نساطرة إيران. وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر توجه الأسقف النسطوري (شيلمون آراجان) من إيران إلى روسية حيث زار حاكم القفقاس (فورتنسوف) وطلب إليه الموافقة على انتقال النساطرة في إيران إلى منطقته، إلاَّ أن الحاكم المذكور رفض هذا الطلب وكتب إلى وزير الخارجية الروسي نيسلرود رسالة قال فيها: «إنَّنا لا نستطيع السماح للنساطرة بالانتقال إلى القفقاس ولكننا يجب أن نبقى على علاقات طيّبة معهم كما ينبغي فرض حمايتنا عليهم أمام الحكومة الإيرانية من أجل كسب ثقتهم وولائهم سيكونون ذوي فائدة كبيرة لنا في المستقبل»[٤٨].

وقد عرض بطريرك النساطرة على الحكومة القيصرية مساعدة عسكرية في أثناء حرب القرم (١٨٥٣ ـ ١٨٥٦م) وطلب إليها المفاوضة بشأن انضمام الكنيسة النسطورية إلى الكنيسة السلافية الروسية. وفي عام ١٨٩٨ م ذهب القس (ماريونان) إلى بطرسبورغ ممثلاً عن بطريرك النساطرة فاستقبل بحفاوة هناك ووقع اتفاقاً يقضي بانضمام ثلاثين ألف نسطوري إلى الكنيسة السلافية الروسية. وعلى إثر ذلك وصلت أورمية في تموز ١٨٩٨ بعثة كنسية روسية فاستقبلت البعثة بحفاوة من قِبَل نساطرة إيران وحازت نجاحاً في إنجاز مهمتها مما حمل الكنيسة السلافية الروسية على تأسيس مقر دائم لها في أورمية، فأثار ذلك شكوك الدول الغربية إذ اعتبرت هذه الخطوة مقدمة لبسط النفوذ الروسي على إيران.

وفي مطلع القرن العشرين بعد الانقلاب الذي أطاح بحكم السلطان عبد الحميد طلب المار شمعون بنيامين بطريرك النساطرة من السلطات الروسية في إيران فرض حماية روسية للنساطرة وتدخلها من أجلهم، إلاَّ أن روسيا خشيت أن يثير ذلك احتجاج الدول الغربية، لذلك لم يُقابَل طلب البطريرك بالإيجاب. ولكن في الوقت نفسه نشطت البعثة التبشيرية الروسية في بث دعايتها بين النساطرة فانضم بين سنة ١٩١١ و١٩١٤ عدد كبير من النساطرة في كردستان

(٤٨) ماتفييف ومار يوحنا، المرجع المار الذكر، ص ٢٣.

إيران وتركية إلى الكنيسة الروسية. ففي تقرير بعث به رئيس البعثة الأسقف سيرجي عن أعمال البعثة عام ١٩١٢ قال: «إن التبشير بالمذهب السلافي يجب أن يسير متوازناً مع دعم النفوذ الروسي في كردستان وإلاّ فلا يمكن كسب المسيحيين إلى كنيستنا»(٤٩).

١٨ ـ البعثات الإنكليزية والنساطرة:

لقد سبقت الإشارة إلى أن الإنكليز كانوا أوّل مَن ابتدع الفكرة القائلة بأنّ النساطرة هم أحفاد الآشوريين فأطلقوا عليهم تسمية (آثوريين) بمعنى آشوريين تمهيداً لتشكيل دولة آثورية ذات حكم ذاتي في منطقة آشور القديمة بلد أجدادهم على حد قولهم. فقد كان أول مَن قال بهذه الفكرة المنقب البريطاني لايارد فذكر في كتابه «نينوى وبقاياها» الذي نشره عام ١٨٤٨ ـ ١٨٤٩. «إن النساطرة وبقايا نينوى صنوان إنهم الصفوة الآشورية التي تمتاز بالكيف وليس بالكم وطالب إنقاذهم من الانقراض على يد الأكراد»، وفي السنة نفسها قالت «مجلة الشهر الجديد (The New Monthly Magazine) اللندنية في عددها رقم ٨٧ ـ ١٨٤٩ ـ ٣٤٤ إنه يجب عمل شيء لإنقاذ صفوة طائفة مسيحية لها ماضيها القيّم المجيد، إن هي إلاّ حفيدة الآشوريين العظام(٥٠).

وقد تدخلت بريطانيا لدى الباب العالي بحجة أن مصلحته تقضي بمساعدة البطريرك خشية أن يضع نفسه وشعبه تحت حماية فرنسا وذلك تحت ستار الكاثوليكية. فكتب وزير الخارجية ايرل كلارندون عام ١٨٥٧ للسفير البريطاني السير سترادفورد كانينغ: «إن حكومة صاحبة الجلالة تود أن تعلم بسرور بالغ مدى نجاح الجهود التي يمكن أن تبذلوها لمصلحة الطائفة المضطهدة وبالتالي ما هي أمانيها». وعلى إثر ذلك أرسل بطريرك النساطرة مباشرة عريضة للملكة فكتوريا اطلع عليها مجلس اللوردات ومجلس العموم فقُوبلت باهتمام بالغ في الأوساط الحكومية البريطانية، فكتب اللورد راسل رسالة إلى ممثل بريطانيا لدى الباب العالي قال فيها: «بلّغ علي باشا أن سعادة النساطرة وخيرهم أمر يهم جداً حكومة صاحبة الجلالة وعليك أن توعز له بوجوب اتخاذ تدابير فورية لرفع الظلم عنهم». وعلى الأثر قام قنصل بريطانيا في ديار بكر بزيارة مناطق النساطرة ليتفقد

(٤٩) المرجع السابق، ص ٢٣ ـ ٢٧.

(٥٠) ايشو مالك خليل جوارو، ترجمة سليم واكيم، ص ١٥٣.

أحوالهم ويتأكّد من مضمون ما جاء في العريضة التي بعثوا بها إلى ملكة بريطانيا[٥١].

وبناء على طلب قدّمه بطريرك النساطرة إلى رئيس أساقفة كنتربري عام ١٨٤٣ حول تقديم مساعدة للشعب النسطوري المسيحي أرسل رئيس الأساقفة عام ١٨٦٦ م بعثة تمهيدية تمثل الكنيسة الأنكليكانية لدراسة الوضع فقابلت البعثة البطريرك في مقره في منطقة جوله مرك كما قابلت المطران وثمانية من الأساقفة في تركيا وثلاثة في إيران. وقد وجدت البعثة أن الشعب جاهل جهلاً مطبقاً وحتى الأساقفة لا يحسنون القراءة والكتابة، فهم أعرف بأقسام البندقية من معرفتهم بفلسفة الدين، فيسود مجتمعهم خرافات وطقوس عديمة المعنى، وجملة أن حياتهم الروحية على أدنى مستوى من الانحطاط. ومع ذلك فهم يتفانون من أجل معتقدهم الديني. وبعد مرور بعض الوقت على عودة هذه البعثة أرسل رئيس أساقفة كنتبري في عام ١٨٨٦ بعثة دائمة برئاسة كوتس (Cutts) إلى النساطرة في جبالهم واستقرت في حيكاري. ففي كتاب وجهه رئيس أساقفة كنتبري إلى بطريرك النساطرة قال فيه: «إن الهدف من آرسال البعثة هو تدعيم الكنيسة القديمة والاستنارة بها.. ولم تستهدف تحويل أي فرد من القطيع النسطوري من كنيسته إلى بدع جديدة وغريبة عنه»[٥٢] وقد عيّن رئيس أساقفة كنتبري المبشر البريطاني الدكتور ويليام براون (Dr. W. Brown) مستشاراً مرافقاً للبطريرك في مقره في قوجانس، وقد ظلّ الدكتور براون هذا ملازماً للبطريرك خمساً وعشرين سنة وصَحِب بطريركين متعاقبين حتى توفي سنة ١٩١٠[٥٣]. وقد كتبت المس بيل في تقريرها الذي رفعته إلى الحكومة البريطانية سنة ١٩٢٠ عن العراق في العهد البريطاني تقول: «وكانت سياستنا قبل الحرب تُبدي ميلاً لحماية الكنيسة النسطورية فأرسلنا بعثة تُدعى بعثة رئيس أساقفة كنتربري للنسطوريين ومن جهة أخرى كان وجود بعثة دومينيكية مع مدرستها ومستشفاها في الموصل يشجع في الميل في الاتجاه إلى فرنسا»[٥٤]. واستمر الانكليز يواصلون ارتباطاتهم الودية مع النساطرة، وفي سنة ١٩١٨ وعدوهم بتأسيس دولة مستقلة لهم بشرط استمرارهم

---

(٥١) المرجع السابق ص ١٥٣ ـ ١٥٤.

(٥٢) Stafford, op. cit., pp. 23-24.

(٥٣) ويكرام، «مهد البشرية» الترجمة العربية ص ٢٤٦.

(٥٤) «فصول من تاريخ العراق القريب بين سنتي ١٩١٤ و١٩٢٠»، ترجمة جعفر خياط بيروت ١٩٤٩، ص ٧٣ ـ ٧٤.

في الحرب ضد تركيا وخصَّصوا راتباً شهرياً مقداره ٧٥ ألف جنيه إسترليني إلى البطريرك مقابل ولاء النساطرة للانكليز(٥٤أ).

١٩ ـ البعثات الأمريكية والنساطرة:

وفي عام ١٨٢٩ أرسل مكتب البعثات الأجنبية الأمريكي مبعوثين إلى مناطق سكن النساطرة وهما (سميث) و(داويت) اللذان وصلا تركيا في ١٨٣٠. وكانت هذه البعثة استطلاعية تهدف إلى التعرُّف على حياة المجتمع النسطوري عن كثب بغية النظر في إمكانية إقامة بعثات امريكية دائمة في مناطقهم. فأرسل المكتب إثر ذلك بعثة برئاسة (بيركنس) إلى منطقة أورمية في إيران في ١٨٣٢، وأسّست فيها مدرسة داخلية للأولاد في عام ١٨٣٨، ثم أعقبتها بمدرسة أخرى للبنات. وقد جلبت البعثة مطبعة خاصة لها وهي أول مطبعة بحروف سريانية. فقام بيركنس بدراسة اللغة السريانية وبخاصة اللهجة التي يتكلم بها النساطرة، فترجم العهد الجديد إلى هذه اللهجة في عام ١٨٤٦ وبعد مضي عشر سنوات أنجز ترجمة العهد القديم. وكتب المستر استودارد لأول مرة قواعد اللغة السريانية (بالإنجليزية). ومنذ سنة ١٨٣٧ وحتى سنة ١٨٧٣ صدر في إيران ١١٠ آلاف مطبوع دعائي بلهجة النساطرة، كما أصدر المبشرون مجلة باسم (زازيري دبارا) أي أشعة النور تبحث في شؤون النساطرة الدينية والاجتماعية وقد أدخل الأمريكان في مناهج تعليمهم عدا الدين الجغرافيا والتاريخ العام والأدب واللغات الإنكليزية والسريانية والفارسية والتركية(٥٥) وقد زاحمهم بعد ذلك الفرنسيون إثر وصول الآباء اللعازاريين إلى أذربيجان في سنة ١٨٤٠ حيث فتحوا إرساليات في خسراوا وأورمية وأنشؤوا مدارس فيهما.

٢٠ ـ النساطرة بعد دخول البعثات الأجنبية إلى مناطقهم:

وقد كان لهذه البعثات الأجنبية وما خلفتها من منافسات وخلافات ما بينها وما بين الدول التي تدعمها أثر بالغ في تدهور الوضع العام في مناطق سكن النساطرة مما أدَّى إلى توتر العلاقات بين الأكراد والنساطرة الذين كانوا يعيشون حتى ذلك الحين في وئام ووفاق جنباً إلى جنب، إذ كان المبشرون يحرضون

(٥٤أ) ماتفييف ومار يوحنا، مصدر سابق، ص ٦٥ ـ ٧٥.

(٥٥) ماتفييف ومار يوحنا، مصدر سابق، ص ١٨.

الأكراد ضد النساطرة بإتلاف كتبهم ومخطوطاتهم السريانية القديمة لحملهم على نبذ طقوسهم النسطورية. كما أدّى الوضع إلى توتر العلاقات بين الولاة الأتراك والنساطرة إذ كان تواجد هذه البعثات الأجنبية سبباً في إثارة شكوك الأتراك الذين كانوا يخشون تدخل الدول الأجنبية في شؤون تركيا الداخلية بحجة حماية الأقليات المسيحية خاصة بعد أن أخذ النساطرة يتصلون بالدول الأجنبية مباشرة وطلب الحماية منهم.

ومن الأسباب التي كانت تبث بذور الشقاق بين الأكراد والنساطرة أن المبشرين كانوا يتحدون شعور الأكراد بفرض نفوذهم في المنطقة. ففي عام ١٨٤١ أنشأ المبشر الأمريكي الدكتور غرانت مدرسة كبيرة في مكان ظاهر من مدينة أشيتا النسطورية مما أثار قلق الأكراد من دخول الأجانب إلى منطقتهم التي كانت تعتبر ملكاً لهم لا يستطيع دخولها حتى الأتراك. فكان نتيجة لذلك أن هجم الشيوخ الأكراد على مقر البطريرك النسطوري وأحرقوه. ثم أعقب ذلك حادثة مفتعلة بين الأكراد والنساطرة كان النساطرة والأكراد ضحيتها وذلك على الرغم من العلاقات الحسنة التي كانت سائدة بين الطرفين حتى ذلك الحين. وهذه المصادمات وقعت بين الأكراد بزعامة بدرخان وبين النساطرة وقد دامت أربع سنوات (١٨٤٣ ـ ١٨٤٧ م)[٥٦].

٢١ ـ الصراع بين البعثات الأجنبية:

ولم يقتصر الصراع بين النساطرة من جهة وبين الأكراد والأتراك من الجهة الأخرى بل شمل صراعاً بين البعثات التبشيرية المختلفة المذاهب، وكان يجري كل ذلك على حساب النساطرة. فقد زار المبشر الإنكليزي بدجر (Badger) بطريرك النساطرة سنة ١٨٤٠ م فشرح له بأنَّ المبشرين الأمريكيين يفسّرون آيات الكتاب المقدّس كما يحلو لهم ويذهبون إلى اختراع المبادئ الجديدة وهم أعداء للكنيسة انشقوا عنها وشوهوا التعاليم المسيحية وقد حث البطريرك على الاعتماد على الكنيسة الإنكليكانية لكي تزوده بإرشاداتها ومساعداتها الروحية والثقافية. وكان بدجر هذا يؤكِّد حسن نية الكنيسة الإنكليكانية تجاه مسيحيي المشرق ورغبتها الأكيدة بأن تستعيد كنائس الشرق عزتها وكرامتها كفروع من الكرمة الصحيحة فأفاد قائلاً: «لقد نصحت البطريرك بألاّ يتعاون مع الأمريكيين وأفهمته

---

(٥٦) ماتفيف ص ٢١.

عن الهوة السحيقة الكامنة بين معتقدنا ومعتقدهم» فارتاح البطريرك إلى حديث بدجر الذي بحث معه إمكانية القيام بعمل ذي مغزى سياسي.

وفي تقرير بعث به بدجر إلى جمعية انتشار الإنجيل قال: «إن نور الله بك أمير حيكاري سلب النساطرة استقلالهم ولولا المساعدة المؤقتة التي يجري تقديمها إلى هؤلاء لأخضعهم الأكراد لشريعتهم التي هي شريعة الغاب» (كذا).

وقد حاول نور الله بك أمير حيكاري المصالحة والتعاون مع النساطرة فكتب إلى البطريرك أن يعيّن مكاناً يلتقيان فيه لفض الخلافات بينهما إلاّ أن البطريرك اعتذر عن تلبية الطلب. ففسر الأمريكيون ذلك بأن بدجر اقترح على البطريرك بألاّ يُقابل نورالله وأن يسأل مساعدة بريطانيا، وقيل أيضاً أن بدجر اقترح على البطريرك بأن يلجأ إلى الباب العالي المسنود من دولة نصرانية للقضاء على الأكراد المتمردين[٥٧].

هذا وبمقابل ذلك كان المبشرون الأمريكيون يحذرون البطريرك من التورط مع المرسلين الآخرين والتعاون مع كنائسهم.

٢٢ ـ الصراع السياسي بين الدول:

ومن أسباب توتر الوضع أيضاً الصراع السياسي بين الدول فقد سبقت الاشارة إلى أن النساطرة كانوا بوساطة بطريركهم يتصلون بالدول الأجنبية مباشرة يطلبون حمايتهم ففي ٢٧ أيار ١٨٦٨ بعث البطريرك رسالة إلى قيصر روسيا يطلب فيها منه التدخل لحمايتهم من اعتداءات الأكراد. ولما بلغ الخبر القنصلية البريطانية أسرعت في تحذير وزارة الخارجية بأن التجاء النساطرة إلى الروس يشكِّل سابقة خطرة «لأن الروس لن يتورعوا في استغلال هذه المسألة الطائفية خدمة لمصالحهم في المنطقة. وبالتالي، في حال وقوع أي تباعد أو خصام بين تركيا وروسيا أو بين تركيا وفارس، فإنَّه لا يمكن تجاهل قيمة مضايقة هذه العناصر المناوئة للحكومات المركزية بما فيها القبائل الكردية، ذلك نظراً لكونها تتمركز في مناطق جبلية متاخمة للحدود الروسية الفارسية

---

(٥٧) «الآشوريون في التاريخ» جمع ايشو مالك خليل جوارو، ترجمة وإشراف سليم واكيم، بيروت ١٩٦٢، ص ١٦٢ ـ ١٦٣.

ناهيكم عن عددها وروحها العسكرية عند الاقتضاء».

وأفاد تقرير صادر عن القنصلية أيضاً بأنَّ جبل النساطرة باستطاعته أن يجنّد ١٣ ألف رجل عند الحاجة قد يكونون أكبر معين لأي فرقة روسية تحاول القيام بأي عملية حربية من جهة (وان) لاحتلال موش أو ديار بكر، هذا إذا أحرزت روسيا على عطف هؤلاء».

وفي ٣٠ نيسان ١٨٧٧ كتب لايارد إلى يرل درباي سكرتير الخارجية البريطانية يلفت نظره «إلى خطورة الموقف إذ أن على بريطانيا أن تقدّر تأثير ضم أرمينيا إلى روسيا على مستعمراتها في الهند بحيث أن روسيا ستستولي عندئذ على منطقة آسيا الصغرى برمتها بما فيها وادي الفرات ودجلة».

وقبيل احتلال روسيا جزءاً كبيراً من شرقي تركيا (١٨٧٧ ـ ١٨٧٩ م) صرَّح قيصر روسيا «أن ليس لروسيا مخططات استعمارية لا بالنسبة للهند ولا بالنسبة للقسطنطينية وإنه لمن مصلحة الطرفين أن يسود السلم ويطرأ تحسين في وضع النصارى في الامبراطورية العثمانية، أمَّا روسيا فإنَّها تفضّل العمل على الصعيد الأوروبي، ولكن في حال بقاء أوروبا مكتوفة اليدين فستضطر بلاده إذ ذاك إلى التدخل».

وفي أعقاب مؤتمر برلين الذي نجم عنه توقيع معاهدة جديدة بين روسيا وتركيا نصت على وجوب قيام تركيا بإصلاحات في أراضيها الآسيوية بما فيها أرمينيا وقررت بريطانيا هي الأخرى أن تسهم في تنفيذ الإصلاح بواسطتها فعقدت معاهدة دفاعية مع تركيا على أساس أن تحمي بريطانيا النصارى في الأمبراطورية العثمانية وأن تساعد تركيا ضد أي هجوم روسي على أراضيها مقابل أن تعطيها تركيا جزيرة قبرص ليرابط جيشها فيها وتكون دوماً على أهبة الاستعداد لنجدة تركيا فيما إذا تعرّضت هذه الأخيرة لأي هجوم روسي».

ولما أبلغت بريطانيا فرنسا عن مضمون معاهدة قبرص وغاياتها، قالت «بأنَّ حكومة صاحبة الجلالة لا يمكنها أن تترك آسيا الغربية لقمة سائغة في متناول روسيا أنى شاءت لأنَّ انتصار روسيا في الاستيلاء على قلعة الكارس تمكنها من احتلال كل المنطقة الواقعة بين البحر وتخوم فارس. إن رغبة حكومة صاحبة الجلالة ومصلحتها في توطيد الاستقرار في المنطقة وإبقائها على وضعها الحاضر شيء هام جداً بالنسبة لها، لذا اضطرت إلى التحالف مع تركيا وهي عازمة على الأخذ بالتزامات المعاهدة، هذا إذا ما أقدمت روسيا على تخطّي الأراضي

الواردة فيها[٥٨].

٢٣ ـ النسطورية تصمد في معقلها في جبال حيكاري:

لقد تعرضت الكنيسة النسطورية بمررو الزمن إلى أحداث لغير صالحها أدَّت إلى توقف نموها وازدهارها بل تقلصها واضمحلالها بعد أن بلغت أوسع انتشارها في العالم. فأوَّل صدمة شهدتها النسطورية كانت على يد المغول في اكتساحهم للشرق والفتك به، ثمَّ كان حدث الانقسام في الكنيسة النسطورية في القرن السادس عشر للميلاد صدمة أخرى مما أدَّى إلى تقلص عدد أعضاء الكنيسة النسطورية وإضعاف نفوذها فانضم أكثر النساطرة القاطنين في الموصل وفي القرى الواقعة في السهول المجاورة إلى الكنيسة الكاثوليكية مندفعين بمغريات مشجعة، منها ما كانت تتمتع به الكنيسة الكاثوليكية من إمكانيات مالية ووسائل التعليم والدراسة فضلاً عن الحماية التي كانت تتمتع بها هذه الكنيسة من قبل القنصلية الفرنسية[٥٩].

وهكذا تكوَّنت طائفة جديدة باسم الكلدان المتحدين لهم كنيستهم الخاصة بهم[٦٠]، فنصب البابا اينوسنت الحادي عشر (Innocent) في سنة ١٦٨١ ميلادية عليها بطريركاً هو المار يوسف الأسقف النسطوري لديار بكر الذي كان قد اختلف مع بطريرك النساطرة[٦١]. وبعد حوالى مائة عام انشق المار اليا الأسقف النسطوري في منطقة الموصل على الكنيسة النسطورية وصبأ إلى المذهب الكاثوليكي وانضم إلى طائفة الكلدان المتحدين[٦٢] أما النساطرة في منطقة جبال حيكاري فبقوا صامدين متمسكين بالكنيسة النسطورية وبطقوسها وهم الذين حافظوا عليها وعلى لغتهم السريانية فانفصلوا عن الموصل التي صبأت إلى الكثلكة وأسسوا كرسي بطريركي مستقل وراثي بزعامة البطريرك المار شمعون الثالث عشر (١٦٦٠ ـ ١٧٠٠ م) فاتخذ هذا البطريرك قرية قوجانس في سنجق حيكاري (ولاية وان التركية) مركزاً لبطريركيته بزعامته الدينية والدنيوية[٦٣]. وصار

---

(٥٨) «الآشوريون في التاريخ» جمع ايشو مالك جوارو، ص ١٥٥ ـ ١٥٨.

(٥٩) H.C. Luke «Mosul and its Minorities» London 1925, pp. 26-28.

(٦٠) انظر ما تقدم في الفقرة ١١ من هذا الفصل.

(٦١) Stafford, op. cit., p. 22.

(٦٢) Grant, op. cit., p. 170.

(٦٣) Luke, op. cit., p. 94.

هذا اللقب «المار شمعون» يطلق على كل مَن يتولى البطريركية على النساطرة.

ولم يقتصر التحوُّل عن النسطورية على نساطرة منطقة الموصل والقرى المجاورة من السهول بل شمل أيضاً النساطرة في شمال إيران، ففي سنة ١٨٩٨م انضم عدد من النساطرة في شمال إيران إلى كنيسة الأرثوذكس الروسية على يد المطران ماريونان من سوبورغان وأورمية، وتأسَّس مركز روسي للتبشير بين النساطرة في أورمية. وقد سبق للكنيسة النسطورية في الهند أن ارتبطت مع روما سنة ١٥٩٩ م، ثم انقسمت في سنة ١٦٥٣ م وانضم نصف أتباعها إلى كنيسة اليعاقبة.

وهكذا تمركزت النسطورية بعد أن تقلصت في عدد أفرادها وفي نفوذها في منطقة جبال حيكاري على رأسها المار شمعون الذي أصبح زعيم النساطرة الديني والدنيوي يرعى النسطوريين أينما كانوا.

الفصل الثالث

الوجود الثاني
لليهود في العراق

ترجع المرحلة الثانية لوجود اليهود في تاريخ العراق القديم إلى ما قبل حوالى ٢٥٠٠ سنة (أوائل القرن السادس قبل الميلاد)، وذلك حين جاء بهم الكلدانيون أسرى إلى بابل في جنوبي العراق.

الوجود الثاني لليهود في جنوبي العراق

١ ـ تمهيد.

٢ ـ اليهود في بابل في زمن الكلدانيين (٦١٢ ـ ٥٣٩ ق.م).

٣ ـ النبي حزقيال والنبي دانيال في بابل.

٤ ـ اليهود في بابل في زمن الفرس الأخمينيين (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م.).

٥ ـ النبيان عزرا ونحميا.

٦ ـ اليهود في بابل في زمن الإغريق (٣٣١ ـ ١٣٩ ق.م.).

٧ ـ اليهود في بابل في عهد الفرثيين (١٣٩ق.م ـ ٢٢٦ ب.م.).

٨ ـ اليهود في بابل في عهد الساسانيين (٢٢٦ ـ ٦٣٧ م).

٩ ـ جغرافية أنهر ومدن منطقة بابل في عهد السبي البابلي وما بعده.

١٠ ـ النشاطات الفقهية اليهودية في فلسطين وفي بابل:

أ ـ المجلس الديني الأعلى (سنهدرين).

ب ـ الصادوقيون والفريسيون.

ج ـ الكتبة الفريسيون (سوفريم) والمدراش.

د ـ التلمود.

هـ ـ السامريون والتلمود.

و ـ عصر التنائيم.

ز ـ عصر الأمورائيم في فلسطين وفي العراق.

ح ـ عصر «السبورائيم» و«الغاؤونيم» في بابل.

ط ـ رئاسة الجالوت في أواخر عهدها.

١١ ـ القراؤون والتلمود.

١٢ ـ المدارس الدينية اليهودية في العراق:

أ ـ مدرسة نهر دعة.

ب ـ مدرسة سورا.

ج ـ مدرسة فومبديثة.

د ـ مدرسة الماحوزي.

هـ ـ مدرسة شيلهي.

١٣ ـ يهود العراق في العصر العباسي.

١٤ ـ المسيح المنتظر وفتنة داود ابن الرومي.

١ ـ تمهيد

لقد قدمنا فيما تقدم عرضاً مجملاً للأحداث التي مرَّت في الفترة التي وجد فيها اليهود المسبيون في شمالي العراق لأول مرة، وهي الفترة التي شهدت وقائع خطيرة ترجع حوادثها إلى ما قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة اكتنفها صراع ديني وسياسي عنيف بين اليهودية والمسيحية كُتب للأخيرة أن تنتصر في هذا الصراع وأن تلعب دوراً مهماً في حياة الشرق الاجتماعية والسياسية. ونأتي الآن على الدور الثاني الذي وجد فيه اليهود في العراق، وقد كان هذه المرة على مسرح منطقة جنوبي العراق وقعت حوادثه في منطقة بابل الغنية بمياهها وبخصوبة سهولها الزراعية.

لقد انقرضت الدولة الآشورية وبانقراضها طوى الزمن أخبار دور اليهود المسبيين في شمالي العراق. لقد سقطت نينوى عاصمة دولة الآشوريين سنة ٦١٢ ق.م. وبسقوطها انتهى دور الأمبراطورية الآشورية، فاقتسم الماديون والكلدانيون ممتلكاتها وقد وقعت حصة الكلدانيين في سورية والعراق. وتأسست إثر ذلك الدولة البابلية الكلدانية في بابل التي دام حكمها ٧٣ سنة بين سنة ٦١٢ و٥٣٩ قبل الميلاد. والذي يهمنا من حكم هذه الدولة هو قضاؤها على مملكة يهوذا الهزيلة وسبي يهودها إلى بلاد بابل، وقد أُنجزت هذه العملية على عهد نبوخذنصر الثاني، وهو أعظم ملوك هذه الدولة، حكم البلاد ٤٣ سنة بين سنة

٦٠٥ وسنة ٥٦٢ ق.م وذلك في حملتين الأولى في سنة ٥٩٧ ق.م. والثانية في سنة ٥٨٦ ق.م. فتشير التوراة إلى أن الملك «يهوياقيم» ملك يهوذا (٦٠٨ ـ ٥٩٧ ق.م.) تمرَّد على «نبوخذنصر» على الرغم من تحذير النبي «أرميا» له، وذلك بعد أن أظهر طاعته وخضوعه إلى العاهل الكلداني فشنَّ «نبوخذنصر» سنة ٥٩٧ ق.م. حملة على «يهوياقيم» وحاصر أورشليم إلاَّ أن «يهوياقيم» تُوفي أثناء هذا الحصار فخلفه ابنه «يهوياكين» الذي اضطر إلى الاستسلام فسبى «نبوخذنصر» كل يهود أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس عشرة آلاف صبي وجميع الصناع والأقيان، لم يُبقِ أحداً إلاَّ مساكين شعب الأرض، كما سبي «يهوياكين» وأمّه ونساءه ورجاله من أورشليم إلى بابل. وأخرج «نبوخذنصر» جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب، ثم عيَّن «صدقيا» عم «يهوياكين» الذي أكّد ولاءه للملك الفاتح خلفاً ليهوياكين[1].

كان هذا السبي الأول، ثم تبعه السبي الثاني سنة ٥٨٦ ق.م. وهذا وقع على أثر نقض «صدقيا» لعهد الولاء إلى «نبوخذنصر» إذ دخل في حوالى سنة ٥٨٩ ق.م. في تحالف مع المدن السورية والفلسطينية بتحريض من «حوفرا» ملك مصر (خلف نيخو الثاني) الذي كان يطمح أن يستعيد سيطرة مصر على سورية. وهكذا فقد وضع «صدقيا» مصيره في مصر وحلفائها على رغم محاولة أرميا إبعاده عن هذا الحلف الذي كان موجهاً ضمناً ضد «نبوخذنصر» فغضب «نبوخذنصر» غضباً شديداً وجاء هذه المرة بنفسه على رأس حملة قوية إلى سورية الشمالية وعسكر في «ربلة» على نهر العاصي، وكان ذلك سنة ٥٨٧ ق.م. فأرسل «نبوخذنصر» من حاصر أورشليم، إلاَّ أن دخول «حوفرا» ملك مصر إلى فلسطين اضطر البابليين إلى رفع الحصار لمحاربته فظنَّ اليهود أن النصر بات حليفهم، ولكن النبي ارميا حذّرهم وأبان لهم بأنَّهم يخدعون أنفسهم بهذا النصر لأنه وقتي فوضعوه في السجن[2]، ووقع كما تنبأ أرميا فعلاً، فقد تمكّن البابليون من صد المصريين وإرجاعهم على أعقابهم ثم أعادوا بسط الحصار على أورشليم في الحال، ولم يمضِ وقت طويل حتى تفشت المجاعة وربما الوباء في المدينة مما اضطر اليهود أن يرضخوا ويستسلموا، فدخلت الجيوش البابلية المدينة في اليوم الرابع من شهر تموز سنة ٥٨٦ قبل الميلاد. أما «صدقيا» فهرب هو وأفراد

---

(١) ٢ مل ٢٤: ٩ ـ ١٧.

(٢) أرميا ٣٨: ٢.

عائلته، ولكن البابليين لحقوا به في سهول أريحا حيث قبضوا عليه وحملوه الى «ربله» حيث مقر معسكر الملك نبوخذنصر، وهناك ذبح أولاده أمام عينيه، ثم فقئت عيناه وأُخذ مكبلاً مع الأسرى إلى بابل. أما أورشليم فخربت ودمرت تدميراً كاملاً فأُحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت أورشليم وكل بيوت العظماء وسلبت الخزائن ونقلت إلى بابل، وقد خمن عدد الأسرى الذين سيقوا إلى بابل ليلتحقوا باليهود من السبي الأول بحوالى ٥٠,٠٠٠ نسمة[٣] وهؤلاء كالذين سباهم الآشوريون من قبل إلى بلاد آشور كانوا يتكلمون ما بينهم باللهجة الآرامية الخاصة بهم (الترجوم).

وقد أطلق اليهود على جلاء اليهود وانتشارهم في أنحاء العالم وخاصة عندما أجلوا من فلسطين في عهد الرومان وبخاصة عندما أخرجهم تيتوس سنة ٧٠ م وهدم هيكلهم لفظة (Diaspora) أي التشتيت أو الشتات ويحاول الصهاينة اليوم التمسك بهذا المفهوم للاستدلال به على كون جميع يهود العالم يؤلفون شعباً وحداً وهو من أصل واحد وتشتت في مختلف أنحاء العالم. وهذا لا ينطبق على واقع الحال حيث أن اليهود لا يؤلفون شعباً واحداً ولا قومية واحدة وهم ينتمون إلى قوميات وعناصر مختلفة دخلوا اليهودية عن طريق التهويد خارج فلسطين. وفضلاً عن ذلك أن اليهود لما أُجلوا من فلسطين كانت الأكثرية الساحقة من يهود العالم خارج فلسطين. كما سنوضح ذلك مفصلاً في الفصل الرابع من هذا البحث.

ومن المهم أن نلاحظ هنا أن الكلدانيين خلافاً لما قام به الآشوريون من تشتيت الأسرى وإبعادهم إلى مناطق جبلية نائية منعزلة، جاؤوا بسباياهم من الأسرى اليهود إلى مركز الدولة (بابل) وأسكنوهم في جوار مدنهم وقراهم مما مكّنهم من التجمع في المنفى والاستمرار في ممارسة تقاليدهم وطقوسهم الدينية وتكوين مجتمعهم الخاص بهم. وقد اكتسبوا لغة الكلدان ثم اللغة العربية التي حلّت محل اللغة الآرامية التي كانوا يتكلمون بها في الأصل. لذلك قد يصح أن نطلق على هؤلاء اليهود الذين بقوا في هذه المنطقة اسم اليهود المستعربين على أساس أخذهم باللغة العربية مع مرور الزمن، فقد عامل نبوخذنصر أسراه اليهود في بابل أحسن معاملة مع إغداق السخاء والكرم عليهم بغية الاستفادة من وجودهم في إعمار بلده الذي كان يحرص على تقدُّم العمران فيه، إذ سمح لهم

---

(٣) أرميا ٣٩: ١ ـ ١٠.

أن يقيموا في وسط المجتمع البابلي بعد أن أقطعهم أحسن الأراضي الزراعية، كما سمح لهم أن يكوّنوا لهم مجتمعاً موحداً مستقلاً في إدارة شؤونه الاجتماعية والدينية. أمَّا أعضاء العائلة المالكة فقد سُمح لهم أن يعيشوا أحرار متجمعين في مكان واحد هم وخدمهم وعبيدهم يمارسون إدارة أعمالهم وفق عاداتهم وتقاليدهم من غير أي تدخل في شؤونهم[٣أ].

ويقارن توينبي عملية استئصال اليهود التي اتبعها الآشوريون تجاه أسراهم مع موقف الأمبراطورية البابلية الجديدة المتسم بالأخلاق الفاضلة وروح التسامح العالية. فقد سمحت بابل للمنفيين من اليهود بالعيش الرغيد في ظل الدولة البابلية إلى أن أتاحت لهم الدولة الأخمينية خليفة بابل العودة لمَن أراد ذلك في حين استصفت آشور (الأسباط العشرة المفقودة) فانتهى أمرها إلى الأبد[٣ب].

ويلاحظ أن بعض المؤرخين كان يظن أن الأسرى من السبي البابلي التقوا بأبناء جلدتهم من الأسر الآشوري، فيوسف غنيمة مؤلف كتاب «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» مثلاً كان محتاراً متردداً في الأمر كيف يربط الأسرى من السبي الآشوري بأسرى السبي البابلي. فمن جهة نراه يقول أن اليهود من السبي الآشوري «لم يبق منهم باق» (ص ٤٩)، ثم يعود فيقول في صفحة (٥١) «إن قوافل الأسرى من السبي البابلي شاهدوا أبناء جلدتهم جالية ضخمة من أعقاب أسرى شلمناصر وسنحاريب وأسرحدون فتعانقوا معانقة أعز الاخوان وتعاونوا في منفاهم على حفظ كيانهم وصيانة تقاليدهم من كل مس». والواقع أن الأسرى اليهود من السبي البابلي لم يشاهدوا أبناء جلدتهم من أسرى الآشوريين إطلاقاً لأنَّ الآشوريين كانوا قد أقصوا أسراهم إلى مناطق جبلية وعرة نائية وفرقوهم في مختلف الأنحاء من جبال بلاد آشور بحيث كان يصعب الوصول إليهم أو الاتصال بهم، إذ كان اليهود من السبي البابلي يعتقدون أن أسرى الآشوريين من أبناء جلدتهم اندمجوا في البيئة الوثنية وأخذوا بالديانة الوثنية، لذلك اعتبروا بحكم المفقودين (The Lost Tribes) أو الأسباط المفقودة. ولو كان التقى أسرى بابل بأسرى السبي الآشوري لذكرت التوراة ذلك أو لذكر ذلك التلمود، ولكن لم نجد أية إشارة فيهما حول ذلك. ويلاحظ أن يوسف غنيمة استدرك بالهامش (١)

(٣أ) انظر: Graetz, «History of the Jews», Vol. 1, pp. 339-341.

(٣ب) طه باقر، «مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة»، القسم الأول، بغداد ١٩٥٥، ص ١٦٣ ـ ٢٠٢.

من ص (٥١) قال: «إن اللقاء بين أسرى بابل وأسرى آشور لم يذكره أحد من المؤرخين بل إنه ظن بحت».

٢ ـ اليهود في بابل في زمن الكلدانيين (٦١٢ ـ ٥٣٩ ق.م.):

يظن أكثر الباحثين أن اليهود المسبيين إلى بابل كانوا يحيون في الأسر حياة ضيق وتعاسة تحت كابوس مظالم الكلدانيين وتعسفهم، ومصدر هذه المزاعم هو بعض الكتابات اليهودية التي كانت ترمي من وراء ذلك بث هذه المزاعم لاستدرار العطف على اليهود المسبيين الذين أُبعدوا عن ديارهم في فلسطين. وهذه المزاعم لا تستند إلى البراهين والأدلة لأن أكثر المصادر التاريخية الموثوقة ومن ضمنها مصادر يهودية تعترف بما روته المصادر الكلدانية، وهو أن نبوخذنصر سمح للأسرى أن يصحبوا عائلاتهم وينقلوا معهم ممتلكاتهم ومواشيهم. وتؤكِّد هذه المصادر أن نبوخذنصر وهب اليهود بعد نقلهم إلى بابل أخصب مقاطعاته وأسكنهم فيها مثل منطقة «نفر» (نيبور) التي كانت تُعد من أغنى مقاطعات بابل[٤]، ومنحهم كذلك أوسع الحريات في العمل وممارسة طقوسهم الدينية، وكانت السلطات الحاكمة تعاملهم على أحسن وجه.

«ولقد استفاد اليهود كثيراً من الامتيازات التي منحهم إياها الكلدان فأصبح في صفوفهم الكثير ممن تمرسوا على أساليب الحكم والسياسة وممن أتقنوا الحرف والصناعات المختلفة، وعظم شأنهم بين البابليين[٥]».

وتعترف المصادر اليهودية بأنَّ اليهود في بابل أصبحوا في غضون مدة وجيزة أغنى أهل بابل، فبعضهم امتلك الأراضي الزراعية والبعض الآخر كان يزرع بالفعل على الأراضي التي اقطعت لهم، وقد حفروا شبكة من جداول الري والقنوات لإيصال المياه السيحية إلى مزارعهم، وأنشؤوا الحقول والبساتين

---

(٤) نفر (نيبور) هي من المدن البابلية الشهيرة، تقع بالقرب من بلدة عفك الحالية على بُعد حوالى ٢٥ كيلومتراً من شمال شرقي الديوانية على الضفة اليمنى من عقيق الفرات القديم، ويرجع تاريخها إلى الألف الثالثة قبل الميلاد وكانت مركزاً دينياً مهماً في العهد السومري، إذ كانت مقر الاله «اين ليل» إله الأرضين وهيكله المشهور «أي كور» وزقورته. اكتشفه في خزانة الهيكل على ما يُقارب ٢٣ ألف لوح يعود تاريخها إلى الفترة بين سنة ٢٧٠٠ وسنة ٢١٠٠ قبل الميلاد.

(٥) «المفسدون في الأرض» لمؤلّفه س. ناجي ص ٧١ عن لودس «أنبياء إسرائيل»، ص ٢٠٢.

ووجهوا عنايتهم لوقايتها من الغرق فأقاموا السدود ونظموا أعمال الري على أحسن وجه، وقد اعتنوا عناية خاصة بتطهير الجداول والمبازل من الراسبات الغرينية، بحيث تحوَّلت هذه المنطقة إلى حقول مثمرة، وكان يعمل بعضهم في حقل التجارة. ويرى البعض أنه لولا أنبياء المهجر الذين كانوا لا ينفكون عن تنبيه اليهود الى أخطار الانصهار وحثهم على ضرورة التفكير في العودة إلى يهوذا لانصهر اليهود في الشعب الكلداني انصهاراً تاماً بسبب ما توَّفر لهم من رغد العيش والأمن والاستقرار[٦].

ويعتبر اليهود بابل وطنهم الثاني (The Second Homeland)[٦أ]. إلاَّ أن شروط المواطنة الأساسية وهي الوطن الواحد والتاريخ الواحد والتراث المشتركين غير متوفرة فهم أسرى رهن العبودية لدى الكلدانيين.

وقد ورد في التلمود البابلي كثير من الشروح والتعاليم والإرشادات المتعلقة بالزراعة التي تعتمد على الري وعلاقة المزارعين بعضهم مع بعض من حيث الواجبات والحقوق، وهذه موجهة بالدرجة الأولى إلى اليهود الذين كانوا يمارسون مهنة الزراعة في بلاد بابل. فقد تناول التلمود شرح طرق ازلارواء والزراعة ومن ضمن ذلك الحراثة والإسقاء والحصاد ومواسم الزراعة مع ذكر انواع الحاصلات الزراعية الشتوية والصيفية، كما تناول بالشرح كيفية زراعة النخيل وتربية المواشي وإنشاء المراعي ونظام الأراضي وضرائب الأرض والماء. ولما كانت الحياة الزراعية والعلاقات الاقتصادية والتجارية في بلاد بابل تستند بالدرجة الأولى على مشاريع الري فقد تناول التلمود بحث كيفية حفر الجداول وتنظيم شبكة الإرواء سيحاً ورفعاً وصيانتها ومراقبتها ثم توزيع المياه بين الزراع بصورة عادلة. وكان تطهير القنوات والجداول من راسبات الغرين من أهم الأعمال التي كان أكثرها يقع على كاهل اليهود في بلاد بابل وقد تناول التلمود أيضاً البحث في كيفية زراعة النخيل والعناية بها[٧].

---

(٦) المرجع السابق، ص ٧١.

(٦أ) D.S. Sassoon, «History of the Jews in Baghdad», Letchworth, 1949, p. 2.

(٧) انظر كتاب «حياة اليهود الزراعية في بابل بين سنة ٢٠٠ و٥٠٠ م»، للحاخام نيومان، طبع في مطبعة جامعة أوكسفورد سنة ١٩٣٢، وعنوانه: Rabbi J. Newman, «The Agricultural Life of the Jews in Babylonia», 1932.

انظر ايضاً: S. Daiches, «The Jews in Babylonia», 1910.

وهناك دلائل لا تقبل الجدل والشك على أن أكثر ما ورد في التلمود من شروح وإرشادات فيما يتعلق بالزراعة التي تعتمد على الري مستقى من كتابات قديمة سابقة لعهد التلمود، فقد عثر المنقبون بين أطلال مدينة «نفر» على تقويم لأحد المزارعين السومريين فيه نصائح وإرشادات يوجهها هذا المزارع إلى ولده حول أصلح الطرق التي يجب اتباعها في تنظيم وإدارة شؤون مزرعته كي يحصل على أجود منتوج وأوفر محصول، ومن ضمن ذلك طريقة إعداد الأرض وإنجاز عملية الحرث ونثر البذور وتنظيم الري والإعداد لحصد الزرع بعد نضوجه ثم دراسته وذروه وتجميع المحصول. وقد دُوّنت هذه الوثيقة التي يرقى تاريخها إلى ما قبل أكثر من أربعة آلاف عام على رقيم من الطين يتكوّن من ١٠٨ أسطر بالخط المسماري باللغة السومرية، وهي تُعد أقدم تقويم زراعي في تاريخ الحضارة عن الأساليب الفنية للري وللزراعة المتبعة في تلك الأزمنة القديمة. ومما لا شك فيه أن هذه القواعد في تنظيم الري والزراعة في الحقول كانت معروفة لدى السومريين والساميين الأوائل قبل ذلك العهد وظلّت معروفة لدى البابليين في العصور التي تلت حيث عثر على قطع من هذه الموسوعة نقلها البابليون عن أسلافهم[٨]. وقد خصصت عدة مواد في شريعة حمورابي ١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م. في عقوبة مَن يهمل تقوية السدود ومراقبة الجداول (المواد ٥٣ ـ ٥٦) كما خصصت مواد تتناول زراعة النخيل والمعاملات الخاصة بها. فتفرض المادة التاسعة والخمسون غرامة كبيرة على مَن يقطع شجرة نخل، كما تشير المادتان الرابعة والستون والخامسة والستون إلى وجوب تلقيح النخل، فتنص الأولى على أنه إذا أعطى رجل بستانه إلى فلاح للتلقيح والعناية به فعلى الفلاح أن يسلِّم ثلثي حاصل البستان إلى صاحبها طوال مدة شغله في البستان ويأخذ لنفسه الثلث. كما تنص المادة الخامسة والستون على أنه إذا أهمل البستاني ولم يلقح النخيل وسبَّب تقليل الحاصل فعليه أن يؤدِّي إيجار البستان على أساس البساتين المجاورة[٩].

ومما يدل على أن اليهود المسبيين إلى بابل في عهد الكلدان كانوا يتمتعون بحرية تامة ونعمة وافرة أن نبيهم أرميا كان يدعو أسرى القافلة الأولى الذين سيقوا إلى بابل سنة ٥٩٧ ق.م. أن يستقروا على أراضيهم وينصحهم أن يواظبوا على غرس الأشجار وزراعة الحقول ليتمتعوا بثمارها ويعيشوا بسلام، وحذّرهم من أن يسمعوا لمَن يحرّضهم على الخروج على طاعة ملك بابل: «هكذا قال

---

(٨) انظر: «الري والحضارة في وادي الرافدين» للدكتور احمد سوسة، ص ٢١٠ ـ ٢١٥.

(٩) المرجع السابق، ص ٤٥ ـ ٤٧.

رب الجنود إله إسرائيل لكل السبي الذي سبيته من أورشليم إلى بابل، ابنوا بيوتاً واسكنوا واغرسوا جنات وكلوا ثمرها. . . واطلبوا سلام المدينة التي سبيتكم إليها وصلُّوا لأجلها إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام. . .[١٠] فلا تسمعوا أنتم لأنبيائكم وعرّافيكم وحالميكم وعائفيكم وسحرتكم الذين يكلمونكم قائلين لا تخدموا ملك بابل، لأنهم إنما يتنبؤون لكم بالكذب لكي يبعدوكم عن أرضكم ولأطردكم فتهلكوا»[١١].

وتشير التوراة إلى أن الكلدانيين أطلقوا سراح «يهوياكين» الملك المسبي إلى بابل في حملة نبوخذنصر الأولى سنة ٥٩٧ ق.م. بعد ٣٧ سنة من أسره ونصبوه رئيساً على أبناء طائفته في بابل. وهذا نص رواية التوراة:

«وفي السنة السابعة والثلاثين لسبي يهوياكين ملك يهوذا في الشهر الثاني عشر في السابع والعشرين من الشهر رفع أويلو مرودخ[١٢] ملك بابل في سنة تملكه رأس يهوياكين ملك يهوذا من السجن وكلمه بخير وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل. وغيّر ثياب سجنه وكان يأكل دائماً الخبز أمامه كل أيام حياته. ووظيفته دائمة تُعطى له من عند الملك أمر كل يوم بيومه كل أيام حياته»[١٣]. ويدعى يهوياكين أيضاً «يكنيا»[١٤]. ويذكر بنيامين التطيلي الذي زار العراق في القرن الثاني عشر الميلادي أن قبر «يكنية» (يهوياكين) ملك يهوذا في الكوفة وحوله كنيس[١٥]. وقد عثر في حفائر بابل على نصوص تعود إلى عهد نبوخذنصر تنص على تسليم الدولة الزيت إلى الأسرى اليهود وبين أسماء هؤلاء يهوياكين الذي لا بدَّ وأن يكون ملك يهوذا الذي جاء به نبوخذنصر أسيراً إلى بابل[١٥أ].

---

(١٠) أرميا ٢٩: ٥ ـ ٩، ٢٨.

(١١) أرميا ٢٧: ٩ ـ ١٠.

(١٢) المقصود هنا «أمير مدوك» خليفة نبوخذنصر الثاني الذي حكم سنتين بين سنة ٥٦٢ و٥٦٠ ق.م.

(١٣) ٢ مل ٢٥: ٢٧ ـ ٣٠، حزقيال ٥٢: ٣١ ـ ٣٤.

(١٤) ١ أخ ٣: ١٦ و١٧.

(١٥) رحلة بنيامين، ص ١٤٦.

(١٥ أ) دكتور سامي سعيد الأحمد، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد العدد ٢٠، كانون الثاني ـ شباط ١٩٧٧، ص ٨١.

ويعزو البعض سبب اتباع الكلدانيين سياستهم المنطوية على حسن المعاملة مع الأسرى اليهود إلى أن الكلدان كانوا يهدفون من تهجير طلائع الأمم التي ينتصرون عليها حرمان الشعوب المغلوبة من العناصر القادرة على المناهضة مجدداً ثم الاستفادة من خبرة أفراد تلك الطلائع في بلدان الكلدان حيث لا مجال لتآمر الأجانب على سلامة الدولة. ولدينا أدلة على انتهاج غير الكلدان من الفاتحين مثل هذه السياسة، فلما غزا الملك تكران الكبير ملك أرمينية شمالي فلسطين سنة ٨٣ ق.م. نقل إلى أرمينيا عدداً من اليهود مع عوائلهم وأسكنهم في أرمينية وذلك ليستفيد منهم في تقدُّم العمران فيها وبعث الحركة التجارية في بلاده بإنشاء مراكز تجارية لها. ولما استولى الفرس على أرمينية نقلوهم من أرمينيا إلى بلادهم وأسكنوهم في أصفهان وذلك لحرمان أرمينية من الفوائد الاقتصادية من وجودهم هناك[١٦] ويرى الباحثون أن حسن المعاملة التي لقيها اليهود الأسرى في بابل كان عاملاً في استمرار تاريخ اليهود وخلق أنظمة دينية اجتماعية جديدة في الأسر[١٦أ].

٣ ـ النبي حزقيال والنبي دانيال في بابل:

وعاصر يهود بابل في الأسر نبيان من أنبياء اليهود هما حزقيال ودانيال: كان النبي حزقيال كاهناً على سيرة أبيه «بوزى» وضعت نبوآته في بابل بين السنوات ٥٩٢ و٥٧٠ ق.م. حيث كان أحد المسبيين حمل مع يهوياكين إلى بابل في القافلة الأولى سنة ٥٩٧ ق.م. وعاش مع المسبيين على نهر الخابور (كبار)[١٧]، وهناك استقبل المسبيين الجدد لدى سقوط أورشليم وقد تزوَّج في السنة التاسعة من السبي ولا يعرف وقت موته ولا الطريقة التي كانت فيها وفاته. ومع أنه كان مسبياً في أرض غريبة إلاَّ إنَّه كانت له الحرية أن ينطق بنبوآته وسفر حزقيال في التوراة يستعرض نبوآته وهي مرتبة بنظامها التاريخي تقريباً وهي مؤرَّخة بحسب سني يهوياكين التي أُلقيت فيها[١٨] ويرى البعض أن كتاب «حزقيال» هو أقدم الأسفار التوراتية[١٩].

---

(١٦) انظر: Neusner, op. cit, III, pp. 339-353.

(١٦ أ) انظر: Graetz, op. cit., Vol. 1, p. 376.

(١٧) انظر ما يلي عن مدن بابل وأنهارها.

(١٨) قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص ٣٠١.

(١٩) «التوراة، تاريخها وغاياتها» ترجمة وتعليق سهيل ديب، ص ٤٨.

ومرقد حزقيال يقع اليوم في بلدة الكفل على الضفة اليسرى لنهر الفرات الرئيس على مسافة ٦٠ كيلومتراً من جنوب سدة الهندية (قناطر الهندية). ويتألف البناء الحالي من قبة ومنارة، ويستدل من طراز المنارة القائمة حتى اليوم وطراز القبة التي فوق الضريح على أنهما من عهد المغول (من عهد اولجا يتوخان سلطان المغول (٧٠٤ ـ ٧١٣ هـ/ ١٣٠٤ ـ ١٣١٣ م) على ما يعتقد واسم المرقد عند العرب «ذو الكفل» فيقول ياقوت إن قبر حزقيال المعروف بذي الكفل يقصده اليهود من البلاد الشاسعة للزيارة[٢٠]. وورد ذكره ثانية في مادة شوشة: «قرية بأرض بابل أسفل من الحلة بها قبر القاسم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق وبالقرب منها قبر ذي الكفل وهو حزقيال في برملاحه» (٣: ٣٣٥). وقيل إنه سُمِّي الكفل لأنه كفل شَعب إسرائيل بالنجاة من أسر البابليين. وقد ورد ذكره في القرآن الكريم باسم ذي الكفل[٢١].

وجاء ذكر هذا المزار في رحلة بتاخيا وقال إن اليهود يجتمعون فيه من رأس السنة إلى يوم الغفران (الكبور). وتكلم عنه السائح بدرو تكسيرا، ومما قال أنه بناء فخم وفيه برج شاهق وهناك رفات النبي المقدس حزقيال ويحترمه الجميع كل الاحترام. (غنيمة، ص ١٩٩).

ويقول بنيامين التطيلي الذي زار المرقد في القرن الثاني عشر للميلاد إن مرقد النبي حزقيال بن بوزى الكاهن «على شاطئ الفرات وهو بناء جسيم يحتوي على ستين صومعة لكل منها برج ويتوسط أكبر هذه الصوامع منبر، خلفه مرقد النبي حزقيال بن بوزى الكاهن تعلوه قبة كبيرة هي آية في حسن الإنشاء ويُقال إنها من بناء يكنية (يهوياكين) ملك يهوذا وثلاثين ألفاً من أتباعه بعدما سرحهم من الأسر الملك اويل مروداخ البابلي[٢٢] ومرقد حزقيال على فرع من الفرات يدعى كيبار منقوش على حجارته اسم يكنية الملك وأتباعه وفي آخر الثبت اسم حزقيال النبي. وهذا المقام يعظمه اليهود ويحجونه من أقاصي البلاد للتبرك به وإقامة الصلاة فيه.. وفي يوم عيد الكفارة تتلى فصول من أسفار موسى، من مخطوط كبير يُقال إن حزقيال كتبه بيده وفوق القبر قنديل يتقد ليلاً ونهاراً، يُقال

---

(٢٠) معجم البلدان ١: ٥٩٤.

(٢١) ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين﴾. سورة الأنبياء ٢١: ٨٥.

(٢٢) المقصود به «أميل مدوك» خليفة نبوخذنصر الثاني الذي حكم سنتين بين سنة ٥٦٢ و٥٦٠ ق.م.

أن النبي حزقيال أوّل مَن أشعله. . وعلى بُعد نصف ميل من قبر حزقيال، قباب تحتها قبور حنينة ميشائيل وغزرية وهذه الأبنية كلها محافظ عليها من اليهود والمسلمين[٢٣].

وهناك دار تعود إلى المعبد تضم مجموعة من الكتب كثيرة العدد منها قديمة ترتقي إلى عهد الهيكل الثاني ومنها تتعدى ذلك التاريخ وتتصل بزمن الهيكل الأول وقد جرت العادة أن مَن يموت بلا عقب يوقف كتبه على المعبد ولا يجسر أحد أن يسلب مرقد حزقيال أو أن يدنسه[٢٤].

وقد ذكر نيبهر الذي زار الكفل سنة ١٧٦٦ في وصفه لزيارة اليهود لهذا المرقد وما كانوا يقاسونه من الأذى بسبب غزو البدو في أثناء زيارتهم للمرقد حتى كانوا يضطرون أحياناً إلى الالتجاء الى المزار والحصار فيه ريثما يتوسط الأمر حاكم الحلة أو إذا كان عدد البدو كثيراً ينتظرون النجدة من الوالي ببغداد لرفع الحصار. ومما قاله عن خوف اليهود من البدو: «إن الرعب والفزع يستوليان على الزوار وإن كان عددهم يفوق الغزاة البدو عشرة أضعاف أو عشرين ضعفاً ولا يجسرون على إطلاق عيار ناري مرة واحدة لأنَّهم يعلمون حق العلم إن الدم الذي يهرق من البدو يكلفهم ثمناً باهظاً»[٢٤أ].

وجاء في وصف نيبهر للمرقد قال: «سافرت في اليوم الخامس والعشرين من شهر كانون الأول من مشهد علي وعلى أربعة فراسخ ونصف إلى الشمال نزلت الكفل ومثل تلك المسافة الى الشمال الشرقي يصل المسافر إلى الحلة. ولهذا فإنَّ المسافة بين المدينتين تسعة أميال أو سبعة أميال المانية». ثم يقول: «يأتي كل سنة ألوف من اليهود لزيارة القبر حتى اليوم وليس لمزار هذا النبي شيء من الكنوز أو الفضة أو الذهب أو الحجارة الكريمة. ولو شاء اليهود أن يهدوا مثل هذه الهدايا لما تركها البدو، ولهذا يقنع القوم بزيارته. وفي معبد النبي القائم تحت برج لا يرى غير قبر محاط مجدداً، فإنَّ صاحب المكان أو حارسه (أو قيم المزار) بيت من العرب ولهم جامع صغير لطيف وبه منارة. يربح هذا البيت العربي شيئاً كثيراً من الزوار الذين يقصدون المكان. إن قبر حزقيال والجامع والقليل من مساكن العرب محاطة بسور مكين يربو ارتفاعه على ثلاثين

---

(٢٣) رحلة بنيامين، الترجمة العربية، ص ١٤٢ ـ ١٤٥.

(٢٤) يوسف غنيمة «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ص ١٩٨.

(٢٤أ) Neibhur, «Voyage en Arabie», Tome II, p. 217.

قدماً، ويبلغ محيطه نحو ٢٠٠ قدم، ويزعم أن سليمان أحد يهود الكوفة هو الذي قام بإنشائه في أول الأمر».

ووصف هذا القبر لوفتس (Loftus) في سنة ١٨٥٣ قال: «يقوم المزار من دارين معقودتي السقف. فسقف الدار الخارجية يستند إلى أعمدة ضخمة، أما المزار فهو صندوق كبير وقديم الأيام طوله عشر أقدام وارتفاعه أربع أقدام ومزين بشيت إنكليزي وبعض أعلام حمراء وخضراء ويزين السقف المعقود أدراج ذهب وفضة وفلز وقد بني في إحدى زواياه أسفار موسى الخمسة بالعبرية ويظن أن حزقيال النبي كتبها بيده. وهناك قنديل موقد ليلاً ونهاراً ويقال إن حزقيال بنفسه أوقد ذلك القنديل وبقي على تلك الحال منذ ذلك العهد ويغيرون الزيت والفتائل كلما دعت الحاجة اليه» (غنيمة ص ١٩٩ ـ ٢٠٠).



التصوير رقم ٢ مرقد حزقيال في الكفل

أمَّا النبي الثاني الذي عاصر نبوخذنصر الثاني فهو النبي دانيال، وهو أحد الأنبياء الأربعة الكبار يأتي في الترتيب بعد حزقيال، كان من عائلة شريفة ويظن أنه وُلد في أورشليم. استقدمه نبوخذنصر إلى بابل مع ثلاثة فتيان من الأشراف في أول سنة من حكمه (٦٠٥ ق.م.)، أي قبل السبي الأول بثماني سنوات، وقد تربَّى مع رفقائه الثلاثة في بلاطه، فتعلَّم هناك لغة الكلدانيين واشتهر كحكيم

يُحسن كل الفنون والمعارف الإنسانية، فرشح مع رفقائه الثلاثة للخدمة في القصر الملكي، وقد غيَّر اسمه فسُمِّي بلطشاصر. وقد صادف أن رأى نبوخذنصر حلماً قد أزعجه ففسره له دانيال، ومكافأة له على هذه الخدمة نصبه نبوخذنصر حاكماً على بابل ورئيساً على جميع حكمائها، وقد وقع له مثل ذلك مع بيلشاصر ابن نبونيدس آخر الملوك الكلدانيين، وعلاوة على ذلك فسَّر الكتابة على الحائط في الوليمة التي أقامها بيلشاصر. ثم بعد انتقال الحكم إلى الفرس الأخمينيين يقلد داريوس المادي دانيال أسمى المناصب في المملكة فيثير هذا حسد أعدائه فيكيدون له ويُلقى في جب الأسود. ويجد القارئ شرحاً وافياً للأحداث التي عاشها دانيال في السفر الذي باسمه (سفر دانيال) في التوراة، وينقسم هذا السفر بالنسبة إلى محتوياته إلى قسمين رئيسيين وهما الأجزاء التاريخية والأجزاء الرؤوية أو النبوية. وقد كتب هذا السفر بالأصل بلغتين، فقد كُتب جزء منه باللغة الآرامية، أمَّا بقية السفر فقد كتبت باللغة العبرانية(٢٥) وقد أشار بنيامين التطيلي الذي زار بابل في القرن الثاني عشر للميلاد إلى أنه يوجد في بابل كنيس عتيق البنيان منسوب إلى النبي دانيال يؤمونه لإقامة الصلاة فيه بناؤه من الحجر المتين المهذب والاجر(٢٦).

أمَّا مدفن النبي دانيال فيذكر بنيامين التطيلي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثاني عشر للميلاد أنه في مدينة الشوش (شوشان)(٢٧) القديمة عاصمة عيلام الإيرانية أو خوزستان، وقبره في أحد الأربعة عشر كنيساً الموجودة هناك. ويضيف بنيامين إلى ذلك قوله أن هناك مشاحنات نشبت بين يهود مدينة الشوش سببها أن قبر دانيال كان في أحد جانبي النهر الذي يخترق مدينة الشوش فطالب اليهود القاطنون على الجانب الآخر من النهر نقل مثوى النبي إلى جانبهم(٢٨). أمَّا ياقوت فيروي قصة أخرى عن قبر النبي دانيال هذا نصها: «فتحت الأهواز في

---

(٢٥) قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص ٣٥٧ ـ ٣٦٠ انظر ايضاً: Musil, «The Middle Euphrates», pp. 39- 277.

(٢٦) رحلة بنيامين، ص ١٤٠.

(٢٧) تقع أطلال مدينة الشوش جنوب غربي ديزفول على الضفة اليسرى لنهر الكرخة ويُعرف اليوم باسم شوش، وقد ورد ذكر المدينة باسم «شوشن» كشفت الحفريات الحديثة عندها عن آثار قصر عظيم لداريوس (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق. م.) وفي شوشن جرت حوادث أستير وهامان المشهورة التي تقصها التوراة.

(٢٨) رحلة بنيامين، ص ١٥١ ـ ١٥٢.

أيام عمر بن الخطاب على يد أبي موسى الأشعري فوجد بها موضعاً فيه جثة دانيال النبي فأخبر بذلك عمر بن الخطاب فسأل المسلمين عن ذلك فأخبروه أن بختنصر نقله إليها لما فتح بيت المقدس وأنه مات هناك فكان أهل البلاد يستسقون بجثته إذا قحطوا فأمر عمر بدفنه فسكّر نهراً ثم حفر تحته ودفنه فيه وأجرى الماء عليه فلا يدرى أين قبره الآن[٢٩] وقد ذكر لايارد أنه شاهد قبر دانيال بين شوشتر وديزفول[٣٠].

٤ ـ اليهود في بابل في زمن الفرس الأخمينيين (٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م.):

استفاد اليهود في أثناء وجودهم في بابل من حضارة البابليين وثقافتهم فاقتبسوا الكثير منها وخاصة ما يتعلق بفنون الزراعة والري، فأخذ أكثرهم يمارسون الزراعة التي تعتمد على الإرواء الدائم بما في ذلك أساليب شق الجداول وتطهيرها وطرق الإرواء. وفي بابل مارسوا شعائرهم الدينية وواصل كهنتهم أعمالهم الدينية، وهناك مَن يرى أن الكنيس اليهودي كتجمع تعبدي هو من آثار المنفى وعن هذه التجمعات نشأت الكنس كمؤسسات دينية، ثم استمرت إلى ما بعد العودة وبناء الهيكل من جديد لأنها وجدت أنها تؤدّي خدمة لا غنى لليهود عنها[٣٠أ].

ولما فتح كورش الأخميني الفارسي بلاد بابل (٥٣٩ ـ ٥٣٨ ق.م.) سار في فتوحاته حتى احتل سورية وفلسطين ومن ضمنها أورشليم، فسمح لمَن أراد من أسرى نبوخذنصر (أسر ٥٩٧ وأسر ٥٨٦ ق.م.) الرجوع إلى فلسطين، وأعاد إليهم كنوز الهيكل التي كان قد سلبها نبوخذنصر وأمر بإعادة بناء الهيكل في أورشليم على نفقة بيت الملك[٣١] فعاد فريق منهم بقيادة «زوربابيل» بن شلائيل بن يهوياكين ملك يهوذا الأخير[٣٢]. وآثر الآخرون البقاء حيث كانوا وجاء في

---

(٢٩) معجم البلدان: ٣: ١٨٩.

(٣٠) Layard, «Early Adventures», II, 295.

(٣٠ أ) «الملل المعاصرة في الدين اليهودي» للدكتور إسماعيل راجي الفاروقي، القاهرة ١٩٦٨، ص ٨.

(٣١) عزرا ٦: ٣ ـ ٦، ١: ٧ ـ ١١.

(٣٢) «زوربابيل» اسم بابلي من «زيرو بابلي» أي زرع أو ولادة بابل وكان يُدعى أيضاً باسم «شيشبصر» وهو اسم بابلي أيضاً (طه باقر، «مقدمة...» ٢: ٢٩٩).

تاريخ ابن العبرى (ص ٨١ ـ ٨٢) إن كورش تزوّج أخت زوربابيل ولما دخل بها ارتفعت عنده وقال لها: اطلبي منّي ما شئت. فطلبت منه عودة بني إسرائيل إلى أورشليم وأن يأذن لهم بعمارتها. فجمعهم كورش وخيَّرهم قائلاً: مَن اختار الصعود فليصعد ومن أباه فليقم. فكان عدد مؤثري الصعود خمسين ألفاً من الرجال غير النساء والأولاد. وقد نَعَتَ اليهود كورش بالراعي وبالمسيح المنتظر ووصفوه بصفة المنقذ[٣٣]. أمّا عدد الذين عادوا برعاية «زوربابيل»، فقد جاء في سفري عزرا ونحميا أن عددهم كان (٤٢٣٦٠ نسمة)، هذا عدا عبيدهم وإمائهم الذين بلغوا (٧٣٣٧ نسمة) وحيواناتهم من خيول وبغال وجمال وحمير[٣٤]. ولكن الرأي الحديث لا يميل إلى الأخذ بهذه الأعداد لاتسامها بالمبالغة[٣٥]. ويرجح المؤرخون أن الذين رجعوا انحصر في أولئك الذين لم يفلحوا كثيراً في الأرض الجديدة والمتعصبون لإعادة بناء الهيكل، لأن الدلائل كلها تشير إلى أن هناك عدداً غير قليل أصابوا النجاح في بلاد بابل فأثروا وأصبحت لديهم ممتلكات كثيرة ففضّلوا البقاء وعدم المجازفة بمغامرة مجهولة المصير، لذلك اختاروا البقاء في بابل يرتعون في خيرات البلاد ويدأبون في زيادة ثروتهم وإنمائها. وتشير الوثائق التي عُثر عليها الى أن عائلة «الموراشو» اليهودية اشتهرت كأحد البيوتات المالية الكبيرة في عهد الملك ارتحشتا الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق.م.) فكانت هذه المؤسسة تمتلك جداول للري وأراضي زراعية واسعة وقطعاناً كثيرة من الأغنام، وكانت أكثر الأراضي في جوار «نفر» (نيبور) مرهونة عندها وقد أثرت نتيجة لتعاطيها الربا الفاحش الذي كان يصل إلى ٤٠ أو ٧٠ بالمائة[٣٦]. وتشهد بذلك أسماء الموقعين لعقود البيع والشراء التي عثر عليها في حفائر بابل من عهد دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق.م.) وارتحشتا الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق.م.) وجد فيها عدد وافر من الأسماء اليهودية[٣٧].

ويقول بروفسور ديلتز (Delitzsch) أن الشركة المذكورة كانت شركة يهودية

---

(٣٣) اشعيا ٤٤: ٣٨، ٤٥: ١.

(٣٤) عزرا ٢: ٦٤، نحميا ٧: ٦٦ ـ ٦٩.

(٣٥) طه باقر، «مقدمة...» ٢: ٢٩٩.

(٣٦) G. Roux, «Ancient Iraq», p. 374; G. Cardascia, «Les Archives des Murashu», Paris 1951; S. Daiches «The Jews in Babylonia» pp. 11-29.

(٣٧) يوسف غنيمة، «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» ص ٦١ نقلاً عن: J. Vandervost, «Israel et L'Ancien Orient».

صرفة عملت في التجارة وكانت تتألف من عملاء وصيارفة كثيرين وكانت تضطلع بشؤون البلاط البابلي المالية لأمد طويل. إنها كانت تجبي الضرائب عمّا تنتجه الأرض من محصولات الغلال والتمور وما إليها، كما كانت تستوفي بنفسها الضرائب المفروضة على الطرق العامة، وقنوات الري لقاء الإفادة منها. فهذه الألواح الطينية التي قد يخيل للبعض أنها تافهة، إنما تعكس لنا صورة مهمة عن الحياة البابلية القومية، إنها تمثل لنا صورة فيها جميع طبقات البابليين، من كبار موظفيهم حتى فلاحيهم البسيطين والعبيد، وهم يتزاحمون في فناء بيت الشركة هذه لإجراء مختلف المعاملات[٣٨].

وفيما يلي وصف لأخبار هذا البنك البابلي اليهودي كما روى حكايتها يوسف غنيمة في كتابه «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» ص (٥٣ ـ ٥٧) قال ما نصه:

«في سنة ١٨٧٤ عثر أحد الأعراب في أطلال (الجمجمة)، وهي قرية في منطقة بابل يدعوها العرب أحياناً باسم (تل عمران بن علي) نسبة إلى قبر هناك لأحد أولياء المسلمين، على جرار عديدة من الطين المشوي مسدودة سداً محكماً فاعتراه الوله عندما فتحها وشاهد فيها عدداً كبيراً من صفائح الآجر منقوشاً عليها بخطوط أشبه شيء عندهم بطلاسم سحرية. ولكن لم يجهل الأعرابي قيمة هذا الكنز فأخذ الركاز وتوجه به إلى بغداد وباعه هناك إلى أحد تجار العاديات. وكان في ذلك العهد الآثاري الانكليزي الشهير جورج سميث، وهو الذي نقب في بابل سنة ١٨٧٣ وعاد ثانية سنة ١٨٧٤ وثالثة سنة ١٨٧٦، فابتاعها من التاجر العراقي لدار التحف البريطانية، وكان عددها نحو ٣٠٠٠ آجرة، ولكن العلاّمة الانكليزي لم يعلم بادئ ذي بدء قيمة الدرر التي ظفر بها عفواً حتى فحصها فحصاً دقيقاً وكشف مختبأها فطار فرحاً، إذ عَلِمَ أنها سلسلة تاريخية ثمينة لأحد البيوت التجارية العريقة في القِدَم، وهي صور معاملات وعقود تجارية ومالية وسندات تخص المعهد التجاري العائد إلى (ايجيبي) وأولاده أو (سن موباليت). ويظهر أن مؤسّس هذا المعهد كان من ذوي اليسار والكلمة الراجحة في بابل وقد بقي معهده قروناً عديدة يتعاطى الأشغال المختلفة ويقوم بالمعاملات الكبيرة والصغيرة ويقرض مبالغ جزيلة وطفيفة وله حسابات مع أقطاب المملكة وسواد الأمة، وكان يتقاضى الضرائب لحساب الحكومة. وكان يبيع بالنسيئة ويحوّل

---

(٣٨) ليدي دراور، «في بلاد الرافدين»، ترجمة فؤاد جميل، ١٩٦١، ص ٢١٥.

التحاويل من مدينة إلى أخرى، وقد ذكر في صفائح العقود تاريخ اليوم والشهر والسنة التي تمَّ فيها العقد. وبلغ هذا المعهد قمة عزّه في الغنى والنفوذ في عهد الملك نبوخذنصر (٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م.) ويبدو أن مؤسِّس هذا المعهد عاش في عهد الملك سنحاريب سنة ٦٨٥ قبل الميلاد أي قبل نحو قرن.

«وقد أشرك ايجيبي معه في أعمال معهده أولاده وهو في قيد الحياة. ومن الذين اشتهروا من أعضاء هذه الأسرة بأعمالهم وحازوا منزلة قيمة وفاقوا سائر أعضائها ثلاثة أشخاص وهم: نبو أخي أدينا وابنه أتي مرودخ بالاتو وحفيده مرودخ نصر ابلو.

«كان قد ارتأى المؤرخون سنة ١٨٧٨ أن بيت ايجيبي دام إلى عهد دارا الأول وأن آخر عميد له كان مرودخ نصر ابلو ظهر اسم هذا الرجل في أعمال البيت في السنين الأولى من ملك دارا، إلاَّ أن العلاَّمة دلج أبان سنة ١٨٨٢ أن المصرف المذكور دام إلى بعد فتح الإسكندر الكبير، وقد توصل إلى هذه النتيجة بتصفحه مئات من صفائح الأجر التي اقتناها المستر هرمزد رسام وأضافها إلى المجموعة التي ظفر بها المستر سميث سابقاً، وعليه يكون محل ايجيبي قد اشتغل نحو أربعة قرون متوالية وقد رأى التقلبات السياسية والحملات الكبيرة في عهد ملوك مختلفين ولم يصبه شيء من الأذى في وسط تلك العواصف السياسية لأن البابليين كانوا يحترمون التجار والتجارة ويسهلون طرق الأعمال الاقتصادية.

«وقد ذهب الآثاريون إلى أن اسم ايجيبي تصحيف اسم يعقوب اليهودي ومن ثم استنتجوا ان مؤسِّس هذا المعهد كان يهودياً من الأسرى الذين ساقهم سرجون الملك من السامرة إلى بابل. وقد لاحظ الأستاذ دلج أن كثيراً من أسماء المتعاقدين التي وردت منقوشة على الآجر هي بلا مرية أسماء يهودية».

ولا بدَّ من التنويه في هذا الصدد بأنَّ ما ذكره المرحوم يوسف غنيمة عمَّا ذهب إليه دبلج من أن مؤسِّس هذا المصرف كان من الأسرى الذين ساقهم سرجون الملك من السامرة إلى بابل أمر مشكوك فيه، لأن الثابت لدينا أن سرجون لم ينقل الأسرى اليهود إلى بابل بل نقلهم الى جبال كردستان في شمالي العراق. لذلك أن الأصح أن يُقال ان المصرف ازدهر في عهد الإخمينيين بين سنة ٤٦٠ و٤٠٠ ق.م. كما جاء في كتاب الدكتور رو «العراق القديم» (ص ٣٧٤) وهذا آخر ما توصل إليه الباحثون (انظر أيضاً: دكتور محمد علي رضا الجاسم، «الائتمان والصيرفة في العراق القديم»، بغداد ١٩٦٤ ص ٨٢).

وكان «**زوربابيل**» قد عُيِّنَ أول حاكم على الجالية اليهودية في فلسطين تابعاً إلى الدولة الفارسية، فشرع في بناء الهيكل إلاَّ أن الأقوام المجاورة كالحوريين والعمونيين والحيثيين والآدوميين احتجوا على ذلك وهدَّدوا بالعصيان فأصدر «سميرد» خلف قمبيز الثاني سنة ٥٢٢ ق.م. أمراً بتوقيف عملية البناء، ولكن دارا الأول (٥٢١ ـ ٤٨٦ ق.م.) أباح لهم مواصلة البناء وأتموا بناء الهيكل والسور على عهده سنة ٥١٥ ق.م. وفي عهد ارتحشستا الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق.م) عادت الى اورشليم جماعة أخرى من اليهود المسبيين بقيادة عزرا سنة ٤٥٨ او ٤٥٧ ق.م. وجماعة أخرى بقيادة نحميا الذي عُيِّنَ حاكماً على طائفته (٤٤٤ ـ ٤٣٢ ق.م.) وهو الذي قام ببناء ما تهدّم من السور.

ويرى البعض أن كورش أصدر أمره بالسماح بعودة اليهود إلى فلسطين ورد ما سلب من هيكلهم ومن ثم إعادة بنائه وكذلك ولآهم أمور أهل بابل مكافأة لما قدّموه له من المساعدات القيمة في أثناء حربه مع نابونيد آخر ملوك الكلدان، أو انه أراد أن ينشئ دولة جديدة في فلسطين تحت سيطرته تكون حداً فاصلاً بين الفرس والمصريين. هذا ويرى البعض الآخر أن هذه الآراء تحتاج إلى تمحيص لأن كورش أظهر هذا التسامح والمروءة لجميع شعوب بابل لا بل جامل جميع الأقوام الذين دوخهم وعطف عليهم حتى أنهم دعوه أباهم[(٣٩)].

يتضح مما تقدّم أن اليهود الذين اختاروا السكنى في بابل وبلاد مادي أصبحوا في رخاء العيش في عهد خلفاء كورش إذ منحوهم حرية كاملة في ممارسة شعائرهم الدينية كما منحوهم حكماً ذاتياً في إدارة شؤونهم الاجتماعية والدينية وقد حازوا المناصب الرفيعة في قصر الملك في شوشن عاصمة الفرس. وتروي لنا التوراة حكاية أستير اليهودية مع الملك أحشويرش الأول (٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م.) كيف توسطت في خلاص شعبها من القتل. وخلاصة هذه القصة كما وردت في سفر أستير من التوراة هي أن أول المقربين للملك أحشويرش ووزيره الأول، هامان، قد حصل على أمر يقضي بإهلاك جميع اليهود في المملكة، حينئذ دخلت أستير على زوجها الملك أحشويرش دون أن يستدعيها معرضة بذلك حياتها للخطر وأظهرت له أصلها اليهودي، ثم حصلت على أمر يقضي بإعدام هامان ومن يلوذ به وعلى أمر آخر يسمح لليهود بإهلاك جميع أعدائهم، فاغتنموا الأمر وقتلوا من الفرس في بلدان المملكة خمسة وسبعين ألفاً. وأستير فتاة يهودية

---

(٣٩) يوسف غنيمة، (مرجع سبق ذكره) نزهة المشتاق، ص ٦٢.

يتيمة كانت على مزيد من الجمال احتضنها ابن عمها المدعو «مردوخاي»، وهو من اليهود المسبيين مع يهوياكين ملك يهوذا، فدفعها إلى الزواج من الملك أحشويرش بدلاً من زوجته الملكة وشتي. ويحتفل اليهود بذكرى هذا اليوم في الرابع عشر والخامس عشر من شهر آذار وينزلونه منزلة عيد قومي، وهو «عيد البوريم». ويرى مؤلِّف كتاب «الغصن الذهبي»(٤٠) إن عيد البوريم إنْ هو إلاَّ شبه الاحتفال الذي كان البابليون يقيمونه استهلالاً للربيع الخصب، كما قد تكون الملكة أستير هي الإلّهة عشتار ومردوخاي هو الإله مردوخ(٤١).

٥ ـ النبيان عزرا ونحميا:

وقد ظهر في المهجر في بابل في عهد ارتحششتا الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق.م.) نبيان من بين اليهود المسبيين في بابل هما عزرا ونحميا الواحد معاصر للآخر. فكان الأول (ابن سرايا) كاهناً لُقِّبَ بالكاتب لأنه كان موظفاً في بلاد امبراطور الفرس أرتحششتا الأول ومستشاراً له في شؤون الطائفة اليهودية التي كانت تقيم فيما بين النهرين منذ أيام السبي. وكان كاتباً ماهراً في شريعة موسى لذلك سُمِّيَ بعزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء. وقد تمكَّن عزرا لثقة الامبراطور به وتلبية لطلبه من أن يحظى بموافقته على السفر إلى أورشليم، فغادر بابل اثر ذلك في حوالى سنة ٤٥٨ ق.م. (السنة السابعة من حكم أرتحششتا) وقاد معه ١٤٩٦ رجلاً و٣٨ لاوياً و٢٢٠ عبداً. وكان معه رسائل وصايا من الملك أرتحششتا إلى عمال الفرس في عبر الأردن ليساعدوه ويدفعوا إليه ذهباً وفضة، كما كان مزوداً بالسلطة الملكية المطلقة لإصلاح شؤون اليهود في فلسطين(٤٢). ويعتقد أن عزرا عاد إلى بابل مرة أخرى ثم رجع ثانية إلى القدس عندما أصبح نحميا والياً على يهود فلسطين (٤٤٤ ـ ٤٣٢ ق.م.) أي بعد حوالى ١٣ سنة.

وقد قام عزرا بعد وصوله إلى أورشليم بقراءة ناموس موسى (ع) أمام اليهود وتفسيره لهم مستعيناً بالترجمة الآرامية للأصل العبراني وذلك بغية إحياء

---

(٤٠) Sir James Frazer, The Golden Bough.

(٤١) ليدي دراور «في بلاد الرافدين»، ترجمة فؤاد جميل، ١٩٦١، ص ٢١٦ إن هناك أطروحة ماجستير أعدتها ليلى عطاالله حنا بكلية الآداب في جامعة الإسكندرية سنة ١٩٦٦ لم نستطع الاطلاع عليها ولا شك أنها تبحث بشكل مفصّل في موضوع اليهود في بابل.

(٤٢) انظر الأصحاح الثامن من سفر عزرا.

اللغة العبرية، فصاروا يعتبرونه زعيماً لهم بعد موسى (ع) الذي أخرجهم من مصر ويعتبرونه مؤسِّس نظم اليهودية المتأخرة ولقَّبوه بالكاهن وبالكاتب ومفسراً لوصايا الله. وقد قيل انه هو الذي حمل إلى فلسطين الأحرف الآرامية المربعة الشكل المعروفة بالخط الآشوري المربع التي مهدت إلى نشوء الأبجدية العبرانية الحالية. وقد قام عزرا على رأس لجنة من علماء اليهود بدراسة في أوضاع اليهود الزوجية، والتحقيق في الذين تزوجوا من أجنبيات، وقد أوصى عزرا بتنقية الدم اليهودي وفصل الزيجات المختلفة وإبعاد الزوجات الأجنبيات مع أبنائهن، وهذه هي المشكلة التي واجهها نحميا وعجز عن حلها. ويجمع كل علماء الكتاب المقدس على أن كتاب العهد القديم تمَّ وضعه خلال وبعد السبي البابلي («التوراة تاريخها وغاياتها»، ترجمة وتعليق سهيل ديب، ص ٢٠).

أمَّا تاريخ عزرا فهو موجود في السفر المسمَّى باسمه (سفر عزرا) وجزء من أخباره في سفر نحميا، وتتناول مادة سفر عزرا فترة الحكم الفارسي في فلسطين في حوالى ثمانين عاماً، وهي تبدأ بقصة عودة الخمسين ألف يهودي من بابل إلى القدس تحت قيادة «زوربابيل» في السنة الأولى من حكم الملك كورش ثم تروي قصة رجوع آلالف من اليهود من السبي في بابل مع عزرا نفسه.

وأما موقع مدفن عزرا كاتب الشريعة فقد اختلف في تعيينه، فيوسفوس مثلاً عين مرقده في أورشليم[٤٣]، وفي رواية أخرى أن قبره في موقع من جنوب العراق يدعى «زمزومو» توفي هناك عندما كان مسافراً إلى بلاد فارس[٤٤]. ويذكر ياقوت أن مدفن عزرا في قرية عورتا من أعمال نابلس[٤٥]، ولكنه يذكره أيضاً في موضعين في مادتي ميسان ونهر سمرا. فقد جاء في مادة ميسان قوله: ميسان، اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط قصبتها ميسان... وفي هذه الكورة قرية فيها قبر عزرا النبي عليه السلام مشهور معمور يقوم بخدمته اليهود ولهم عليه وقوف وتأتيه النذور وأنا رأيته[٤٦]. وجاء في مادة «نهر سمرا». نهر سمرا، قرية فيها قبر العزير النبي عليه السلام في أرض ميسان[٤٧]. وقد ذكر

---

(٤٣) Flavious Josephus, «The Antiquities of the Jews», Translated by W. Whiston, XI, 5.5.

(٤٤) E.A.W. Budge «By Nile and Tigris», Vol. 1, p. 17.

(٤٥) معجم البلدان ٣: ٧٤٥.

(٤٦) المرجع السابق ٤: ٧١٤.

(٤٧) المرجع السابق ٤: ٨٤٠.

القزويني من رجال القرن الثالث عشر للميلاد مشهد العزير النبي وهو يكرر كلام ياقوت بالحرف الواحد[٤٨] ولكن التقاليد اليهودية القديمة والحديثة وتواتر روايات المؤرخين والرحّالين تعتبر مدفنه في العراق في الموضع المسمّى اليوم بالعزير وهو لا يزال حتى هذا اليوم مزاراً دينياً يهودياً يؤمّه اليهود من جميع البلاد، يقع في بقعة من الأرض على عدوة دجلة اليمنى بين القرنة والعمارة على مسافة



تصوير رقم ٣

مرقد العزيز

حوالى ٣٢ كيلومتراً من القرنة. وقد زار هذا المرقد في القرن الثاني عشر للميلاد الرحالة بنيامين التطيلي فسمّى موقعه «نهر سمرا» يبعد مسيرة يومين عن البصرة ووصفه بما نصه: «وعند نهر سمرا المتاخمة لبلاد العجم قبر عزرا الكاهن الكاتب (ع) توفي فيها أثناء قدومه من القدس لمقابلة الملك ارتحششتا. وعند قبره كنيس كبير لليهود وجامع للمسلمين، وهؤلاء يجلون المقام ويؤمونه لإقامة الصلاة فيه[٤٩]». وهذا يتفق مع ما ورد في معجم البلدان لياقوت في مادة نهر سمرة ومع التقليد اليهودي. وقد وصفه ريج في بدء القرن التاسع عشر وصفاً دقيقاً يتفق مع المرقد الذي في موضعه الحالي. كما زاره يوسف غنيمة سنة ١٨٩٣ وقد وصفه في كتابه «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» قال: «وقد نكب بعد زيارتي لهذا المقام ببضع سنوات زوار هذا المرقد أحزنت القوم إذ

---

(٤٨) آثار البلاد (طبعة غوتنجن سنة ١٨٤٨، ص ١٣٠).

(٤٩) رحلة بنيامين، ص ١٥٠.

هوى قسم من بناء المنزل فمات عدد منهم تحت الردم ورضت أعضاء غيرهم، ولكن جماعة اليهود جدَّدت ذلك البناء وأحكمت أُسسه، وقد جرى حول هذا المعبد معارك بين البريطانيين والأتراك في ربيع سنة ١٩١٥ م ولكنه لم يُصب بأذى»(٥٠).

أما نحميا فهو ابن حكليا من اليهود المسبيين في بابل وقد عاصر عزرا وكلاهما عاش في زمن ارتحشستا الأول (٤٦٥ ـ ٤٢٥ ق.م.). وكان نحميا يشتغل ساقياً في بلاط ارتحشستا الأول في شوشن عاصمة الفرس، حيث نال منزلة رفيعة، فرجا الملك أن يُسمح له بالذهاب إلى أورشليم لبناء أسوارها من جديد. فأذن الملك له بذلك وأمر بارسال كوكبة من الفرسان لحراسته وبإعطائه رسائل توصية إلى عموم حكام المناطق الخاضعة للفرس وعيَّنه حاكماً على ولاية اليهودية، وكان ذلك سنة ٤٤٥ ق.م.(٥١) وهي السنة العشرين من حكم ارتحشستا، أي بعد ذهاب عزرا الكاهن بثلاث عشرة سنة فوصل نحميا إلى القدس سنة ٤٤٤ ق.م. وقد استمر حاكماً على طائفته مدة اثنتي عشرة سنة (٤٤٤ ـ ٤٣٢ ق. م.)، ثم عاد إلى شوشن عاصمة الأمبراطورية الفارسية(٥٢)، ولكنه لم يبق فيها طويلاً ورجع إلى القدس مرة ثانية سنة ٤٢٤ ق.م.(٥٣) حيث استمر يشغل وظيفة الحاكم إلى أن توفي(٥٤). ومن أعمال نحميا في القدس بناء سور الهيكل ومنعه لأبناء طائفته من التزوج من أجنبيات(٥٥). تنفيذاً لما أقدم عليه عزرا.

وفي أيام نحميا المعاصر للأمبراطور الإيراني ارطاكسرسيس الثاني (٤٢٤ ـ ٣٥٨ ق.م.) قامت حركة يتزعمها العرب متجمعين بقيادة ملكهم جشم الذي كان حليفاً لستبلط الحوراني وطوبيا العموني وأمير الأشدوديين ضد هذه الصهيونية القديمة التي كان يمثلها عزرا ونحميا (نحميا ٢: ١٩ و٤: ١ ـ ٨ و٦: ١ ـ ٩).

---

(٥٠) انظر كتابه المشار إليه، ص ١٨٩ ـ ١٩٦.

انظر أيضاً: رحلة السير وليس بدج، ترجمة فؤاد جميل ص ١٩.

(٥١) نحميا ١: ١.

(٥٢) نحميا ١٣: ٦.

(٥٣) نحميا ١٣: ٧.

(٥٤) قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص ٩٦١ ـ ٩٦٣.

(٥٥) نحميا ٣: ٢٣ ـ ٢٩.

وقد ورد اسم جشم في التوراة وهو جشم بن شهر رئيس قبيلة قيدار العربية في طور سيناء، وقيدار مملكة كانت تسيطر على أرض تمتد من دلتا النيل إلى حدود مملكة يهوذا في جنوبي فلسطين، ويرى البعض أن جشم هو من أهل السامرة العرب، كما يرى البعض الآخر أنه كان من المناطق الجنوبية وأنه كان رئيس قبيلة فيها (الدكتور جواد علي، **«المفصل في تاريخ العرب»** ١: ٦٤٦ ـ ٦٤٨).

٦ ـ اليهود في بابل في زمن الإغريق ٣٣١ ـ ١٣٩ ق.م:

يبدأ هذا العصر في بداية حملة الإسكندر الكبير (٣٥٦ ـ ٣٢٣ ق.م.) على بلاد الشرق سنة ٣٣٤ ق.م. فكان الإسكندر يرمي من حملته هذه تأسيس أمبراطورية واسعة تضم الغرب والشرق بلا حدود تفصلها، تخضع سياسياً واقتصادياً وثقافياً للنفوذ الإغريقي، وذلك بتأسيس مستوطنات إغريقية في مختلف أنحاء هذه الأمبراطورية وإنشاء قواعد عسكرية على طول خطوط المواصلات مع إقامة مراكز ثقافية تتولى نشر الثقافة اليونانية بما في ذلك اللغة اليونانية. وقد قام الإسكندر بذلك فعلاً بعد احتلاله للشرق فأسَّس سبعين مدينة يونانية جديدة بأسماء يونانية. ومع أن حلمه لم يتحقق بالشكل الذي أراد، لأنه لم يطل بقاؤه في البلاد، فقد سلك أخلافه في الطريق نفسه لتطبيق منهجه في نشر الثقافة اليونانية، والدليل على رسوخها أن رسالة المسيح أُذيعت بعد ثلاثة قرون باللغة اليونانية على العالم المتمدن. ولم يستثن من هذا النفوذ الشعب اليهودي ولغته. وقد كانت حصة يهود فلسطين كبيرة من هذه الحركة وأما حصة يهود بابل وبين النهرين فكانت ضئيلة وقلَّ من اهتمَّ بدرسها والتوسع فيها[٥٦].

وقد استولى الإسكندر على بابل بعد وقعة كوكه ملة الشهيرة مع دارا الثالث ملك الفرس سنة ٣٣١ ق.م. فخرج الأهلون لاستقباله بثياب الأعياد وضرب الطبول فدخلها بين هتاف وترحيب. وسجد أمام الإله بعل وأمر ببناء الهياكل التي هدمها أحشويرش فأحبه البابليون. وجاء في التاريخ أنه أكره يهود بابل على المشاركة في بناء هيكل (بل) وعاملهم بقسوة وأخذ منهم غرامة مالية، إلاَّ أن اليهود تداركوا الأمر واسترضوه فصالحوه ودخل عدد منهم في جيشه وحاربوا مع

---

(٥٦) يوسف غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٦٧ نقلاً عن: Encyclopedia Biblica, p. 1114 .

المقدونيين جنباً إلى جنب[٥٧].

وقد استأنف الإسكندر سيره نحو بلاد فارس في مطاردة دارا فافتتحها، ثم فتح بلاد مادي وظلَّ يطارد دارا حتى وجده قتيلاً في جوار بلخ. وبموت دارا الثالث انقرضت دولة الفرس، فورثتها اليونان ووضعت يدها على كل ما كانت تملكه من البلاد والمستعمرات. وبعد رجوع الإسكندر من الهند توفي في بابل سنة ٣٢٣ ق.م. وبموته اقتسم قواده تلك الامبراطورية المترامية الأطراف، فكان العراق وسورية ضمن البلاد التي وقعت في حصة القائد سلوقس.

جلس سلوقس على عرش مملكته فنظم سياستها أحسن تنظيم ونشر لواء العدل في جميع أنحائها بعد أن قسَّمها إلى اثنتين وسبعين ولاية. وقد ساس البلاد بسياسة حسنة فلم يتعرض لديانة أهلها، ولم يُغيّر من قوانينها ونظمها، بل أبقاها على حالها كما كانت من قبل إلاَّ التاريخ الذي كانوا يؤرخون به فقد أصدر حكمه بإبطاله وأمر بوضع تاريخ جديد مبدؤه سنة ٣١٢ ق.م. وهو التاريخ الذي بدأت به ملكيته، ويعرف بالتاريخ السلوقي[٥٨].

وقد شاهد يهود بابل نقل سلوقس حاضرة بابل إلى مدينة جديدة (سلوقية) التي أنشأها على الضفة اليمنى من دجلة في أرض المدائن دعاها سلوقية وتُعرف أطلالها اليوم بـ «تل عمر» وهو يقع مقابل سلمان باك وطاق كسرى حالياً. ونقل سلوقس دوائر الدولة إليها وجعلها عاصمة له، فتهافت الناس عليها من كل حدب وصوب، حتى صارت في عهده وفي عهد خلفائه من بعده مركزاً مهماً للتجارة ومهداً للعلوم والفنون. وكان لها مجلس ملِّي مؤلف من ثلاثمائة شخص. ويرى الباحثون أن الباعث الذي دفع سلوقس إلى بناء هذه المدينة الجديدة كان ميله إلى بعث جو إغريقي على عاصمته الجديدة وإبعاد البابليين عن عاصمتهم القديمة التي كانت مركزاً للمأثورات البابلية والتقاليد الكلدانية. وصارت هذه المدينة الجديدة مقاماً جديداً ليهود بابل حيث كانت لهم منزلة كبيرة في عهد السلوقيين، فكانوا يسكنون المدن الكبيرة مع بقية العناصر جنباً إلى جنب، وكانت لهم مدن خاصة بهم. ويروي يوسفوس أن الملك أنطيوخس الثالث الملقب بالكبير (٢٢٣ ـ ١٨٧ ق.م.) نقل من بابل وبين النهرين ألفي أسرة يهودية مع أجهزتها الحربية إلى ليديا وفريجيا في آسيا الصغرى لتأسيس حامية منهم هناك موالية لحكم السلوقيين في

---

(٥٧) Neusner, op. cit, I, 11.

(٥٨) دليل الجمهورية العراقية لسنة ١٩٦٠، ص ١٧٧.

تلك البلاد تساهم في قمع حركات السكان ضد الحكم السلوقي(٥٩).

وقد حكم ١٤ ملكاً من ملوك السلوقيين في العراق مدة ١٧٦ سنة بين سنة ٣١٢ و١٣٩ ق.م. واستمر حكم الباقي منهم في سورية الى ٦٤ ق.م. وقد بدأت علائم الضعف تظهر على الدولة السلوقية منذ عهد سلوقس الثاني (٢٤٦ ـ ٢٢٦ ق.م.) فاستقل عنها زعيم الفرثيين (أرشاق) بإقليم فرثيا (خراسان) وأسَّس الدولة الفرثية، ثم شرع يقتطع من السلوقيين المدن المجاورة له فيضيفها إلى مملكته الجديدة التي أخذت تشتد وتقوى منذ ذلك الحين، فنشبت حروب أعواماً كثيرة بين الدولتين الفرثية والسلوقية فكان الفوز في النهاية حليف الفرثيين فاستولوا على معظم مخلفات السلوقيين في الأقاليم الشرقية ومن جملتها القطر العراقي، وكان ذلك سنة ١٣٩ ق.م.(٦٠).

٧ ـ اليهود في بابل في عهد الفرثيين (١٣٩ ق.م. ـ ٢٢٦ ب.م.):

أسَّس الدولة الفرثية (أرشاق) في بلاد فارس في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد وأخذت دولته (أرض خراسان الحالية) تتسع بما كان يستولي عليه من أقاليم الدولة السلوقية حتى ضمَّت أيام ازدهارها كل مدن مملكة إيران الحديثة ومعظم بلاد الأفغان وقسماً من تركيا آسيا وأقاليم متسعة من أملاك روسية الحالية، وبذلك تكون قد ضمَّت بلاد مادي والعراق (بابل وآشور).

ولما دخل الفرثيون العراق سنة ١٣٩ ق.م. جعلوا سلوقية، عاصمة السلوقيين، الواقعة على بُعد ٢٠ ميلاً من جنوبي شرقي بغداد على الجانب الأيمن من دجلة عاصمة شتوية لهم، وفي الوقت نفسه وسَّعوا المدينة على الجانب الأيسر من النهر حيث تقع قرية سلمان باك حالياً وقد كان هذا الجانب في الأصل حامية عسكرية لليونانيين، فصار يعرف هذا الجانب من المدينة بـ «طيسفون». ولما قضى الساسانيون على دولة الفرثيين اتخذ أردشير الأول الساساني سنة ٢٢٦ بعد الميلاد «طيسفون» عاصمة شتوية للدولة الجديدة، وأطلق على هاتين المدينتين، الغربية والشرقية اسم المدائن وتُعرف بقية الجانب الشرقي

---

(٥٩) Neusner, op. cit., p. 12.

(٦٠) تمَّ ذلك في عهد الملك متريدات الأول (١٧٠ ـ ١٣٨ ق.م.) حيث قضى على أنطيوخس السابع (سيديت) السلوقي واستولى على العراق.

اليوم بطاق أو إيوان كسرى[٦١].



«طاق كسرى أحد قصور الساسانيين ولعل مشيّده شابور الأول القرن الثالث الميلادي»

لم يكن للدولة الفرثية نظام واحد تحكم به كل الأقطار وتسوس كل الذين دخلوا في حوزتها، بل كان شكل حكومة الفرثيين أشبه بشكل حكومة الولايات المتحدة، فقد قسموا مملكتهم الواسعة الى ممالك صغيرة وإمارات، كل مملكة أو إمارة يحكمها ملك أو أمير يكون خاضعاً للملك الفرثي الجالس على عرش

(٦١) يرجّح الباحثون أن الإيوان المعروف اليوم بطاق كسرى في جوار قرية سلمان باك الحالية بُني في عهد سابور (الجند) الأول في القرن الثالث للميلاد (٢٤١ ـ ٢٧٣ م)، بينما يرجح البعض أنه شُيِّدَ في زمن سابور الثاني (ذو الأكتاف) في القرن الرابع للميلاد (٣١٠ ـ ٣٧٩م) ثمَّ رمَّمه وجدَّده كسرى أنو شروان في القرن السادس للميلاد (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) فسُمِّيَ باسمه إيوان كسرى ويقع الإيوان اليوم بجوار مرقد الصحابي المعروف بسلمان الفارسي (سلمان باك)، ولقب (باك) بمعنى الطاهر بالفارسية وكان على مقربة من هذا المشهد على ضفة نهر دجلة قبران آخران للصحابيين عبدالله الأنصاري وحذيفة ابن اليمان، وعلى أثر التآكل الذي حصل بالضفة بمياه الفيضان نقلت الحكومة بقايا رفاتيهما إلى مشهد سلمان الفارسي في عام ١٣٥٠ هـ (١٩٣١ م).

طيسفون، حتى أن بعض المدن كانت مستقلة استقلالاً إدارياً وسياسياً ولم يكن للفرثيين عليها إلاَّ خراج يتقاضونه. وكانت المدن التي شيَّدها اليونان في العراق على هذا النمط مثل سلوقية العراق وغيرها من المدن الخاضعة للأمبراطورية الفرثية. وكان من عداد تلك الإمارات في العراق وحده خمس إمارات وهي امارة ميسان في موقع العزير الحالي، والثانية إمارة الحضر في الشمال الغربي، والثالثة إمارة حدياب وقاعدتها أربيل وقد سبق وصفها في الفصل الأول والرابعة إمارة الحيرة، والخامسة إمارة سنجار.

«وكان لليهود في المملكة الفرثية ما يضاهي ذلك الاستقلال والحكم الذاتي. ففي المدن التي كان فيها طائفة كبيرة منهم كان لهم استقلال بلدي، وحق انتخاب قضاة، وحارة خصوصية بسكناهم، هذا كان شأنهم في بابل، وسلوقية وطيسفون. أمَّا في المدن التي كان يسكنها اليهود فقط فكان لهم من الاستقلال ما كان للمدن اليونانية بدون فرق. وكانوا يقومون بأمور دينهم وشعائر مذهبهم بكل حرية»[٦٢].

وقد اجتازت دولة الفرثيين القرن الأول قبل الميلاد وهي محافظة على كيانها وسيطرتها على المناطق التي احتلتها، إلاَّ أنها أخذت تتدهور بعد وفاة أفراهاط الرابع في السنة الثانية قبل الميلاد (٣٧ ـ ٢ ق.م.)، فعمَّ الاضطراب والوهن نتيجة نشوب الفتن والقلاقل والنزاعات بين الأمراء على الحكم، مما شجع بعض المدن والمقاطعات المستقلة أن تتحرر من ارتباطاتها بالولاء إلى الدولة الفرثية وأفسح المجال إلى الرومان أن يتدخلوا في شؤون المملكة الداخلية حتى صار الأمراء يستغيثون بالرومان لمعاونتهم ضد منافسيهم للوصول إلى الحكم. ومن المدن التي تمرَّدت على حكم الفرثيين واستقلت عنها سلوقية، فقامت بثورة سنة ٣٦ للميلاد وتحرَّرت من نير حكمهم وظلت كذلك حتى سنة ٤٦ للميلاد حين أُعيدت بالقوة إلى حظيرة الدولة. أمَّا الملوك الذين حكموا بعد أفراهاط فقد ملك بعد أفراهاط ابنه أفرافاطاس ولكن لم يمضِ وقت طويل حتى قُتِلَ في فتنة جرت في سلوقية. ثم أرسل السلوقيون إلى روما يطلبون من أوغسطس قيصر أن يملك عليهم أحد أولاد أفراهاط الرابع الذين كانوا محجوزين هناك فأجاب قيصر إلى طلبهم وأرسل «اونون» وكان ذلك في السنة الرابعة للميلاد. وكان أونون قد تخلَّق بأخلاق الرومانيين فبغضه أهل سلوقية فأبعدوه عن

---

(٦٢) يوسف غنيمة، نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق، ص ٦٩.

الحكم وملّكوا عليهم أحد امراء العائلة الملوكية المدعو أرطبان فجلس مكان أونون سنة ١٦ للميلاد. ثم تآمر عليه اثنان من أعيان مملكته وأرسلا إلى رومية وفداً لطلب إرسال أفراهاط بن أفراهاط الذي هناك وكان أوغسطس قيصر قد توفي سنة ١٤ للميلاد وخلفه طبريوس فعيّن طبريوس عوضه ملكاً آخر للفرثيين وهو تيريدات حفيد أفراهاط وأرسل معه الجنود بقيادة القائد الروماني فيتليوس لمجابهة أرطبان فاضطر أرطبان إلى الهرب وكان ذلك سنة ٣٥ للميلاد. ولم يلبث أن اشتدت الفتنة بين حزبه وحزب أرطبان فانتصر حزب الأخير فرجع ارطبان بجيوش كبيرة إلى سلوقية وهزم تيريدات وملك ثانية وكان ذلك سنة ٣٥ للميلاد وكانت وفاته على الرأي الأرجح سنة ٣٨ للميلاد[٦٣].

وكان لأرطبان ابنان هما وردان وجوتارز فتنازعا الملك بعد وفاة أبيهما. فكانت النصرة لوردان فهرب جوتارز إلى هرقانية. ولما كانت السنة ٤٦ م اغتيل وردان، فأتى جوتارز وجلس على كرسي العرش فنازعه هذه المرة ميثريدات وكان حليف الرومانيين استغاث بهم سنة ٤٧ م، وقد انضم ملك حدياب إلى جوتارز سنة ٤٨ م ضد ميثريدات مما مكّن جوتارز من الصمود أمام خصمه إلاّ أنه توفي سنة ٥٠ م فخلفه أونون، ثم جلس بعده أولفاس الأول (٥١ ـ ٧٧ م).

استعرضنا فيما تقدَّم نبذة عن تسلسل الأحداث السياسية التي شهدتها الدولة الفرثية في القرن الأول للميلاد لتكوين فكرة عن الوضع المضطرب الذي كان سائداً فيها في ذلك الوقت. فالنزاع بين تيريدات وأرطبان ومن بعده النزاع بين الأخوين وردان وجوتارز وما رافقتهما من الأحداث شحنا هذه الفترة بالقلاقل والاضطرابات والفوضى فكانت سفينة الحكم فيها تسير بلا ربان يسيطر عليها. وقد لعب اليهود في هذه الفترة دوراً سياسياً مهماً منتهزين ظروف الانحلال السائدة ليلعبوا دورهم على مسرح الأحداث، فتدخلت إمارة حدياب وهي تحت حكم ملوكها اليهود في هذه المنازعات والحروب بين الأمراء فكانت تنضم إلى الجهة التي تحقق مصالحها. وقد كانت حدياب من أهم إمارات الدولة الفرثية

(٦٣) لقد اختلف الباحثون في تحديد هذه التواريخ فقد عين البعض تاريخ ارتقاء أرطبان العرش الفرثي سنة ١١ م بدلاً من ١٦ ووفاته سنة ٤١ م بدلاً من ٣٨ م. كما عين البعض تاريخ تولّي أونون الحكم سنة ٨ م بدلاً من ٤ م. ولقد اعتمدنا على كتاب نيوزنر «تاريخ اليهود في بابل» في تعيين التواريخ المذكورة أعلاه. لذلك تعتبر هذه التواريخ تقريبية لاختلاف الباحثين فيها.

من حيث موقعها في قلب الأمبراطورية الفرثية ومن حيث ثروتها الاقتصادية والبشرية. ومن غريب وقائع اليهود التي حدثت في عهد الملك أرطبان الثالث أن أخوين يهوديين اسم أحدهما أسينوس والآخر أنيلوس من سكان نهر دعة (انظر ما يلي عن نهر دعة) شقًّا عصا الطاعة على الحكومة الفرثية وألَّفا عصابة من المتشردين وقطَّاعي الطرق، ابتنوا لهم قلعة وأخذوا يجمعون الإتاوة من أصحاب الأغنام في المناطق المجاورة لقاء حمايتهم، وأخذ يتسع نفوذهم في المنطقة فاسترعى ذلك انتباه واهتمام ملك الفرثيين وكان آنذاك أرطبان الثالث على دست الحكم (١٦ ـ ٣٨ م) فأوعز إلى حاكم بابل أن يجهز حملة على الأخوين المتمردين لتأديبهم وسوقهم للعقاب. ولما بلغ الأخوين خبر هذه الحملة اتخذوا الحيطة وباغتوا رجال الحملة وقضوا عليها بقتل أكثر أفرادها وهروب الباقين منهم في قيد الحياة. وعلى إثر ذلك ارتأى الملك أن يسالم العصابة ويتفق مع زعيميها فدعاهما إلى قصره بعد أن منحهما وعد الأمان على حياتهم وأقام أسينوس حاكماً على منطقة بابل. وكانت بابل آنئذ من مصب الفرات ودجلة في الخليج العربي إلى جوار هيت على الفرات وسامراء على دجلة. وبطبيعة الحال لم يرق ذلك للسريان واليونانيين والفرس القاطنين في المنطقة، وكان الملك يعلم ذلك، ولكنه تعمَّد إناطة حكم بابل إلى وال هو والشعب على خلاف للحيلولة دون اتفاق الجميع فيثورون على الملك، كما أنه كان يرى من مصلحته جذب اليهود إلى جانبه وهكذا بقي أسينوس حاكماً على المنطقة خمس عشرة سنة (٢٠ ـ ٣٥ م) يعاونه أخوه ألينوس، وهو يدير أمور المنطقة بعزم وحكمة فاستتب الأمن والسلام في بابل تحت حكمه. أما الينوس فإنّه شغف بامرأة أحد القواد الفرثيين كانت ذات جمال رائع، ولما قتل زوجها في الحرب تزوجها وأباح لها أن تمارس شعائر دينها الوثني في بيته فاغتاظ اليهود ورفعوا شكواهم إلى أسينوس وطلبوا منه أن يجبر أخاه على تطليق امرأته. فطلب أسينوس من أخيه أن يطلق امرأته ويهجرها، فلما بلغ زوجة ألينوس خبر ذلك قتلت اسينوس سراً بدسها السم له، فاستأثر ألينوس بالسلطة بعد وفاة أخيه. وقد دفعه الغرور وشهوة النهب والغزو إلى أن يجتاح أراضي جاره ميثريدات، ولم يكن هذا من أشراف الفرثيين فقط بل كان من علية حكامهم وكانت زوجته بنت أرطبان الثالث ملك الفرثيين. ولم يدر ألينوس أن القدر ساقه للقيام بهذا الغزو لكي يلقى به حتفه ويجر الويلات على جميع أبناء طائفته في بابل. لقد أعد ميثريدات العدة ونزل ميدان القتال إلاّ أنّ ألينوس هجم ليلاً على معسكره على حين غفلة منه ومزَّق

جيش ميثريدات شر تمزيق وأسره، فأمر ألينوس بأن يُجلد ميثريدات عرياناً ويُشهر راكباً حماراً بمرأى من الجنود. وبعد أن أذاقه مر العذاب أطلق سراحه، وكان ذلك لتجنب المخاطر التي قد يتعرّض لها إذا قتله وهو من العائلة المالكة الفرثية. ولما رجع ميثريدات إلى منطقته حشد جيشاً قوياً أكبر من جيشه الأول وجاء به لينتقم من ألينوس الذي اعتدى عليه من غير أن يتحرش به. حملت جيوش ميثريدات حملتها على بابل وبدلاً من أن يبقى ألينوس قرب المستنقعات التي كانت لجيشه معقلاً طبيعياً يحتمي به تقدم عدة أميال في مفازة بعيدة عن ملاجئه الطبيعية وأنهك قوى جيشه في اشتباكه مع عدوه فقضى ميثريدات على جيشه وولّى ألينوس الأدبار(٦٤). فلما رأى ألينوس فشله أراد أن ينتقم من سكان بابل بعد أن خرجوا من حكمه فجمع عصابته وأخذ يهدد البابليين ويزعج راحتهم، لكن البابليين بعد أن وقفوا على نوايا ألينوس وعصابته باغتوهم ليلاً وهم نائمون وضربوهم ضربة قاضية فاستأصلوهم عن آخرهم(٦٥).

وهكذا انتهى حكم ألينوس وعصابته ولكنه ترك الويلات على اليهود في بابل، فقد كان بين البابليين واليهود المقيمين في بابل عداء طبيعي لما بينهما من اختلاف في الدين والتقاليد والعادات فجاءت حركة ألينوس واندحاره محركة لكوامن الضغائن. لقد أراد البابليون أن يستأصلوا اليهود من ديارهم، إلاّ أن اليهود لما أحسُّوا بضعفهم وعلموا بنوايا البابليين تجاههم أخذوا يهاجرون إلى سلوقية اليونانية على نهر دجلة وبقوا هناك حوالى خمس سنوات حاولوا في خلالها أن يحدثوا فتنة بين اليونانيين والسريان سكان سلوقية فاكتشف هؤلاء نوايا اليهود تجاههم واتفقوا بينهما على إخراج اليهود من البلدة فهجموا عليهم وقتلوا منهم نحو خمسين ألف شخص واضطروهم إلى أن يعبروا دجلة ويستقروا في طيفسون عاصمة الفرثيين على الجانب الأيسر من النهر. وقد ظلّ الفرثيون بعد هذه الحوادث يعانون من هجمات الرومان عليهم بين حين وآخر أشد النكبات حتى أصبح الرومان العدو التقليدي للفرثيين. فقد وقعت عدة حروب بين الطرفين كان الرومانيون يهتمون فيها بيهود بابل ويهود بين النهرين ويحسبون لهم حساباً لكثرتهم ولوجودهم في المملكة الفارسية والمملكة الرومانية، لذلك كانت هذه الحروب تؤثر تأثيراً مباشراً على وضع اليهود في بابل وبين النهرين. فقد زحف

---

(٦٤) Neusner, op. cit., pp. 54-57.

(٦٥) يوسف غنيمة، «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق» ص ٧٢.

الأمبراطور تراجان سنة ١١٥ م على بلاد بين النهرين وبابل وتمكَّن من الاستيلاء على المدائن في السنة التالية، وكان ذلك في زمن خوسرو (١١١ ـ ١٢١ م) فأنزله تراجان من العرش وأجلس مكانه برناتسياط، وفي أثناء ذلك عصت ما بين النهرين على تراجان عندما كان منشغلاً في منطقة الخليج العربي فأرسل عليها قائده لوسيوس كويتيوس فأخضعها وأحرق الرها. ولما كان اليهود قد شاركوا في هذا العصيان ضد الرومان فأصدر تراجان أمراً إلى قائده بالتنكيل بهم فقتل لوسيوس منهم جمعاً غفيراً، إلاَّ أن تراجان توفي سنة ١١٧ م عندما كان في طريق رجوعه إلى روما فانتهز الفرثيون الفرصة وخلعوا برناتسياط وأعادوا الملك خوسرو المخلوع، ولما اعتلى هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م) عرش روما صالح خوسرو ورجع إليه ابنته التي كان تراجان قد سباها. وفي عهد الأمبراطور مرقوس أوراليوس (١٦١ ـ ١٨٠ م) حمل الرومانيون على المدائن سنة ١٦٥ م فخربوها وسبوا أهلها ثم تصالح الفريقان ودام هذا الصلح أكثر من ثلاثين سنة، وكان ذلك في زمن أولفاش الثالث (١٤٨ ـ ١٩١ م). ثم جلس على العرش الفرثي أولفاش الرابع (١٩١ ـ ٢٠٨ م) وكان ذا حزم فتمكَّن من جذب سكان ما بين النهرين إلى جانبه فانقادوا إليه، وما أن بلغ الأمبراطور «سبتيموس سيفير» خبر ذلك حتى زحف على بلاد ما بين النهرين وأعادها إلى حظيرة الرومان وواصل زحفه إلى طيسفون وافتتحها ونهبها فهجرها أكثر أهلها. ومن أخبار آخر ملوك الفرثيين أرطبان الرابع (٢٠٨ ـ ٢٢٦ م) أنه قاتل الرومانيين في السنة ٢١٦ و٢١٨ م وأحرق مدناً كثيرة من مدنهم ثم عقد صلحاً مع الأمبراطور مكرينوس (٢١٧ ـ ٢١٨ م).

وكان الفرس والماديون يحاولون منذ زمن أن يستقلوا ويستولوا على كل مملكة الفرثيين. ولما كانت هذه المملكة مجزأة إلى إمارات يحكمها ملوك مستقلون في شؤونهم، فقد انضم بعض هؤلاء الأمراء المستقلين ومنهم ملك حدياب إليهم، وكان ملك الفرس يومئذ أردشير من آل ساسان فأخضع جميع الملوك في جبال فارس وفي ٢٨ نيسان من سنة ٢٢٦ م قاتل أرطبان الرابع آخر ملوك الفرثيين وانتصر عليه فوقع أرطبان قتيلاً وانهزم رجاله إلى جبال أرمينية المنيعة. وهكذا قضى أردشير على مملكة الفرثيين فانقرضت السلالة الفرثية وقامت مكانها السلالة الساسانية التي ورثت ممتلكات الدولة الفرثية، فلقب أردشير بملك الملوك وعرفته دولته بدولة الساسانيين ونصب أردشير كرسيه في المدائن، وقد ظلت هذه الدولة صاحبة الحل والعقد في هذه البلاد حتى ظهور

الإسلام، وكانت طيلة مدة حكمها الذي دام أكثر من أربعمائة سنة مشتبكة بحروب متواصلة مع الدولة البيزنطية.

٨ ـ اليهود في بابل في عهد الساسانيين (٢٢٦ ـ ٦٣٧ م):

كانت صلة اليهود بالساسانيين متقلبة بين وئام وخصام، فقد اضطهدهم أردشير الأول مؤسِّس الدولة الساسانية (٢٢٦ ـ ٢٤١ م) وسمح للمجوس بالتنكيل بهم لأنهم كانوا قد ساعدوا الفرثيين في حروبهم مع أردشير إلاَّ أنَّ هذا الاضطهاد لم يدم إذ تمكَّن اليهود من إرضاء ملوكهم وخطب ودهم.

وكانت ديانة الساسانيين الرسمية ديانة زرودشت القائل بإلهين، إله الخير وإله الشر، ومن معتقدهم أن توقد النار إكراماً لإله الخير، ومن ذلك ظهرت عندهم عبادة النار، وقد مارسوا أيضاً عبادة الشمس والقمر والنجوم. وسعى الملوك الساسانيون في دعم مذهب زرودشت في كل البلاد الخاضعة لهم فأقاموا معابد للنار في كل قطر فتغلبت ديانتهم هذه على كل الديانات في مملكتهم.

وجرت في هذا العهد حروب كثيرة بين الرومانيين والساسانيين، فتارة يكون النصر حليف الفريق الأول وتارة أخرى حليف الفريق الثاني. وكان الشرق الأدنى ميداناً للقتال وبخاصة بلاد ما بين النهرين. وقد لحق اليهود كثير من الأذى والاضطهاد في هذه الحروب. وليس ذلك بعجيب، فاليهود كشعب غريب يسكن في بلاد أصبحت ميداناً للقتال وساحة للحروب كثيراً ما يكون هدفاً لمظالم حكّام البلاد التي يسكنونها أو الفاتحين الغزاة. فقد قضى أردشير الأول أكثر سني حكمه في حروب متواصلة فاستولى على أرمينية سنة ٢٣٢ م. وحمل أيضاً على بلاد ما بين النهرين، فقاتله الأمبراطور الكسندر سافيروس سنة ٢٣٣ و٢٣٤ م. ومات أردشير سنة ٢٤١ م فخلفه سابور (الجند) الأول (٢٤١ ـ ٢٧٢ م)، وكان شجاعاً فقاتل الرومانيين طول مدة حكمه، ولما حمل والريان قيصر على بلاد ما بين النهرين سنة ٢٥٩ م جرت معركة بين سابور ووالريان انتصر فيها سابور وأسر والريان وأرسله إلى بابل حيث تُوفي. وواصل سابور فتوحاته ففتح مدينة الحضر، ثم احتل أنطاكية وسبى الكثير من أهلها وتوجه بعد ذلك إلى قبادوقية وليقاونية وقيلقية، وحمل عليه غاليانوس ابن والريان سنة ٢٦٠ م. وفي هذه الأثناء هاجم أذينة الثاني ملك تدمر سابور وانتصر عليه وذهب إلى سلوقية وحاصرها سنة ٢٦١ م غير أنه اضطر أخيراً أن يرفع عنها الحصار. وقد لحق اليهود بعض الأذى في هذه الحروب ولاسيما في مدينتهم نهر دعة

ومدرستها[٦٦]، ولكنهم لم يلبثوا أن وطّدوا صلاتهم الودية مع الفرس فتقربوا من السلالة المالكة بوساطة أم الملك سابور الثاني (ذو الأكتاف) (٣١٠ ـ ٣٧٩ م) وكان اسمها أفراهورمز فعاونتهم في شؤونهم وكان لنفوذها على ابنها الملك الأثر الكبير في كسب اليهود عطف الملك سابور الثاني الذي حكم حوالى سبعين سنة. وقد ورد في التواريخ المسيحية أن اليهود قد استغلوا هذا النفوذ ليثيروا حقد المجوس على المسيحيين في المملكة الساسانية. وقد لعب مار صموئيل رئيس مدرسة نهر دعة دوراً مهماً في توطيد العلاقات الحسنة وتمكين عرى الوئام بين الفرس واليهود وسار على هذا النحو أبناء طائفته فأهدوا الهدايا الثمينة الى حكّام البلاد وجاملوهم وأبدوا من التساهل إلى أبعد حد مع المجوس «فأكلوا مأكلهم وقدموا فحماً لهياكلهم». ويقول المستر بارون في كتابه «تاريخ اليهود الاجتماعي والديني» (ج٣: ص ٩٩) إن مركز الحياة اليهودية أخذ يتحرك في خلال القرنين الثالث والرابع من فلسطين إلى العراق بتشجيع من الملوك الساسانيين حتى ازداد عدد اليهود ونمت ثروتهم. ولكن هذه الصلات الودية لم تدم، ففي عهد بهرام الخامس (جور) (٤٢٠ ـ ٤٣٨ م) لاقى المسيحيون واليهود اضطهاداً عنيفاً على يده، إذ كان هذا الملك غليظ الخلق شرس الطباع ومع ذلك كان موضع إعجاب وحب شعبه. كما واجه اليهود في مملكة فارس موجة شديدة من الاضطهاد في عهد أخلافه يزدجرد الثاني وهرمز الثالث وفيروز الأول (٤٣٨ ـ ٤٨٤ م).

وفي سنة ٤٨٨ م ملك قباذ الأول على أثر مقتل أخيه بلاس (٤٨٤ ـ ٤٨٨ م) ومن الأحداث المهمة في عهد قباذ أنه اعتنق مذهب مزدك الذي يُلغي الملكية الفردية ويقول بإباحية النساء وإلغاء الزواج. وكان يهدف الملك من وراء ذلك كسر نفوذ الأشراف ورؤساء المجوس، فاضطرب المجوس والنبلاء وهدّدوه حتى يرجع عن هذا المذهب الإباحي ولكنه لم يصغِ إلى تهديدهم فخلعوه وألقوه في السجن وملكوا مكانه أخاه جماسب سنة ٤٩٦ م، فحمل جماسب على أتباع مزدك واضطهدهم إرضاءً للمجوس والأشراف الذين جاؤوا به إلى الحكم، ولكنه لم يملك طويلاً فإنَّ قباذ تمكَّن من الهروب من السجن بمساعدة بعض الموالين له واللجوء إلى ملك البرابرة الذي ساعده وجهزه بجيش لمحاربة أخيه، فرجع قباذ وحارب أخاه جماسب فقهره وجلس ثانية على كرسي العرش سنة ٤٩٨ م،

(٦٦) انظر ما يلي عن نهر دعة.

فاعتبر هذه المرة بما أصابه فيما سلف ونبذ مذهب مزدك الذي كان قد أخذ به قبلاً، وأعاد الممتلكات لأصحابها وقضى على الحركة وقتل مزدك. وخاض قباذ عدة حروب ضد الرومانيين فأغار أولاً على مقاطعة أرضروم الحالية وافتتحها، ثم توجه نحو آمد فاستولى عليها. وفي تلك الأثناء حمل النعمان ملك الحيرة على أراضي حران والرها ونهبها وسبى منها ١٨٥٠٠ نفس. وعلى إثر ذلك أرسل أمبراطور الروم انسطاس الأول ٤٩١ ـ ٥١٨ م جيشاً إلى آمد واشتد القتال بين الرومان والفرس كانت الغلبة فيه للفرس. ثم عاد الرومانيون فاحتلوا آمد وعقدوا مع الفرس الصلح سنة ٥٠٤ م. إلاّ أن الحرب تجدَّدت بين الفريقين سنة ٥٢٧م وحاول الفرس الاستيلاء على نصيبين ودارا ولكنهم رجعوا خائبين وفي سنة ٥٣١م عبر قباذ الفرات لصد الرومانيين فاضطر إلى التراجع ومات في تلك السنة وجلس مكانه كسرى الأول المعروف بكسرى أنوشروان فعقد هذا الملك الصلح مع الرومانيين في أيلول سنة ٥٣٦ م.

وقد ورد في الأخبار أن مار زوطرة رئيس الطائفة اليهودية (رأس الجالوت)[٦٧] (٤٧١ ـ ٤٩١ م) قام بثورة ضد الدولة في عهد قباذ الأول على الأرجح وأخذ يُجبي الضرائب في منطقة الماحوزى المجاورة لسلوقية[٦٨]، وكان هو نفسه يقود الحركة. ويرى البعض أن الدافع لثورته على حكّام بابل كان لإنقاذ اليهود في بابل وطرد أتباع مزدك عنهم وبخاصة بعد أن تقبَّل الملك قباذ هذا المبدأ. كما يرى آخرون أن إعدام الفرس لمار إسحاق رئيس مدرسة ماحوزى اليهودية في زمن قباذ كان السبب لثورة رأس الجالوت مار زوطرة. وتفيد الأخبار أن هذه الثورة دامت سبع سنوات حتى قُضي عليها بإعدام مار زوطرة على رأس جسر ماحوزى.

يتضح مما تقدّم أن اضطهاد اليهود كان يظهر حيناً بعد آخر في عهد الساسانيين، ولما كان يُجرى الاضطهاد كان اليهود يتحينون الفرص ويبعثون دعاة إلى بني جلدتهم فينتخبون رأس الجالوت سراً. وتشير الأخبار إلى أن رأس الجالوت كان يتمتع بسلطته في عهد كسرى الأول (أنوشروان) في سنة ٥٥٠ م.

---

(٦٧) «رأس الجالوت» اصطلاح عربي كان يُطلق على رئيس الطائفة اليهودية في دار الإسلام، وأصل اللفظة آرامي تعني رئيس الجالية، وكان اليهود يطلقون عليه لقب «ريش جالوتا». (انظر ما يلي عن رأس الجالوت).

(٦٨) انظر ما يلي عن بلدة ماحوزى.

كما تدل المعلومات التي بين أيدينا على أن اليهود كانوا في اكثر الأحيان يشاركون الفرس في حروبهم ضد الرومانيين البيزنطيين لاسيما بعد أن استفحل العداء بين اليهودية والمسيحية على عهد الملوك البيزنطيين الذين تبنوا المسيحية ودعموها وجعلوها الديانة الرسمية لمملكتهم.

وقد شهد اليهود اضطهاداً في عهد كسرى الثاني (أبرويز) (٥٩٠ ـ ٦٢٨م)، وكان ذلك نتيجة للنزاع على العرش الذي وقع بين هرمز السادس (٥٧٩ ـ ٥٩٠ م) وبهرام السادس (٥٩٠ ـ ٥٩٦ م) وقد كان هرمز من المناوئين لليهود فأغلق مدارسهم واضطهدهم، ولما تمكّن بهرام من إسقاط هرمز وحلّ محله أوقف اضطهاد اليهود فأيّدوه بطبيعة الحال وانضموا إلى جانبه. ثم انتقل النزاع فاحتدم هذه المرة بين بهرام وبين منافس جديد هو كسرى الثاني (أبرويز) (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) وكان الأخير موالياً للبيزنطيين والمسيحيين فانتصر على بهرام وحل محله، فحكم بالقتل بعد اعتلائه العرش على كل من أيّد بهرام ومن ضمنهم اليهود فقتل الكثير منهم ونكل بهم. وقد سجل كسرى الثاني انتصارات مهمة في فتوحاته حتى أوصل حدود مملكته إلى أبعد حد شهدته مملكة الساسانيين في تاريخها[٦٩]. ولما فتح المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص في عهد الخليفة عمر (رض) بلاد الرافدين فكان نصيب اليهود في العراق كسائر أصحاب الأديان في هذه الأقطار فمنهم من دانوا بالإسلام ومنهم مَن أدُّوا الجزية[٧٠].

ويمكن أن نخرج من العرض المتقدم بما خلاصته أن اليهود في بابل كانوا يؤلِّفون عنصراً مهماً في المجتمع. ففي العهد الفرثي لعبوا دوراً مهماً في السياسة الدولية إذ كانوا يتمتعون بحرية دينية وباستقلال ذاتي، وقد مرَّ بنا ذكر الدور السياسي الذي لعبته إمارة حدياب اليهودية وحكم الأخوين اليهوديين أسينوس وأنيلوس في بابل في العهد الفرثي[٧١]. أما في العهد الساساني فكان دورهم محدوداً في الميدان السياسي بل معدوماً. ومع أنهم تمتعوا بشيء من الحكم الذاتي في زمن بعض الملوك الساسانيين، إلاّ أنهم تعرضوا إلى أنواع التعذيب والتقتيل والتنكيل في زمن البعض من ملوك ساسان كالاضطهاد الذي تعرضوا له في زمن بهرام الخامس (جور) وفي زمن يزدجرد الثاني وهرمز الثالث وفيروز

---

(٦٩) انظر كتاب نيوزنر «تاريخ اليهود في بابل» الأجزاء ٢ ـ ٥ و Neusner, Op. Cit., Vols. 2-5

(٧٠) يوسف غنيمة «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ص ١٠١.

(٧١) انظر ما تقدّم عن ذلك.

الأول (٤٢٠ ـ ٤٨٤ م) وفي زمن كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨ م) وإعدام المار إسحق رئيس مدرسة ماحوزى والمار زوطرة رأس الجالوت في عهد قباذ الأول (٤٤٨ ـ ٥٣١ م).

وقد تميَّز نشاط اليهود في بابل بالجهود التي بذلها رجال الدين في تأسيس المدارس والمعاهد الدينية وبالمدن والقرى التي أسَّسوها لهم حتى ليقال ان السبي البابلي كان عاملاً قوياً في تطوُّر الدين اليهودي في القرون التالية. وفي ذلك يقول كونكل في كتابه «إسرائيل وبابل»: «إن علم الآثار قد برهن على أن المقومات الأساسية للتوراة هي بابلية صرفة» فتأثير بابل على الديانة اليهودية وثقافتها وآدابها كان بكل تأكيد عظيماً جداً.. لقد نقل نبوخذنصر «كل الرؤساء وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والأقيان» وأدخلهم إلى قلب المجتمع البابلي في وسط دائرة المحيط البابلي فتشربوا بالحضارة البابلية وآدابها[٧١أ].

ففي بابل كتب التلمود البابلي[٧٢]. ولهذا الكتاب أهمية خاصة بالنسبة لتاريخ العراق ففيه بحوث عن مدن وقرى وأنهر العراق وجغرافيتها كما كانت عليه في عهد تدوين هذا الكتاب. فقد وردت فيه أسماء مدن وأنهار وقرى وغير ذلك مما ساعد كثيراً في فهم جغرافية العراق في عصور ما قبل الميلاد وما بعده. وقد يُحسن عرض نبذة عن جغرافية مدن وقرى وأنهر بابل في تلك العصور لما لذلك من صلة بتاريخ يهود العراق القديم.

٩ ـ جغرافية أنهر ومدن منطقة بابل في عهد السبي البابلي وما بعده:

سبق أن ذكرنا فيما تقدّم أن الكلدانيين منحوا أخصب المقاطعات في منطقة بابل لليهود فاستقروا في السهل الواسع الممتد بين نهر دجلة شرقاً ونهر الفرات غرباً وهو يُعتبر من أخصب أراضي دلتا الرافدين. وكان نهر الفرات في ذلك العصر يغذي سيحا بعد دخوله حدود الدلتا أربعة جداول رئيسية كانت كلها تتفرع من ضفته اليسرى وتتجه موازية بالتسلسل الواحد تلو الآخر صوب نهر دجلة فتصب فيه بعد أن تروي سيحا الأراضي الزراعية الواقعة بين الفرات ودجلة في المنطقة التي تمتد بين بغداد والكوت على نهر دجلة وبين الأنبار والناصرية على

(٧١ أ) H. Gunkle «Israel and Babylon», Philadelphia 1904, pp. 12, 20-22.

(٧٢) انظر ما يلي عن ذلك.

نهر الفرات. واتجاه هذه الجداول من الفرات إلى نهر دجلة فرضته طبيعة أراضي بين النهرين التي تنحدر في هذا الاتجاه، أي من الفرات الى دجلة، إذ يقع مستوى الفرات عند الأنبار أعلى من نهر دجلة بحوالى تسعة أمتار وبعد أن يصل إلى الناصرية يصبح أوطأ من نهر دجلة بنفس الارتفاع تقريباً. وهذا ما يُساعد على شق جداول من الضفة اليسرى لنهر الفرات من جنوب الأنبار تنحدر عبر أراضي بين النهرين صوب دجلة، ثم شق جداول من الضفة اليمنى لنهر دجلة من عند الكوت تنحدر عبر اراضي بين النهرين صوب نهر الفرات. وهنا يأخذ نهر الغراف اليوم من الضفة اليمنى لنهر دجلة وينحدر صوب نهر الفرات إلى الناصرية على الفرات. وهكذا نرى أن الطبيعة زودت منطقة بابل بنهريها دجلة والفرات بعد دخولهما أرض الدلتا بالوسائل المطلوبة لاستغلال أراضي هذه المنطقة زراعياً بتوفير الأرض الرسوبية الخصبة والماء السيحي. فأقام اليهود المسبيون مزارع وقرى وامتلكوا الأراضي وأخذوا يمارسون الزراعة التي تعتمد على الري وتربية المواشي، فحفروا شبكة من جداول الري لإيصال المياه سيحاً إلى الأراضي الزراعية وعنوا بصيانتها وتطهيرها بحيث تحولت هذه المنطقة إلى حقول مثمرة وبساتين منتجة ولما كانت المدن والقرى قد أُقيمت في الغالب على الأنهر والجداول حيث الماء الذي يكوّن العنصر الأساسي للحياة فندرج فيما يلي نبذة عن جغرافية هذه الأنهر والجداول في منطقة بابل التي سكنها اليهود المسبيون:

كان أول الجداول الأربعة التي تأخذ من الضفة اليسرى لنهر الفرات من جنوب الأنبار يسير في اتجاه مجرى الصقلاوية القديم (مجرى الكرمة الحالي) الذي يقطع الأراضي المنبسطة الواقعة بين الفرات ودجلة ماراً بمنخفض عقرقوف غربي بغداد ثم يصب في دجلة جنوبي بغداد في مبزل الخر أو الوشاش الحالي، وصار يُعرف هذا الجدول في زمن العرب بـ «نهر عيسى». وقد ورد اسم هذا الجدول بالعبرية «نهر شنووثا» وكانت عند صدره بلدة «فومبديثا» كما كانت بلدتان على ضفته اليسرى هما «ففونيا» و«شلحي».

أمّا الجدول الثاني فكان يسير في اتجاه جدول أبي غريب الحالي الذي يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفرات في نقطة تقع على بُعد حوالى ثمانية كيلومترات جنوبي الفلوجة ويسير بموازاة الجدول الأول وصار يُعرف في زمن العرب بـ «نهر صرصر» وكانت تقع عليه مدينة صرصر على طريق الحج الرئيس بين بغداد والكوفة.

وكان الجدول الثالث يأخذ من الضفة اليسرى لنهر الفرات أيضاً من جنوب

نهر صرصر فيتجه نحو الشرق في اتجاه نهر دجلة إلى جنوب سلوقية (تل عمر) ثم يمتد بموازاة ضفة نهر دجلة اليمنى حتى يصب في دجلة. وكان يُعرف هذا الجدول القديم بـ «نهر ملكا» وهو يرجع إلى العهد الآشوري وقد سُمِّي في زمن العرب بنهر الملك، وكان هيرودوتس من أقدم المؤرِّخين الذين أشاروا إلى هذا النهر فقال في وصفه: «وكما هي الحال في مصر ففي كل أنحاء بابل ترع وجداول وإن أكبر هذه الجداول هو النهر الذي يسير باتجاه شمس الشتاء والذي لا يمكن المرور به إلاَّ بالسفن. ويتفرع هذا الجدول من نهر الفرات ثم يصب في النهر المُسمَّى دجلة الذي تقوم عليه مدينة نينوى». وقد أورد ذكر هذا الجدول الكبير كل من بوليبيوس وسترابون وبلينيوس وإميان مرقلان. وكان على صدر هذا الجدول بلدتان هما «نهر دعة» و«هغرونيا».

أمَّا الجدول الرابع فكان يُعرف بنهر كوثى فيأخذ من الضفة اليسرى لنهر الفرات من جنوب نهر ملكا ويقتفي أثر مجرى نهر الفرات القديم الذي يمر بكوثى قبل تحوله إلى جهة بابل، وقد وصفه ابن سرابيون بقوله: «ويحمل من نهر الفرات ايضاً نهر يُقال له نهر كوثى أوله أسفل من نهر الملك بثلاثة فراسخ وهو نهر كثير الضياع والقرى وعليه جسر يتفرع منه أنهار تسقي طسوج كوثى من كورة اردشير بابكان وبعض طسوج نهر جوير ويمر بكوثى ويصب في دجلة أسفل المدائن بعشرة فراسخ في الجانب الغربي».

وعلى مسافة ستة فراسخ (حوالى ٣٠ كيلومتراً) من صدر نهر كوثى جنوباً كان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفرات أيضاً جدول خامس يُعرف بنهر سورا فيمتد شرقاً نحو نهر دجلة حيث يصب فيه في جوار النعمانية الحالية الواقعة على الضفة اليمنى من نهر دجلة. وكان على صدر هذا النهر بلدتان إحداهما تُسمَّى «سورا»، وهي التي اشتهرت بمدرستها الفقهية اليهودية، إحدى كبريات المدارس اليهودية في بابل[٧٣]. والثانية كانت تُسمَّى «شارمحسية» على الجانب الثاني من سورا. وكان يتفرع من هذا الجدول عدة فروع من الجانبين تسقي الأراضي الزراعية الممتدة بين الفرات ودجلة. وصار يُعرف هذا الجدول في قسمه الأخير في زمن العرب باسم نهر النيل. ويُروى أنه سُمِّيَ كذلك في زمن الحجاج الذي جدّده ووسعه فكان من السعة بحيث شُبِّه بنيل مصر.

---

(٧٣) انظر ما يلي عن هذه المدارس.

وكان مجرى الفرات الرئيسي يمر حينذاك ببابل باتجاه شط الحلة الحالي، وكان ينقسم عند موقع قناطر الهندية الحالية فرعين، الفرع الشرقي وهو مجرى نهر الفرات الرئيس يسير جنوباً باتجاه شط الحلة الحالي حتى إذا قطع مسافة عدة كيلومترات في سيره تفرّع من ضفته اليسرى جدول كان يُعرف بجدول النرس وهو يسير باتجاه نهر الدغارة الحالي الذي تقع عليه بلدة عفك الحالية، وكان عليه مدينة نرش التي كانت فيها مدرسة فقهية لليهود. أما الفرع الثاني فكان يسير جنوباً باتجاه مجرى شط الهندية الحالي إلى الغرب من نهر الفرات الرئيس الذي يمر ببابل، ويمر هذا الفرع بمدن «المجدل» و«كفرى» و«الكفل» وينتهي إلى الكوفة، وهنا ينقسم قسمين، الفرع الشرقي وكان يُعرف بـ «نهر بداة» كانت عليه بلدة «بديثة لباء». أمّا الفرع الغربي فكان يمر بالحيرة وعليه بلدة «هينى - شيلى».

ويلاحظ هنا أن أسماء المدن التي وردت بالعبرية هي تسميات آرامية أو بابلية لأن اليهود المسبيين عندما جيء بهم إلى بابل كانوا يتخاطبون فيما بينهم باللغة الآرامية ثم اقتبسوا اللغة الكلدانية من أهل البلاد، أمّا العبرية فقد كانت لغة كتبهم المقدسة وطقوسهم الدينية. فعندما كتبوا التوراة نقلوا أسماء هذه المدن التي أصلها بابلي أو آرامي بأسمائها الأصلية.

وقد ورد في التوراة ذكر نهر باسم نهر خابور في منطقة بابل كان قد سكن اليهود المسبيون على ضفتيه وبينهم النبي حزقيال الذي رأى هناك كثيراً من الرؤى[٧٤]. وهذا هو غير نهر خابور الذي يجري على مقربة من نصيبين في أعالي بلاد ما بين النهرين ويصب في نهر الفرات. وخابور اسم أكدي ولفظه في العبرية «كبار». وهذا ما يدل على أن هذه التسمية قديمة ترجع الى ما قبل السبي البابلي. كما ورد في التوراة ذكر بلدة عند نهر خابور باسم «تل أبيب» سكنها النبي حزقيال مع اليهود المسبيين في بابل[٧٥]. ولا يُعرف بالضبط مكان نهر خابور غير أن من المحتمل أنه كان فرعاً يأخذ من شط الهندية بالقرب من الكفل حيث مرقد النبي حزقيال[٧٦]. أمّا بلدة تل أبيب فاسم بابلي معناه تل سنابل القمح، ويظن البعض أن موقعها كان في موضع تل أبان الحالي[٧٧]. ومن

---

(٧٤) حزقيال ١: ١ و٣، و٣: ١٥ و٢٣، و١٠: ١٥ و٢٠.

(٧٥) حزقيال ٣: ١٥.

(٧٦) انظر ما تقدم عن النبي حزقيال.

(٧٧) قاموس الكتاب المقدس، الطبعة الجديدة، ص ٣٣٤ و٢٢١،

الغريب أن اليهود اتخذوا اسم تل ابيب لمدينتهم الجديدة في إسرائيل على اعتبار أنها مدينة يهودية في حين إنها مدينة بابلية كانت موجودة بهذا الاسم قبل نقل الأسرى اليهود إلى بابل.

وقد ورد في التوراة أيضاً ذكر نهر باسم «نهر أهوا»، وهو اسم لنهر ولمنطقة في بابل. وقد تجمَّع فيه اليهود المسبيون عند عودتهم مع عزرا إلى أورشليم[(٧٨)]. كما ورد ذكر موقع باسم «تل ملح»، وهو أحد الأماكن البابلية التي سكنها اليهود المسبيون في بابل[(٧٩)].

ويُعتقد أن كثافة السكان في منطقة بابل كانت على أشدها في العهد الساساني، فكانت المدن والقرى منتشرة على شبكة الأنهر والجداول التي كانت تغطي كل الأراضي الممتدة بين النهرين. وقد كانت أكثر المدن والقرى آهلة بالسكان الأصليين ومعهم نسبة قليلة من اليهود يقطنون إلى جانبهم، وفي حين أن هناك مدناً وقرى كانت خاصة باليهود وحدهم. وقد أحصى الباحثون عدد المدن والقرى في المنطقة في ذلك العصر ٤١٥ قرية ومدينة منها أكثر من ثلاثمائة قرية والباقي من المدن الكبيرة والصغيرة. أمَّا عدد السكان اليهود فقد قُدِّر بين ستمائة ألف وثمانيمائة ألف نسمة، وذلك على أساس أن مجموع عدد سكان المنطقة يبلغ ستة إلى ثمانية ملايين نسمة كان عشرهم أو ثمنهم من اليهود[(٨٠)]. فقد ورد ذكر ماينيف على مائتي مدينة بابلية في التلمود (انظر ما يلي عن التلمود) كانت تسكنها أسر يهودية بعد حكم الفرس (نقلاً عن كتاب لايارد «نينوى وبقاياها»).

١٠ ـ النشاطات الفقهية اليهودية في فلسطين وفي بابل:

لقد تميّز المجتمع اليهودي في فلسطين وفي بابل بنشاطاته الفقهية وذلك بجمع الشرائع اليهودية وتقنينها وشرحها وتفسيرها. ففي فلسطين، كان نظام المجتمع اليهودي بعد رجوع المسبيين من بابل في أواخر القرن السادس قبل الميلاد يتألف من حكومة ثيوقراطية في ظل السيادة الفارسية يديرها الكهنة كنواب عن الله. وأوَّل مَن باشر هذا النظام الديني عزرا الكاتب، فهو الذي جمع أسفار التوراة ودوَّنها وحثَّ على التقيد بنصوصها. ولتطبيق ذلك عملياً أخذ يقرأ التوراة

---

(٧٨) عزرا ٨: ١٥ و٢١ و٣١.

(٧٩) عزرا ٢: ٥٩، نحميا ٧: ٦١.

(٨٠) Neusner, op. cit., II, pp. 246-250.

أمام العامة مع ترجمة النصوص من العبرية ثم يلحقها بشروح وتفسير وإيضاح. هذا مع العلم أن اليهود كانوا آنذاك يتخاطبون ما بينهم باللغة الآرامية، لغتهم الأم، وقد تعلموا الكلدانية البابلية في خلال مدة إقامتهم بالأسر في بابل.

أ ـ المجلس الديني الأعلى «سنهدرين»:

وقد امتد النظام الثيوقراطي في فلسطين حتى ثورة المكابيين سنة ١٦٧ ق.م. ثمَّ أُلغي وأُبدِل بنظام نومقراطي يستند إلى حكم القانون، واستمر هذا النظام الأخير حتى هدم الهيكل سنة ٧٠ ب.م. وقد نشأ عن هذا النظام القائم على الأحكام القانونية المجمع الديني الأعلى «سنهدرين» في أورشليم سنة ١٤١ ق.م. وقد بقي هذا المجمع قائماً في العهد الروماني حتى إلغائه سنة ٧٠ م. وقد منح الرومان السنهدرين صلاحيات دينية واجتماعية واسعة شريطة عدم تأثير ذلك على المصالح السياسية للدولة الرومانية. والسنهدرين هو الذي قام بمحاكمة المسيح ومن ثمَّ بصلبه سنة ٢٩ ب.م. على ما جاءت به الأخبار[٨١]. وكان السنهدرين آنئذ في أوج نفوذه وصلاحياته[٨٢].

وكانت رئاسة السنهدرين في الفترة من ١٥٠ الى ٣٠ ق.م. تتألف من شخصين، يشغل الأول منصب رئاسة السنهدرين ولقبه الناسي، ويشغل الثاني منصب نائب الرئيس أو رئيس بيت الدين. وكانت أبرز شخصيتين في هذه الرئاسات الازدواجية الرئاسة الخامسة التي كان يشغلها كل من «هيلل» و«شماي» فصار الأول يمثل في السنهدرين الجناح المتحرر المتساهل في التعاليم والميال إلى التسويات في حين يمثل الثاني الجناح الشديد المحافظة على التقليد بحيث يضيق مجال التفسير. وكان لا بدَّ من انضمام رجالات المجمع إلى إحدى هاتين المدرستين. ثم توحَّدت رئاسة السنهدرين في الجيل الأول للميلاد وانحصرت في شخص واحد «جملئيل الأكبر» حفيد هيلل وسُمِّيَ بالربان وقد ورث رجال هذا الجيل الخلافات في وجهة النظر عن مدرستي «هيلل» و«شماي». وممَّن تولوا رئاسة السنهدرين بعد جملئيل الأكبر في القرن الأول للميلاد ابنه شمعون وبقيت رئاسة السنهدرين في بيت هيلل حتى أُلغيت.

وقد وُلِّي هيلل رئاسة السنهدرين في أواخر القرن الأول قبل الميلاد (من

---

(٨١) إنجيل مرقس ١٤: ٥٣ ـ ٦٤، إنجيل متى ٢٦: ٥٦ ـ ٦٨.

(٨٢) S.B. Hoenig, «The Great Sanhedrin»., Enc. Brit., 1965, 19: 945 A; Rabbi M.A. Gustein, «Sanhedrin» on Collier Enc., 1957, 17:324.

سنة ٣٠ إلى ٩ ق.م.) وكان يُعرف باسم البابلي لأنه قَدِمَ من بابل إذ وُلِد في بابل سنة ١١٠ ق.م. ثم انتقل إلى القدس حيث وُلِّيَ رئاسة السنهدرين وتُوفي فيها سنة ١٠ م بالغاً من العمر العشرين بعد المائة. وجعله التقليد الرباني منحدراً من نسل داود. أما شماي فكانت مدرسته تؤلف كتلة المعارضة في السنهدرين كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ويُذكر بنيامين أن قبر هيلل وشماي في ميرون، وهي قرية في الجليل تبعد ثلاثة أميال شمال صفد[٨٣].

وكان من مهام السنهدرين تقنين وتفسير الشرائع اليهودية، وهي شريعة موسى المكتوبة الواردة في أسفاره الخمسة (بنتاتيك) والشريعة الشفهية المستندة إلى العادات والتقاليد والعرف التي تشكِّل على ما يرى بعض رجال السنهدرين جزءاً من الشريعة اليهودية. ويزعم هؤلاء بأنَّ الشريعة الشفهية ألقاها النبي موسى شفاهة على أتباعه، ثم تداولها هرون واليعازر ويشوع وسلموها للأنبياء ثم انتقلت من الأنبياء إلى المجمع الديني الأعلى (سنهدرين) وخلفائهم حتى القرن الثاني بعد المسيح. وهكذا صار اليهود القدماء يميزون بين الشرائع الواردة في أسفار موسى الخمسة (التوراة المكتوبة) وبين أحكام الشريعة الشفهية التي صارت تُعرف بـ «حلقوت» جمع «حلقا» مما أحدث اختلافاً سياسياً ودينياً بين فئتين من اليهود أدّى إلى انشقاق عظيم الشأن والتأثير وهاتان الفئتان هما الصادوقيون والفريسيون.

ب ـ الصادوقيون والفريسيون:

ظهر الصادوقيون كفرقة من الفرق اليهودية في حوالى سنة ٢٠٠ ق.م. وهم من سلالة صادوق أحد كبار الكهنة في زمن داود مبدؤهم هو قبول اليهودية كمعتقد فقط (مع بعض الاختلافات المتعلقة بالعقائد والشعائر) والعيش كأفراد عاديين مندمجين في باقي المجتمع البشري. فحاولوا الخروج على زعمائهم وأنكروا أن القانون الشفهي منزّل من السماء أو مروي عن موسى فرفضوا كل ما يأتي به الكهنة والكتبة مما هو خارج أسفار موسى الخمسة، مفضلين العيش بين باقي البشر مندمجين في المجتمع الإنساني، وكان هؤلاء قد تأثّروا بالثقافة والمدنية اليونانية. وكان لهم في السنهدرين ممثلون نحو عشرين عضواً من أصل سبعين عضواً. وكان من نتيجة ذلك أن تألف حزب مضاد لحركة الصادوقيين من

(٨٣) رحلة بنيامين ١١٣.

اليهود الأرثوذكس سمُّوا أنفسهم «الفريسيين» أي «المنفصلين» أو «المنشقين» وهدفهم إبقاء اليهود مفصولين عن بقية شعوب العالم. والفريسيون برزوا كفئة مستقلة بعد ثورة المكابيين في حوالى ١٦٥ ـ ١٦٠ ق.م. وتبوَّؤوا المسرح اليهودي حتى مائتي سنة بعد الميلاد. فهم الذين أوجدوا الشريعة الشفهية، إذ كانوا ينادون بقبول أحكام الشريعة الشفهية بالإضافة إلى التوراة المكتوبة (توراة الأسفار الخمسة)، لذلك غرزت عندهم الأساطير وانغمسوا في المظاهر الكاذبة. وكان هؤلاء يتبعون عزرا الكاهن المتوفى سنة ٤٤٤ ق.م. والكتبة اليهود الأقدمين كانوا يلقبون بالربانيين لأنهم يؤمنون بما جاء في الشريعة الشفهية التي دوَّنها الربانيون أحبار هذه الفرقة وفقهاؤها، وقد كان «هيلل» و«شماي» اللذان تولاَّ الرئاسة الازدواجية للسنهدرين قبل توحيدها ينتميان إلى الفريسية. وقد لعب الفريسيون بعد تغلبهم على الصادوقيين دوراً رئيساً في كتابة الشرائع اليهودية وتاريخ اليهود القديم المشحون بالأساطير من وجهة نظر فريسية. مع العلم أن اليهودية الأرثوذكسية المستندة إلى هذه الشرائع نشأت في بابل في حوالى أربعمائة سنة قبل الميلاد وهي كلمة أصلها يوناني وقد أعطيت لليهود في تشريعات عزرا ونحميا(٨٤). وهذه الأرثوذكسية تؤمن بالشرائع الشفهية إيمان الفريسيين وتعتبر الصادوقيين ضالين، وهي الأرثوذكسية اليهودية نفسها الحاكمة في إسرائيل اليوم(٨٥).

ج ـ الكتبة الفريسيون (سوفريم) والمدراش:

وانطلاقاً من الحركة الفريسية برزت فئة أُطلق عليها اسم «الكتبة»، وبالعبرية «سوفريم» أي كتبة الأسفار تولت مهمة جمع القسم الأكبر من الشريعة المكتوبة الواردة في أسفار موسى الخمسة مع إضافة بعض الشروح والتفسيرات عليها علاوة على جمع الشريعة الشفهية (حلقوت) وشرحها وتفسيرها. وقد نُسب إلى هؤلاء الكتبة أيضاً إدخال بعض الشعائر والطقوس الدينية وتعديل بعض الشرائع التوراتية وتكييفها وفقاً لمتطلبات الحياة. وتبدأ هذه المرحلة من دور الكتبة بمجيء عزرا الكاتب باعتباره أول من سُمِّيَ بالكاتب وعمل في هذا المجال وتمتد حتى عصر المكابيين (٤٥٠ ـ ١٠٠ ق.م.). أما الكتبة اللاحقون فقد انحصر «نشاطهم الرئيس في حقل نشر التعليم الديني إلى جانب التشريعات

---

(٨٤) «التوراة ـ تاريخها وغاياتها» ترجمة وتعليق سهيل ديب، ص ٢٠.

(٨٥) ظفر الإسلام خان، التلمود ـ تاريخه وتعاليمه، ص ٣٢.

والمراسيم التي كان لها إثر في ترتيب التوراة وإثبات نصها المعياري»[٨٦].

ويقصد بكلمة كتبة بشكل خاص مدونو الشريعة والكتب المقدسة بعد السبي إلى بابل إلى جانب الفريسيين. ولهؤلاء في «العهد الجديد» سمعة سيئة جداً أذ يحمّلهم المسيح وتلاميذه على السواء مسؤولية التحريف الكبير في الكتب المقدسة السابقة (الويل لكم أيُّها الكتبة والفريسيون)[٨٧].

وصار يُعرف التعليم الشفهي للتوراة الذي تناقله العلماء اليهود شفهياً من جيل إلى جيل بالمدراش، وهو توسع شفهي مع بعض التصرف في النصوص التوراتية، ولكنه أصبح بعد تدوينه في القرن السادس للميلاد جزءاً من التراث اليهودي.

وقد تمخَّض عن أعمال الكتبة الفريسيين وكهنة السنهدرين والربانيين أن أعدَّ كتاب ضخم بعدة أجزاء يضم ما جمع من الشريعة المكتوبة الواردة في أسفار موسى الخمسة والشريعة الشفهية مع ما أُضيف عليها من شروحات وتفسيرات، وصارت هذه المجموعة وملحقاتها تُعرف في وقت لاحق بكتاب التلمود الذي أصبح عند اليهود جزءاً من أحكام الديانة اليهودية.

د ـ التلمود:

التلمود معناه التعاليم أو الشرح أو التفسير، وهو مجموعة الشرائع اليهودية التي نقلها علماء اليهود شرحاً وتفسيراً للتوراة واستنباطاً عن أصولها. وأصل كلمة تلمود من العبرية «لاماد» أي معلم. ويُقسم التلمود قسمين: «المشنة» وهي النص أو المتن و«الجمارا» وهي التفسير أو الشرح، والتلمود هو الاسم الجامع للمشنة والجمارا معاً. و«المشنة» عبارة عن مجموعة من تقاليد اليهود المختلفة في شتى نواحي الحياة اليهودية المعروفة بـ «حلقوت» مع بعض الآيات من كتاب التوراة. أما «الجمارا» فهي مجموع المناظرات والتعاليم والتفاسير التي وُضعت في المدارس الدينية العالية بعد الانتهاء من وضع المشنة. ويعتبر أكثر اليهود وبخاصة الأرثوذكسية اليهودية التلمود كتاباً منزلاً يضعونه في منزلة التوراة ويرون أن الله أعطى موسى التوراة على طور سيناء مدونة، ولكنه أرسل على يده التلمود شفاها[٨٨].

وهناك تلمودان، يُعرف أولهما بالتلمود الفلسطيني ويُسمّيه اليهود

---

(٨٦) الدكتور أسعد رزوق، «التلمود والصهيونية»، ص ١٢٦.

(٨٧) «التوراة ـ تاريخها وغاياتها»، ترجمة سهيل ديب، ص ٧٨.

(٨٨) الدكتور أحمد شلبي، «مقارنة الأديان ـ اليهودية»، ص ٢٦٦.

الأورشليمي[٨٩]. ويُعرف الثاني بالتلمود البابلي[٩٠]. ولكل من هذين التلمودين طابعه الخاص وهو طابع البلد الذي وضع فيه، ولغتا التلمودين مختلفتان تمثلان لهجتين آراميتين، التلمود الفلسطيني بالآرامية الغربية، أمّا التلمود البابلي فلهجته آرامية شرقية أقرب إلى المندائية (العراقية)، وقد احتوى على بعض مصطلحات يونانية لاتينية، وحجم التلمود البابلي أوسع من التلمود الفلسطيني بأربعة أضعاف ويقع في ٥٨٩٤ صفحة ويُطبع عادة باثني عشر جزءاً.

وفي التلمود تأكيد لمبدأ الاستعلاء والتفوق العنصري اليهودي على بقية شعوب الأرض وجعل الناس عبيداً لليهود على اعتبار أنهم الشعب المختار وأن الله اصطفاهم دون سواهم من شعوب الأرض، كما تتجسم فيه انعزالية الشعب اليهودي وحقه في جميع خيرات الأرض التي وهبها له إلهه الخاص به دون الآخرين من الناس. فكان التلموديون يصورون اليهود «أنهم من طينة أرفع من طينة باقي العالم وأن بقية نوع الإنسان الذين لم يعتنقوا الديانة اليهودية خدم لهم كغيرهم من الحيوانات غير العاقلة»[٩١].

وتحت عنوان «عصر الإيمان» يقول العلامة ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» أن الربانيين والحاخاميين أخذوا يفسرون التوراة حسب أهوائهم بالشكل الذي يُرضي غرائزهم الشريرة ونزوعهم على بقية أجناس البشر. «وينص التلمود على أنه يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع تسلط باقي الأمم في الأرض، لتصير السلطة لليهود وحدهم، فإذا لم تكن لهم السلطة عدّوا كأنّهم في حياة النفي والأسر، ويعيش اليهود في حرب مع باقي الشعوب حتى ينتقل لهم الثراء والسلطان من الجميع وحينئذ يدخل الناس أفواجاً في دين اليهود»[٩٢].

أمّا نظرة التلموديين إلى المسيحية فقد جاء في التلمود كثير من عبارات الطعن والسب للمسيحية وللمسيح ما لا يستسيغه المستوى الأخلاقي الإنساني وإننا نحجم عن نقل هذه العبارات لعدم لياقة ذكرها[٩٣]. ويجيز التلمود استعمال

---

(٨٩) L. Ginsberg «The Palestinian Talmud», N.Y., 1941; Radkinson History of The Talmud. J. Bekley, «The Talmud»,.

(٩٠) C. Danby, «The Babylonian Talmud», London, 1935; Dr. Christian Ginsberg, «The Talmud»,; Drach, «The Harmony betweer the» Church and The Synagoge».

(٩١) «الكنز المرصود في قواعد التلمود»، ص ١٠.
(٩٢) المرجع السابق، ص ٤٨ ـ ٤٩.
(٩٣) الدكتور أحمد شلبي، «مقارنة الأديان ـ اليهودية»، ص ٢٧١.

النفاق مع غير اليهود[٩٤]. «ويقول التلمود بالتناسخ، وهو فكر تسرب لبابل من الهند، وأخذه حاخامات بابل من المجتمع البابلي»[٩٥].

وكان اليهود حريصين أن لا يطّلع على التلمود أحد غيرهم إلاَّ مَن يأمنون جانبه من غير اليهود ممن يؤيد نزعاتهم وميولهم خوفاً من ثورة العالم المسيحي ضدهم، وقد أخفوه أربعة عشر قرناً منذ أن وضعه حاخاموهم. ففي سنة ١٢٤٣م أمرت الحكومة الفرنسية في باريس بالإحراق التلمود علناً بعد أن كشف ما يحتوي عليه من عبارات الطعن والإهانة ضد الأغيار من الناس وضد المسيحية بوجه خاص، وقد تمَّ حرقه عدة مرات في مختلف الأزمان والأقطار.

هـ ـ السامريون والتلمود:

وتوجد هناك فئة قليلة من اليهود لا تعترف من التوراة بغير الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى النبي موسى، وتُعرف هذه الفئة بالسامريين نسبة إلى السامرة وهم يسكنون في نابلس (شكيم القديمة)، وتوجد لديهم نسخة قديمة من الأسفار الخمسة على رق يدّعون بأنَّها ترجع إلى ما قبل عهد المسيح، وهم يرفضون كل ما عداها، ولم يزالوا يتمسكون بها حتى اليوم. وقد استقلت تلك الفئة بكيانها الديني، وعمل اليهود على إخراجها من الحظيرة اليهودية فلم يفلحوا، وقد بنت لها هيكلاً خاصاً بها على جبل «جرزيم» عند نابلس واعتبرته بمثابة «جبل الطور». فقام بينها وبين اليهود عداء استمر قروناً حتى راح السامريون يعينون في بعض الأحيان مَن يقصد ضرب اليهود من الغزاة.

ويعتقد أن هؤلاء السامريين هم بقايا الجماعات التي نقلها الآشوريون من بابل وعيلام وسورية وبلاد العرب ليحلوا محل اليهود الذين تمَّ سبيهم إلى أماكن بعيدة، فاختلطوا مع اليهود الباقين وتكوَّنت منهم هذه الفئة المسماة بالسامريين أو «السامرة» كما سمَّاهم بعض المؤرّخين. وقد تمَّ عزل هذه الطائفة عن المجتمع اليهودي كلياً بعد رجوع اليهود من السبي البابلي وحرمت من التزاوج مع اليهود والاختلاط بهم، ولا تزال بقايا من هذه الطائفة موجودة حتى هذا اليوم في نابلس ولا يتجاوز عدد أفرادها المئتي نسمة ولغتهم التي يتخاطبون بها هي العربية[٩٦].

---

(٩٤) المرجع السابق، ص ٢٦٨.

(٩٥) المرجع السابق، ص ٢٦٧.

(٩٦) Hitti, «History of Syria», pp. 197-198.

وفي رواية للبيروني المتوفى سنة ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) أن السامريين هم الذين أعانوا نبوخذنصر ودلّوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل، لذلك لم يمسهم بأذى[٩٧].

وتقوم عقيدة السامريين على خمسة أركان: وحدانية الله، ونبوءة موسى، وقدسية جبل جرزيم، والإيمان بأنَّ التوراة (الخمسة أسفار الأولى من العهد القديم) منزلة من الله، والإيمان بيوم الدينونة والبعث[٩٨] وبذلك يقف السامريون مع الصادوقيين على صعيد واحد من حيث إنكارهما للشريعة الشفهية وعدم اعترافهما بغير الأسفار الخمسة.

و ـ عصر (التنائيم) أو المعلمين في فلسطين:

وقد دُوِّن التلمود الفلسطيني الأورشليمي في فلسطين، حيث نشأت طبقة من العلماء في القرنين الأولين للميلاد يعرفون بـ «التنائيم» وهي كلمة آرامية جمع «تناء» أو معلم وهؤلاء هم ورثة الفريسيين. فيبدأ عصر «التنائيم» هذا بمدرستي هيلل وشماي وينتهي عند الرابي يهوذا الناسي الملقب بالبطريرك، أحد الأحفاد الكبار للفريسي هيلل، ويعرف أيضاً بالربين الأقدس علَّم في طبرية وصفورية (١٣٥ ـ ٢٢٠ م).

ويهوذا الناسي هو ابن شمعون بن جملئيل الثاني من عوشا تولّى البطريركية حوالى سنة ١٧٠ م يُقال إنه أقام علاقات ودية مع السلطات الرومانية في فلسطين أو آنذاك. وكان يهوذا أوحد فقهاء زمنه عمل حوالى خمسين عاماً في التدريس وجمع مواد التلمود التي أصبحت الأساس للتلمود الفلسطيني، وكانت أكثر أعماله في بيت شيريم من الجليل.

وقد بقي منصب الرئاسة وراثياً في عائلة هيلل أكثر من ثلاثة قرون وقد أخذ هؤلاء «التنائيم» يشرحون أحكام التوراة ويدوّنون قوانينها وتبويب شرائعها في مجموعة صارت تُعرف بالمشنة التي أصبحت فيما بعد أساساً للتلمود. وقد استغرق وضع المشنة حوالى مائتي سنة من سنة ١٠ ميلادية الى سنة ٢٢٠ ميلادية تمَّ إنجازها بعناية الرابي يهوذا الناسي. هذا مع العلم أن النشاط الفقهي اليهودي قد انتقل بعد هدم الرومان للهيكل سنة ٧٠ م من القدس إلى «يبنة» (يمنية الحالية

---

(٩٧) «الآثار الباقية في القرون الخالية»، طبعة لبزيك ١٩٣٢، ص ٢١.

(٩٨) العدد ٢٩ (إبريل ١٩٦١) من مجلة العربي، ص ٨١ و٨٤ ـ ٨٧.

الواقعة في السهل الغربي من فلسطين) وذلك أثناء التمرد اليهودي ضد الرومان (٦٦ ـ ٧٠ م)، حيث تمكّن الربان يوحنان بن زكاي من تنائيم الجيل الأول من مغادرة القدس المحاصرة ليتوجه إلى «يبنة» حيث أسَّس مدرسة للتعليم الديني فأصبحت هذه المدرسة مركزاً للحياة الدينية بعد خراب الهيكل، وقد تولّى رئاسة المدرسة بعد وفاة الربان يوحنان الربان جملئيل الثاني. ثم انتقل الرابي إسماعيل بن اليشا من الجيل الثاني في عهد أنتونينس بيوس ١٣٨ ـ ١٦١ م من «يبنة» إلى «عوشا» في الجليل قرب حيفا الحالية فأسَّس مدرسة هناك حملت اسمه. وأخيراً انتقل الرابي يهوذا الناسي رئيس السنهدرين من «عوشا» إلى «بيت شعاريم» ومنها إلى «صفورية» ثم طبريا. والمهم في هذه المرحلة هو العمل المنسوب إلى الرابي يهوذا الناسي في جمع المشنة وتصنيفها. وبهذا ينتهي دور التنائيم.

وكان يهود بابل في هذه الفترة يرجعون إلى علماء فلسطين للتفقه في مدارسهم ثم يعودون للتدريس في مدارس بابل، كما كانوا يتلقون الفتاوى منهم ويمدون مدارسهم بالمال اللازم لينفق على إدارتها وإعالة طلابها. ولما أخذ الرومان يضطهدون علماء اليهود في فلسطين (١٣٠ ـ ١٤٠ م) اضطر أكثر الربانين وطلاب مدارسهم الهرب من فلسطين إلى بابل حيث استطاعوا الاستمرار على الدرس في هذا المحيط الذي كان يسوده الأمان والحرية الدينية المطلقة.

وممَن اشتهر من الربانين في عصر التنائيم الربان جملئيل الأكبر والربان يوحنان بن زكاي من رباني الجيل الأول، والربان جملئيل الثاني والرابي اسماعيل بن اليشا والرابي عقيبة بن يوسف والرابي مائير أشهر رباني الجيلين الثاني والثالث وأخيراً الرابي يهوذا الناسي (الأمير) من الجيل الرابع الذي اشتهر بانجازه للمشنة[٩٩].

يتضح مما تقدّم أن منظمة السنهدرين أُزيلت من الوجود بعد هدم الهيكل سنة ٧٠ للميلاد وقُضي معه على سلطة الكاهن الأعلى (رئيس السنهدرين)، ولكن الرومان أحدثوا سلطة دينية تحت مراقبتهم في يبنة بعد انتقال الربانين إليها لتتولى إدارة شؤون اليهود الداخلية في فلسطين وفي الأنحاء الأخرى من الأمبراطورية الرومانية. فاعترفت السلطة الرومانية بالرئاسة الدينية المنحصرة في بيت هيلل من حيث ممارستها الصلاحيات كمحكمة شرعية تنظر في القضايا الدينية للطائفة

---

(٩٩) الدكتور أسعد رزوق، التلمود والصهيونية، ص ١٣٣ ـ ١٣٥.

اليهودية داخل حدود الأمبراطورية. وصار رؤساء هذه المنظمة يعرفون بالبطاركة وكلهم من الفريسيين. والمعروف من هؤلاء البطاركة الذين تولوا منصب البطريرك في عصر التنائيم في فلسطين ثمانية هم كالآتي:

جملئيل الأول

شمعون بن جملئيل الأول

يوحنان بن زكاي

جملئيل الثاني (٩٠ م؟)[١٠٠]

عقيبة[١٠١] وباركوسيبة (١٢٠ م؟)

شمعون بن جملئيل الثاني (١٤٥ م؟)

يهوذا الناسي (الأمير) (١٨٠ م)[١٠٢].

هذا ما كان عليه الوضع في فلسطين في عصر التنائيم، أمّا في بابل فقد كان الوضع يختلف عما كان عليه في فلسطين تحت حكم الرومان، إذ كانت العلاقات بين اليهود والفرثيين في بابل على أحسن ما يرام منسجمة مع الاتجاه السياسي للدولة الفرثية، وقد سبقت الإشارة إلى هذه العلاقات المتمثلة بحكم ملوك إمارة حدياب اليهودية وتعاونهم مع الفرثيين في حروبهم مع الرومان[١٠٣]. فمنذ عهد الملك اولغاس الأول (٥١ ـ ٧٧ م) أسّس الفرثيون التنظيمات للحكم الذاتي الذي منحوه لليهود في بابل وقد صارت رئاسة هذه التنظيمات تُعرف برئاسة الجالوت التي يفرض التقليد بأن يكون شاغلها منحدراً من نسل داود وهي لفظة بالآرامية تعني رأس الجالية، إذ كان من سياسة الفرثيين أن يخلقوا سلطة يهودية مستقلة في شؤونها ترتبط بولائها إلى الدولة الفرثية، أسوة بالنبلاء ذوي السلطة المحدودة الخاضعة للتاج الفرثي. وهناك دلائل على أن الفرثيين سخروا رئاسة الجالوت اليهودية في مصالحهم السياسية والاقتصادية. ففي زمن حونا الأول (عنان) رئيس الجالوت في بابل (١٧٠ ـ ٢١٠ م) كانت رئاسة الجالوت

---

(١٠٠) كان جملئيل الثاني على صلة ودية مع الرومان مما حال دون حدوث اضطهاد ضد اليهود في زمنه.

(١٠١) هو عقيبة بن يوسف حُكم عليه بالموت هو وطلابه في زمن هادريان (١١٧ ـ ١٣٨ م).

(١٠٢) Neusner, op. cit., III, p. 42.

(١٠٣) انظر ما تقدّم عن اليهود في بابل في عهد الفرثيين (الفقرة ٧) من هذا الفصل.

تتمتع بسلطة مطلقة. وتدل الأخبار على أن الربانين البابليين الذين عادوا من فلسطين بعد إتمام دراستهم الكهنوتية في المدارس الدينية الفلسطينية لم يُسمح لهم بممارسة أعمالهم في بابل إلاّ بعد تعيينهم رسمياً من قبل رئيس الجالوت. وكان لرئيس الجالوت سلطة تنفيذية مطلقة على أبناء طائفته، وكان تحت إمرته جيش مؤلف من جنود يهود لتنفيذ قرارات رئاسة الجالوت منها حكم الإعدام. لذلك كان رئيس الجالوت في بابل يتمتع بمكانة رفيعة مشفوعة بالوقار والهيبة عند يهود فلسطين وبخاصة أن حونا الأول كان ينحدر من نسل داود عن طريق تسلسل النسب الذكري مما يجعله أرفع مقاماً من الرابي يهوذا الناسي بطريرق فلسطين الذي ينحدر من نسل داود عن طريق تسلسل النسب النسائي.

وفيما يلي أسماء رؤساء الجالوت التي وصلت إلينا من عصر التنائيم:

أبو ناثان	
ناثان	الفترة بين ٧٠ و١٣٥ م
أحيا	

ناحوم، نحميا، يوحانان، شاقات (١٤٠ ـ ١٧٠ م)

حونا الأول (عنان) (١٧٠ ـ ٢١٠ م)[١٠٤].

ز ـ عصر «الأمورائيم» في فلسطين وفي العراق:

وفي أعقاب عصر التنائيم نشأت في فلسطين طبقة ثانية من العلماء صاروا يعرفون بـ «الأمورائيم» أي الأساتذة المحدثون وقد أُطلق عليهم أيضاً تسمية المفسرين والشراح والمجادلين، وهي تدل على العلماء الذين ظهروا في فلسطين وفي العراق بين سنة ٢٢٠ و٥٠٠ م. فأخذ العلماء في فلسطين في أول الأمر يدرسون المشنة ويعلقون عليها التعليقات الضافية ويشرحون متونها شرحاً وافياً تتناول شرائع اليهود وتعاليمهم وطقوسهم وتاريخهم، وقد جمعت هذه التعليقات والشروح التي صارت تُعرف بالتلمود الأورشليمي وكان الفراغ منه في أواخر القرن الثالث للميلاد وقد فُقد قسم كبير منه. والظاهرة المهمة بالنسبة للأمورائيم هي انتقال الدراسات الفقهية على يدهم من فلسطين إلى بابل حيث برزت الأكاديميات الشهيرة هناك وطغت على مدارس فلسطين وانتزعت منها زمام

---

(١٠٤) Neusner, op. cit., III, p. 42.

المبادرة بصورة نهائية. فلما اشتدَّ ضغط الرومان على اليهود في فلسطين لم يعد باستطاعة الربانين الاستمرار على الدرس والبحث بحرية وأمان فاضطر عدد كبير منهم الى اللجوء الى بابل حيث انشأوا مدارس كبرى للأمورائيم فحمل المعلمون البابليون لقب راب مقابل ربِّي في فلسطين. وفي هذا المحيط الذي كان يسوده الامان والحرية الدينية استطاع الأمورائيم أن يشرحوا المشنة شرحاً أكثر تفصيلاً وأتم موضوعاً مما اضطلع به علماء فلسطين فصارت مجموعة الشروح البابلية تُعرف بالتلمود البابلي الذي تمَّ وضعه سنة ٤٩٠ م وبها انتهى دور الأمورائيم. وقد جاء التلمود البابلي أكثر تكاملاً من التلمود الفلسطيني، إذ تبدو مادة التلمود الفلسطيني هزيلة جداً متى قُورنت بمادة التلمود البابلي المكتملة. لذلك «فإنَّ التلمود البابلي قد لعب الدور الرئيس في حياة اليهود وتبوأ مكانة رفيعة لا تدانيها التوراة أبداً، فترك أثراً ملموساً في شتى مجالات الحياة اليهودية وسيادة مطلقة على سلوك اليهود وتفكيرهم حتى بات يعتبر في نظر المؤرخين بمثابة المربي والمعلم الأكبر لليهود طيلة قرون عديدة من الزمن»[١٠٥].

ومع أن اليهود في بابل في عصر الأمورائيم قد تعرضوا إلى اضطهاد وتنكيل بين حين وآخر على عهد الساسانيين (٢٢٦ ـ ٦٣٧ م)[١٠٦] بعد أن كانوا يتمتعون بحرية مطلقة في عهد الفرثيين، إلاَّ أنهم كانوا على العموم أحسن حالاً من يهود فلسطين تحت حكم الرومان. فقد ازدهرت مدنهم البابلية وكثر علماؤهم واشتهرت في هذا العهد كبريات مدارسهم الدينية التي تخرج فيها الكثير من الطلاب، وكان رأس الجالوت في أغلب الظروف محافظاً على مكانته في المجتمع البابلي. وفيما يلي أسماء المنصب في عصر الأمورائيم:

مار عقبة الأول (٢٤٠ ـ ٢٦٠ م)

حونا الثاني (٢٦٠ ـ ٢٧٥ م)

مار عقبة الثاني (٢٧٥ ـ ٢٩٠ م)

نحميا (٢٩٠ ـ ٣١٨ م)

مار عقبة الثالث بن نحميا (٣٢١ ـ ٣٣٧ م)

حونا الثالث (٣٣٧ ـ ٣٥٠ م)

---

(١٠٥) الدكتور أسعد رزوق، «التلمود والصهيونية»، ص ١٤٦ ـ ١٤٨.

(١٠٦) انظر ما تقدم عن اليهود في بابل في عهد الساسانيين (المادة ٨).

عبّا بن عقبة الثاني (٣٥٠ ـ ٣٧٠ م)

ناثان الثاني (٣٧٠ ـ ٤٠٠ م)

كهانا الأول بن عبّا (٤٠٠ ـ ٤١٥ م)

حونا الرابع (٤١٥ ـ ٤٤٢ م)

مار زوطرا الأول بن كهانا الأول (٤٤٢ ـ ٤٥٥ م)

كهانا الثاني (٤٥٥ ـ ٤٦٥ م)

حونا الخامس بن مار زوطرا الأول (٤٦٥ ـ ٤٧١ م)[١٠٧]

مار زوطرا الثاني (٤٧١ ـ ٤٩١ م)[١٠٨]

حونا السادس بن كهانا الثاني (٤٩١ ـ ٥٠٨ م)[١٠٩]

وقد اشتهر بين علماء اليهود في فلسطين في عصر الأمورائيم الرابي يوحنان ابن نباحا عاش في القرن الثالث للميلاد وقد تتلمذ على الرابي يهوذا الناسي، والرابي صموئيل بن نحماني وأرميا والرابي يونان والرابي جوزة والرابي صموئيل ابن جوزة من القرن الرابع للميلاد[١١٠].

ح ـ عصر «السبورائيم» و«الغاؤونيم» في بابل:

وقد نشأت بعد انتهاء دور «الأمورائيم» طبقة من العلماء يعرفون بـ «السبورائيم» وهي كلمة عبرية معناها الأساتذة الشارحون كانت تُطلق على طبقة من العلماء اليهود استمر نشاطهم العلمي في بابل من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٩٠ م، وكانت أهم أعمالهم التعليق على التلمود وتنظيم أبوابه وفصوله بالشكل المعروف إلى يومنا هذا. وكانت أعمال «السبورائيم» بابلية بحتة قام بها علماء بابل

---

(١٠٧) أعدم سنة ٤٧١ م في عهد الملك فيروز (٤٥٩ ـ ٤٨٤ م).

(١٠٨) إن مار زوطرا الثاني الذي كان يشغل منصب رئاسة الجالوت أُعدم هو والمار إسحاق رئيس مدرسة ماحوزى على جسر ماحوزى سنة ٤٩١ م على عهد قباذ الأول (٤٨٨ ـ ٥٣١ م) وذلك على أثر قيام مار زوطرا بثورة ضد السلطة الحاكمة في بابل فقيل أنه تمرّد على حكومة الدولة الساسانية وشكّل حكومة مستقلة استمرت سبع سنوات حتى قضي عليها بإعدام زوطرا وإسحاق رئيس مدرسة ماحوزى.

(١٠٩) Neusner, op. cit., V, p. 47.

(١١٠) الدكتور أسعد رزوق، «التلمود والصهيونية»، ص ١٤٢ ـ ١٤٤.

وحدهم. وأخيراً تولّى «الغاؤونيم» مسؤولية تعليم التلمود وإصدار الفتاوى الدينية ليهود الشرق والغرب، وقد استمر عمل «الغاؤونيم» حوالى ٤٥٠ سنة بين سنة ٥٩٠ وسنة ١٠٣٠ م حين أغلقت المدارس الدينية في خلافة القادر بأمر الله (٩٩١ ـ ١٠٣١ م) و«الغاؤون» كلمة عبرية جمع «غاؤون» كانت تُطلق على الربانين رؤساء المدرستين الدينيتين اليهوديتين في بابل (في فومبديثة وسورا).

وفيما يلي أدوار الربانين الذين تعانوا على وضع التلمود وتعليمه:

١ ـ «التنائيم» في فلسطين من ١٠ إلى ٢٢٠ م.

٢ ـ «الأمورائيم» في فلسطين وفي بابل من ٢٢٠ الى ٥٠٠ م.

٣ ـ «السبورائيم» في بابل من ٥٠٠ إلى ٥٩٠ م.

٤ ـ «الغاؤونيم» في بابل من ٥٩٠ الى ١٠٣٠ م.

ط ـ رئاسة الجالوت في أواخر عهدها:

أمّا رئاسة الجالوت فكانت في آخر عهد الساسانيين تتأرجح بين الشلل والصحو، فمرة عملها منشل يتعذر انتخاب الرئيس لاضطراب الأحوال وتارة يجري الانتخاب سراً، حتى ظهر الإسلام فأُعيدت لها مكانتها بعد الفتح الإسلامي الذي تميَّز بالتسامح فمنح اليهود الأمان والحرية الدينية أسوة ببقية الأقوام على اختلاف أديانهم، ولم يفرض عليهم أكثر من جزية يدفعونها إلى بيت المال مقابل إعفائهم من الخدمة في الجيش. ففي خلافة عمر بن الخطاب (رض) (٦٣٤ ـ ٦٤٤ م) تولّى رئاسة الجالوت بستناي بن حنيناي سليل رؤساء الجالوت الأقدمين من آل داود، فأقره الخليفة في منصبه بكتاب عهد وجه إليه[١١١]. فعادت لليهود حريتهم الدينية وانتظمت إدارتهم الداخلية (٦٤٠ م) وفي الروايات التاريخية اليهودية أنه عندما مرَّ أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب (رض) (٦٥٦ ـ ٦٦١ م) بمدينة فيروز شابور (الأنبار) خرج لاستقباله مار إسحق رئيس مثيبة[١١٢] فومبديثة بجمع غفير من اليهود فأكرم أمير المؤمنين وفادته وأقرّه في منصبه وأعطاه الحقوق نفسها التي كان يتمتع بها جاثليق النصارى[١١٣]. وبعد أن

---

(١١١) رحلة بنيامين، ص ١٩٩.

(١١٢) لفظة «مثيبة» كانت تستعمل عند اليهود للدلالة على المدرسة الدينية (الأكاديمية) أصلها (مثيبتا) وعنها أخذ العرب لفظة «المثيبة».

(١١٣) Neusner, op. cit., V, p. 130.

تأسست مدينة بغداد على عهد المنصور سنة ٧٦٢ م انتقل اليها مقر رأس الجالوت، وظلَّ اليهود في كنف الحكم الإلاسلامي في بابل يتمتعون بالأمان والحرية الدينية عدا فترة خلافة المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١ م). ومما يدل على أن الطائفة اليهودية كانت تتمتع بشبه استقلال ذاتي في شؤونها الداخلية تمارس طقوسها الدينية بكل حرية في العهد الإسلامي أن الخليفة المأمون أمر سنة ٨٢٥م بوجوب عدم تدخل السلطات الحكومية في الشؤون الدينية والإدارية الخاصة باليهود والنصارى(١١٤). ثمَّ بعد تسرُّب الفساد إلى الدولة العباسية نتيجة لتدخل البويهيين والسلاجقة لحق باليهود ما لحق بسائر سكان البلاد من الأذى واستمرت هذه الحالة حتى أغلقت المدارس الدينية اليهودية في بابل نهائياً في خلافة القادر بأمر الله (٩٩١ ـ ١٠٣١ م)، وكان آخر رؤساء الجالوت في عهد القادر الغاؤون شريرا المتوفى سنة ١٠٠٠ م وولده ر. هاي المتوفى سنة ١٠٣٠ م. ومن ثم انتقل مركز اليهود العلمي إلى الأندلس. ولما آل عرش الخلافة إلى المقتفي لأمر الله (١١٣٦ ـ ١١٦٠ م) قضي على تدخل السلاجقة، وفي عهد المقتفي أُعيدت رئاسة الجالوت إلى سابق ما كانت عليه فأُرجع لليهود جميع حقوقهم ومراسيم رؤسائهم وأوقافهم أيضاً.

وفيما يلي أسماء رؤساء الجالوت حسب تسلسل زمن إشغالهم الرئاسة من أوائل القرن السادس للميلاد إلى نهاية الحكم العباسي:

١ ـ آخر العهد الساساني

توقف عمل رئاسة الجالوت ٥٢٠ ـ ٥٥٠ م.

رئيس الجالوت حونا مار ٥٥٠ ـ ٥٦٠م.

رئيس الجالوت كفنّي قُتل في عهد الملك هرمز الرابع (٥٧٩ ـ ٥٩٠ م) ٥٦٠ ـ ٥٨١ م.

رئيس الجالوت حنيناي بن كفني قُتل في عهد كسرى الثاني (٥٩٠ ـ ٦٢٨م) ٥٨١ ـ ٥٩٠ م.

توقف عمل رئاسة الجالوت ٥٩٠ ـ ٦٤٠ م.

---

(١١٤) P. Sassoon, «A History of the Jews in Baghdad», London, 1949, p. 16.

٢ ـ العهد الاسلامي

رئيس الجالوت بستناي بن حنيناي في عهد عمر (رض) ٦٤٠ ـ ٦٦٠ م.

حزقيال (القرن الحادي عشر) (١٠٣٨ ـ ١٠٥٨ م).

سليمان بن حسداي (القرن الثاني عشر الميلادي).

دانيال بن سليمان بن حسداي تُوفي ١١٧٤ م.

صموئيل بن علي بن إسرائيل اللاوي الملقّب بابن الدستور (دمجه رئاسة الجالوت برئاسة مثيبة بغداد الدينية (١١٦٠ ـ ١٢٠٨ م).

العازار بن هلال بن فهد

دانيال بن العازار بن هبة الله

في خلافة الناصر لدين الله

هبة الله بن أبي الربيع الطبيب.

أبو الفتح إسحق أبو الشويخ بن إسرائيل (١٢٢١ ـ ١٢٤٨ م) (عاصر أربعة خلفاء هم: الناصر والظاهر والمستنصر والمستعصم).

دانيال بن صموئيل كوهين بن أبي الربيع.

عالي بن زكرية الأربلي تولى الرئاسة ١٢٥٠ م.

صموئيل بن دانيال كوهين ابن أبي الربيع (دخل المغول إلى بغداد في عهده سنة ١٢٥٨)[١١٥]

١١ ـ القراؤون والتلمود:

إن حركة إنكار التلمود وعدم الاعتراف بأحكامه وبتعاليم الربانيين والحاخامات والتمسُّك بأسفار العهد القديم وحدها، تلك الحركة الإصلاحية الدينية التي نادى بها السامريون والصادوقيون من قبل[١١٦]، ظهرت من جديد في القرن الثامن للميلاد على لسان عدد من اليهود. فقد ظهر حوالى سنة ٧٢٠ ميلادية يهودي من أهل سورية اسمه «سيرينوس» نادى بنبذ التلمود وجعل شعاره

(١١٥) رحلة بنيامين، ص ١٩٩ ـ ٢٠٥.

(١١٦) انظر ما تقدّم حول ذلك في المادة ١٠ (الفقرة هـ) من هذا الفصل.

«اتركوا تعاليم التلمود» وصار له أتباع كثيرون حتى أعلن أنه المسيح المنتظر. وكان ذلك في خلافة يزيد بن عبد الملك (٧٢٠ ـ ٧٢٤ م) فأمر بتسليمه لليهود أنفسهم ليتولوا محاكمته وانتهى بذلك أمره. ثم ظهر بعده يهودي آخر من أصفهان يُدعى عوبديا بن عيسى نادى بنفس الإصلاحات، أي عدم الاعتراف بالتلمود، وادخل تعديلات كثيرة على الأحكام اليهودية. وكان ذلك في حوالى سنة ٧٥٠ م وكانت تُعرف هذه الفرقة بالعيسوية وأتباعها يقرون بنبوة عيسى ونبوة محمد (ﷺ). يقول ابن حزم في كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل»[١١٧] في وصف العيسوية بما نصه: «العيسوية وهم أصحاب أبي عيسى الأصبهاني رجل من اليهود كان بأصبهان وبلغني أن اسمه كان محمد بن عيسى وهم يقولون بنبوة عيسى بن مريم ومحمد (ﷺ)، ويقولون أن عيسى بعثه الله عزَّ وجل إلى بني إسرائيل على ما جاء في الانجيل وأنه أحد أنبياء بني اسرائيل، ويقولون إن محمداً (ﷺ) نبي أرسله الله تعالى بشرائع القرآن إلى بني إسماعيل عليهم السلام وإلى سائر العرب كما كان أيوب نبياً في بني عيصب وكما كان بلعام نبياً في بني مؤاب بإقرار من جميع فرق اليهود.

ومن الفرق اليهودية التي لا تؤمن بالتلمود السامريون والصادوقيون (وقد سبقت الإشارة إليهما) والدونمة (اليهود النازحون من إسبانيا إلى تركيا) والفلاشا (يهود الحبشة) وأهل جزيرة العرب المتهودون وفرقة بني إسرائيل في الهند.

وقد ظهرت في القرن الثامن للميلاد أيضاً فرقة يهودية أسَّسها الحبر عنان ابن داود في العراق وهي تدعو لنبذ التلمود وتنادي علناً برفضه وتصف تعاليم الربانيين بأنَّها خارجة على التوراة، وقد أطلق أتباع هذه الفرقة على نفسهم اسم القرائين، أي قارئو التوراة دون التلمود. وكان عنان متشبعاً بآراء المعتزلة القائلة بأن العبد مسؤول عن عمله[١١٨]. وقد استمالت هذه الحركة الكثير من يهود العراق، فانضم إليها عدد غفير منهم وانتشرت الدعوة في مصر والشام وتركيا وإيران وبعض أجزاء من روسيا وأوروبة الشرقية.

وفي القرن الرابع عشر بلغت القرائية أوروبة الشمالية، فصار لها أتباع في لتوانية، ونشأت طائفة منهم في بولندة بقيت محتفظة بكيانها حتى أواخر القرن

---

(١١٧) ج١، ص ٩٩.

(١١٨) يُقال أن عنان توفِّيَ سنة ٧٦٥ للميلاد ومصدر آخر يحدّد وفاته في حدود سنتي ٧٩٠ ـ ٨٠٠ (رحلة بنيامين، ص ١٩١).

الثامن عشر. ثم ظهرت طائفة منهم في غاليسية وفلهينية. وقد ظهر بين القرائين عدد من الأدباء والعلماء والمؤرخين في القرم. وعندما ضمت روسيا القيصرية إقليم القرم إلى أمبراطوريتها سنة ١٧٨٣ م أعلن القراؤون أنهم لا يرتبطون واليهود بصلة قرابة أو دين. فتحاشوا بذلك تطبيق القوانين التي سنتها روسيا ضد اليهود عليهم[(١١٩)] واليهود القراؤون من أصل خزري لا يزالون محافظين على لغتهم التركية الخزرية الأصلية المعروفة بلغة الكدار (Kedar) وهم يستعملونها في عباداتهم الدينية.

وأخذ القراؤون يدققون نصوص التلمود ويتعمقون في تحليلها علمياً بقصد تفنيدها وفضحها. وقد رجعوا إلى الأديان السماوية التي شجبت العقلية التلمودية الاستعلائية كالقرآن والانجيل، فقال عنان «إنَّ عيسى بن مريم لم يكن زنديقاً وإنه لم يشوّه التوراة ولم يكذبها أو ينسخها، وإنه كان رجلاً من البشر تقياً صالحاً لم يفكر قط في النبوة والألوهية وإنما كان رجلاً مصلحاً أراد أن يخلص شريعة موسى من المفاهيم التي ألصقها الناس بها». ونادى عنان كذلك «بأن محمداً (ﷺ) نبي حق وانه كعيسى بن مريم لم يفكر قط في مخالفة التوراة أو التعدّي عليها أو نسخ شرائعها».

وقد اشتد الصراع بين القرائين والربانيين فنادى رؤساء كل من الفريقين بتكفير الفريق الآخر، ولم يترك القراؤون أية ناحية ضعيفة في العقلية التلمودية إلاَّ ولجوها بقصد فضح الربانيين والسخرية منهم، وبلغت العداوة بين الفريقين أشدها حتى أن التلموديين أخذوا يغذون حقدهم على القرائين بتحريم الزواج منهم وإذا حدث ذلك اعتبروه زنا، كما اعتبروا المولودين من هذا الزواج غير شرعيين وقد أفتى بعض الربانيين برفض عودة القرائي إلى اليهودية على اعتبار أنه مرتد عن الدين. وقد نهى الحاخام الرباني البيزنطي كبالي أن يعلم أحد الربانيين التوراة لقرائي كما حرَّم على الربانيين أن يقرؤوا في نسخة من التوراة كتبها أحد القرائين حتى ولو كانت صحيحة على أساس أن القرائي غير طاهر. وقد اشتد غضب الربانيين على القرائين فشكوا الأمر إلى الخليفة المنصور باتهام عنان بالزندقة ونقض شريعة موسى فأمر الخليفة بسجن عنان، وقد صادف أن التقى عنان في السجن بالإمام أبي حنيفة النعمان الذي كان المنصور قد سجنه لرفضه تولي القضاء فقص عنان عليه قصته فنصحه الإمام بأن يدَّعي أنه أراد تطهير اليهودية من

---

(١١٩) رحلة بنيامين، ص ١٩٤.

شوائب التلمود الذي كان من وضع الأحبار وأنه لم يقل بنقض شريعة موسى، فأطلقه المنصور على أن لا يبقى في بغداد، فغادرها عنان إلى القدس حيث بنى كنيساً لجماعة القرائين، وقد ألَّف كتابين دعا فيهما إلى تحرير التوراة من قيود التلمود، الأول يدعى «كتاب الفرائض» والثاني «كتاب الفذلكة» ومصنفات أخرى في اللغة العبرية التلمودية والعربية وقد فُقِدَ معظمها.

هذا وقد تفاقم الخلاف بين القرائين والربانيين في مصر أيام الملك الفاطمي الظاهر ابن الحاكم بأمر الله (١٠٢٠ ـ ١٠٣٥ م) وذلك بسبب الخصومة الناشبة بين الطائفتين على شؤون الذبائح التي كان مذهب القرائين فيها يختلف عن مذهب الربانيين التلموديين، فالقراؤون يحرمون ذبح أنثى الحيوان في أثناء حملها بينما يجيز ذلك الربانيون مما أحدث مشادة عنيفة بين الطائفتين، فطلب القراؤون أن يُسمح لهم بفتح حوانيت خاصة تخضع لإشرافهم هم ولا تخضع لتفتيش الربانيين وأن يُسمح لهم بفتح حوانيتهم في أعياد الربانيين التي لا يعترفون بمواقيتها. وقد استجاب الخليفة الظاهر لمطالب القرائين وأصدر مرسوماً في ١١ من جمادى الأول من سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) هذا نصه:

«من تتبع عاداتكم، واستمراركم في تقاليدكم التي أخذتموها عن دياناتكم بدون عائق يقوم من طائفة ضد الأخرى أو قيام معاملة خشنة بينكما فهذا يدعو إلى السماح لكل طائفة بأن تعيش وتعبد كما تهوى، مع تمكين كل طائفة في بيع أو شراء ما تشتهي، وأن تحتفل بعيدها كما تريد ومتى ترغب بكامل حريتها ومطلق إرادتها، وأحذر الطائفتين من التدخل في شؤون بعضهما أو إحداث شغب أو مضايقة بعضهما. إن الأمان مكفول لكم جميعاً. وعليكم عدم تمكين شرير بينكم من الإتيان بشيء ممنوع. وعليكم تجنب المناقشات التي تؤدِّي إلى سوء العاقبة. وعليكم المحافظة على ذلك. والعقوبة ستحل بكل فرد يتجاوز حدوده ويأتي بأعمال محرمة. فمثل هذا الشخص سيعاقب عقوبة شديدة وسيكون مثالاً لغيره حتى لا يحتذيه أحد. كذلك يحرم التدخل في شؤون طائفة القرائين في معابدهم الخاصة بهم وحدهم.

وهذا الأمر صادر من أمير المؤمنين. فعليكم العمل على تنفيذه واحترامه وعلى أمير الجيوش ـ ساعده الله أن يساعد على تنفيذه، وعلى رؤساء الأقاليم العناية العادلة بالطائفتين، وعلى الحكّام إصدار الأوامر الخاصة بوجوب العناية والمحافظة على أفراد الطائفتين والعمل على عدم اضطهادهم.

ليحترم هذا الأمر بواسطة الذين كُتب لهم إن شاء الله» «حُرِّر في يوم الأربعاء ١٦ جمادى الأول عام ٤١٥ هـ»(١٢٠).

واستمرت حركة القرائين العلمية نشيطة على لسان زعماء من أقطاب الفكر القرائي حتى مستهل القرن السابع عشر الميلادي فظهرت مع الزمن مدارس علمية قوية في مجتمع القرائين، ثم تقلّص ظل القرائين مع انتشار اليهود الربانيين بأعداد كبيرة في أوروبا وأمريكا وكثير من البلاد التي استعمرها الغرب في إفريقيا وآسيا وظلّ القراؤون منكمشين في الشرق. وقد كان لظهور الصهيونية واتساع نفوذها الأثر الكبير في إخماد حركة القرائين وتقلّص ظلهم، وذلك على الرغم من ظهور علماء متبحرين في الفقه اليهودي من بين طائفتهم أو وضعهم العديد من كتب التفاسير والشروح الدينية حيث كانت الصهيونية ترى في طائفة القرائين أكبر خطر يهدّد مشروعها السياسي الاستعماري الذي خطته بالاتفاق مع الربانيين للاستيلاء على فلسطين واتخاذها وطناً قومياً لليهود بالقوة. وفي ذلك يقول الدكتور ظاظا: «وكان للقرائين في تركية وروسية ومصر نشاط ملحوظ ضد الصهيونية، ولكن هذه الأخيرة استعانت بالجواسيس والعملاء، واستغلت ظروفاً حربية وسياسية معيَّنة لاصطياد بضعة آلاف من القرائين وإدخالهم إلى إسرائيل، وهم يعيشون هناك كرهائن وكوسيلة للمساومات السافلة مع مَن بقي من القرائين خارج هذا الشرك إذ أرغمتهم الصهيونية على التزام الصمت والكف عن مهاجمتها حرصاً على حياة أبناء طائفتهم في إسرائيل وأمنهم». ويختتم الدكتور ظاظا كلامه عن القرائية والصهيونية بقوله: «والآن هل تنتفض القرائية وتنهض من جديد؟ هذا أمر مستبعد تحت الثقل الساحق للربانية وصهيونيتها، ولكن ربما أثَّر المذهب القرائي في الفكر اليهودي العام بحيث تتولد من هذا التفاعل اتجاهات اكثر تعقلاً»(١٢١).

ويدل آخر إحصاء للقرائين (١٩٣٣ م) أن عددهم في العالم لا يزيد على اثني عشر ألفاً، يقيم عشرة آلاف منهم في القرم، والباقون منتشرون في إستامبول وبولندة ومصر وفي بعض أنحاء كردستان(١٢٢).

---

(١٢٠) الدكتور علي عبد الواحد وافي «الأسفار المقدسة» ص ٦٥ عن كتاب «الفصل في الملل والأهواء والنحل» لابن حزم، ج١، ص ٨٢.

(١٢١) الدكتور حسن ظاظا، «الفكر الديني الإسرائيلي»، ١٩٧١، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٦. انظر حول القرائين ايضاً: Karaism, Ency. Brit., 1965, 13:231.

(١٢٢) رحلة بنيامين، ص ١٩٤.

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن هناك جمعية يهودية أُسِّست في أمريكا مؤخراً تقوم على نفس مبدأ القرائين واسمها «المجلس اليهودي الأمريكي» American Council For Judaism ويحارب اليهود الأرثوذكسيون هذا المجلس ويتهمونه بالعداء للسامية واليهودية(١٢٣).

١٢ ـ المدارس الدينية اليهودية في العراق:

لقد اشتهر عدد من المدن العراقية بعد السبي البابلي بأكاديمياتها الفقهية اليهودية التي أسَّسها الربانيون في منطقة بابل، وهي المدن التي كان أكثرية بل جميع سكانها من اليهود المسبيين. وكانت تُسمَّى الأكاديميات بالعبرية «مثيبا» وعنها أخذ العرب لفظة «المثيبة» تسمية لها. وقد تخرج في هذه الأكاديميات كثير من العلماء والربانيين تعاونوا على إخراج التلمود البابلي وعملوا على تطبيق نصوصه على الطائفة اليهودية في العراق.

وقد مرَّت هذه الأكاديميات بثلاثة أدوار عبر فترة تمتد إلى أكثر من ثمنمائة عام، فيشمل الدور الأول المدارس التي أُنشئت في العراق على يد التنائيم المتفقهين في فلسطين وقد ظعنوا إلى بابل بسبب تضييق الرومان لهم وعرقلة أعمالهم التدريسية في فلسطين مما اضطرهم إلى مغادرة فلسطين واللجوء إلى بابل، وتفيد الأخبار أن أول مدرسة أُنشئت في بابل هي مدرسة «نهر بيكود» التنائية وقد أسَّسها الراب حنينا حوالى سنة ١١٠ للميلاد وقد هاجر من فلسطين فاستقر في «نهر بيكود» وأسَّس مدرسة فيها وعمل على تنظيم التقويم العبري هناك سنة ١٤٥ ميلادية(١٢٤)، وقد قام بذلك استناداً إلى دعم السلطات اليهودية البابلية دون أن يستأذن من البطريرك الفلسطيني، وقد توفي

---

(١٢٣) التوراة ـ تاريخها وغاياتها، ترجمة سهيل ديب، ص ٥٣.

(١٢٤) كان العلماء اليهود يعيرون اهتماماً كبيراً إلى دراسة التقويم العبري وذلك لمعرفة مواعيد أعيادهم وأصوامهم، فقبل علماء بابل في أول الأمر التقويم الذي أقره علماؤهم في فلسطين، إلاَّ أن بعض علماء بابل سافروا إلى فلسطين لتعلم أصول التقويم وضبط قواعده وعادوا فاستقلوا بوضعه، وكان أول مَن اشتغل بمسألة التلمود في بابل التناء حنينا (٨٠ ـ ١٦٠ م) بعد أن هاجر من فلسطين واستقر في نهر بيكود. وحنينا هو ابن أخ الراب يوشيا ودرس في مدرسة يبنة عندما انتقل علماء السنهدرين إلى يبنة بعد تخريب الهيكل. وقد اشتهر بعد ذلك الرباني نحشون من مدرسة سورا (٨٧٤ ـ ٨٨٢ م) وهو أول غاؤون بابلي اشتغل بمسألة التقويم.

هناك حوالى سنة ١٦٠ م[١٢٥]. وهناك مدرسة تنائية أخرى أسست في «هوزال» في حوالى منتصف القرن الثاني للميلاد، وذلك في أعقاب ثورة باركوخبا (١٣٢ ـ ١٣٥ م) حين هاجر طلاب فلسطين الذين كانوا يدرسون على الرابيين إسماعيل ويوشيا ويوناثان إلى بابل فاستقروا في «هوزال» حيث أسسوا مدرسة دينية ازدهرت في الفترة بين سنة ١٦٠ و٢٢٠ م وأبرز الشخصيات التي ارتبطت بهذه المدرسة الرابي (آسي) وهو الذي وضع قوانين للمدينة. وقد تخرّج في هذه المدرسة عدد من العلماء استخدموا في وظائف إدارية تابعة لرأس الجالوت. ولا نعلم شيئاً عن موقع المدينتين، نهر بيكود و«هوزال» من بابل.

أمَّا الدور الثاني فهو أغنى الأدوار الثلاثة، ويشمل كبريات المدارس الدينية التي أُنشئت في العراق والتي تعاون علماؤها على وضع التلمود البابلي وعملوا على تطبيق نصوصه على الطائفة اليهودية في العراق. وشهدت هذه المدارس العصور الأمورائية والسبورائية والغاؤونية حتى أغلقت في خلافة القادر بأمر الله سنة ١٠٣٠ م.

وأما الدور الثالث فيقع في أواخر العصر العباسي ويبدأ بتسنم المقتفي لأمر الله عرش الخلافة العباسية (١١٣٦ ـ ١١٦٠ م) وينتهي بدخول المغول مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ م، وفي خلال هذه الفترة أُنشئت مدارس بغداد وأُعيدت فيها مكانة رأس الجالوت إلى سابق ما كانت عليه.

وفيا يلي نبذة عن المدارس التي أُقيمت في الدور الثاني والتي كان لها كبير الأثر في تطور الديانة اليهودية إلى ما هي عليه اليوم، وهي أكاديميات نهر دعة وسورا وفومبديثة والماحوزى وشيلهي:

أ ـ مدرسة نهر دعة

لقد تضاربت آراء العلماء في تعيين موقع مدينة نهر دعة، وهي من مدن التلمود المهمة، ومع شهرة مدرستها وورود ذكرها في التواريخ اليهودية لم يصل الباحثون إلى أي رأي فيما يتعلق بموقعها يحظى بالإجماع عليه. والظاهر من بعض الأوصاف القديمة أن اسم نهر دعة كان يُطلق على الصقع الذي يشمل منطقة واسعة في الفرات الأوسط فيه المدن والقرى والأراضي الزراعية التي تمتد على نهر الفرات الأوسط لمسافات طويلة.

---

(١٢٥) Neusner, op. cit., I, pp. 103-104.

فالرّحالة بنيامين التطيلي عند وصفه للأنبار (فيروز شابور القديمة) وفومبديثة يعتبرهما واقعين في نهر دعة(١٢٦)، مما يدل على أن تسمية دعة كانت تشمل منطقة واسعة في الفرات الأوسط وأن مدينة دعة لا بد أنها كانت داخل هذه المنطقة ذاتها. فقد كان دانفيل الجغرافي المشهور أول من قال بأن «نهر دعة» هي بلدة الحديثة الحالية على الفرات. وقد استند في رأيه هذا إلى تسمية الجغرافيين العرب لهذه البلدة بـ «حديثة النور» وفي ذلك إشارة إلى ازدهار العلوم فيها. وهكذا فإنَّه يرجح أن لفظ «نهر دعة» يعني «نهر الحكمة» او «نور الحكمة»(١٢٧). ولكن الذي استند إليه دانفيل لا يتفق مع تسمية الجغرافيين العرب لبلدة الحديثة إذ أنهم سموها «حديثة النورة» وليس «النور»(١٢٨). ولنرجع إلى الرحَّالة بنيامين، وهو مصدر يهودي من أوثق المصادر في هذا الباب، فهو يذكر أولاً أن نهر دعة منطقة واسعة تقع فيها الأنبار وفومبديثة وبلدة نهر دعة ذاتها كما أشرنا إلى ذلك، ثم يجعل كنيس «شفياثيب»(١٢٩) الذي كان حسب رواية التلمود قد شُيِّد في بلدة نهر دعة يقع على مسيرة يومين من سورا (شمالاً)(١٣٠). وزار الرابي فتاحية الرجنسبرجي في أواخر القرن الثاني عشر بلدة نهر دعة ووصفها بانها جزيرة ولكنها تمتد إلى أوسع من حدودها على الساحل، وبالغ في امتداد محيطها وقال إنه على مسيرة ثلاثة أيام وكل شيء فيها خراب يباب. وأضاف إلى ذلك قوله، أن جماعة من اليهود تسكن في جانب من المدينة وقد أروني كنيس «شفياثيب» على جانب من المدينة وهو خرب لما أطلعتهم على خاتم رأس المثيبة في بغداد وأضاف أن الكنيس محاط بثلاثة جدران من الحجر داخل الجزيرة ويقع الجدار الغربي على ساحل النهر(١٣١). وورد في كتاب «جغرافية التلمود» لنيوباور

---

(١٢٦) رحلة بنيامين، ١٢٩.

(١٢٧) W.F. Ainsworth, «A Persinal Narrative of the Euphrates Expedition», I, p. 432.

(١٢٨) انظر: ياقوت وأبو الفداء ومراصد الاطلاع.

(١٢٩) هو اسم كنيس ورد ذكره في التلمود كان قد شُيِّد في بلدة نهر دعة، لفظته مؤلفة من كلمتين بالآرامية «شف» و«يثيب» أي دمّر وعمّر كناية على أنها عُمرت بعد دمار بيت المقدس وتروي الأساطير اليهودية أنهم نقلوا حجارتها وترابها من القدس ويشير بنيامين إلى ذلك بقوله: «إنه الكنيس الذي جلب اليهود ترابه وحجارته من القدس».

(١٣٠) رحلة بنيامين، ١٤٧.

(١٣١) «Travels of Rabbi Petachia of Ratisben», translated from the Hebrew. by Dr A. Benisch London, 1856.

Neubauer في وصف نهر دعة[١٣٢] قوله بأنَّها تقع على بُعد اثنين وعشرين فرسخاً إلى الشمال من سورا وعلى هذا القياس ترجع إلى الموضع المعروف اليوم بـ «جبة»[١٣٣]. وقد وصف يوسفوس في كتابه «العاديات اليهودية» نهر دعة فذكر أنها مدينة بابلية آهلة بالسكان وفيها أراض واسعة مخصبة ومحصنة لصد غارات العدو فهي محاطة بأسوار منيعة وبنهر الفرات. وذهب بطلميوس إلى أنها في صقع بين النهرين وعلق كلاريوس Cellarius على كلام بطلميوس وقال إنها من المدن الواقعة بين حدود بين النهرين وحدود بابل[١٣٤]. وعلى الرغم من كل ذلك إن هناك مَن يقول إن دعة تقع على صدر نهر الملك (نهر ملكا القديم) وهذا يعني أنها تقع جنوبي سورا[١٣٥]. وقد أخذ بهذا الرأي أيضاً نيوزنر حيث ثبت موضع نهر دعة على صدر نهر ملكا في خارطتيه المدونتين بالعبرية على ص ١٢٣ من الجزء الأول، وعلى ص ٢٤٢ من الجزء الثاني من كتابه «تاريخ اليهود في بابل»[١٣٦] أما نحن فلا يسعنا في ضوء ما تقدم إلا أن نخرج بالنتائج التالية:

أولاً - إن تسمية نهر دعة كانت تُطلق على منطقة واسعة تمتد على طول نهر الفرات الأوسط في صقع ما بين النهرين. وفي داخلها بلدة نهر دعة التي أخذت المنطقة بأسرها تسميتها منها.

ثانياً - إن بلدة نهر دعة كانت على هيأة جزرة محاطة بالفرات وبأسوار طويلة كما يصفها الرابي فتاحية الذي زارها في القرن الثاني عشر للميلاد وهو يصف أيضاً الكنيس «شفياثيب» الذي كان على جانب منها وهو خرب. وقد جاء ما يؤكِّد ذلك في كتاب «العاديات اليهودية» ليوسفوس إذ يصف نهر دعة كونها محاطة بأسوار منيعة تتصل بنهر الفرات. وهذا ما يدل على أن المدينة كانت على هيأة جزرة داخل نهر الفرات متصلة بساحل النهر غرباً. والمعروف أن هذه المدن على هيأة جزائر تقع في الفرات الأوسط وليس في بابل في الجنوب.

ثالثاً - إن بلدة نهر دعة كانت تقع شمال سورا وليس جنوبها على نهر الملك كما ذكر البعض، فهذا بنيامين التطيلي يشير بوضوح إلى أن كنيس

---

(١٣٢) Ainsworth, op. cit., I, p. 436.

(١٣٣) تقع «جبّه» جنوب الحديثة تحت مصب وادي حوران بالفرات.

(١٣٤) Ainsworth, op. cit., I, p. 432.

(١٣٥) الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٣: ١٧٧.

(١٣٦) Neusner, op. cit., I, 123, II, 242.

«شفياثيب» في نهر دعة كان على مسيرة يومين من سورا (شمالاً)، ويؤيِّده في ذلك نيوباور Neubauer في كتاب «جغرافية التلمود» فيصف نهر دعة بكونها على بعد ٢٢ فرسخاً إلى الشمال من سورا ويرجع بها إلى موضع جبة في جنوب الحديثة. هذا كما يضع بطلميوس بلدة نهر دعة في صقيع بين النهرين وليس ببابل، ويضع كلاريوس نهر دعة بين حدود بين النهرين وبابل. كل ذلك يدل على إن نهر دعة كانت شمالي سورا في الفرات الأوسط وليس ببابل. لذلك يفرض ما تقدم علينا أن نتحرى عن موقع نهر دعة في منطقة الفرات الأوسط الواقعة بين عانة والأنبار حيث تتكون المدن من جزرات على نهر الفرات الأوسط، ولعلها غير بعيدة عن عانة أو الحديثة. ومما يشجع على قبول هذه النظرية أنه كان على نفس الامتداد على نهر الفرات الأوسط كنيس قديم لليهود يقع في «دورا»(١٣٧) كان قد أُنشئ هناك حولى سنة ٢٤٦ م وهو الزمن نفسه الذي أُنشئ فيه كنيس ومدرسة نهر دعة حيث أُنشئا على يد مار صموئيل الفلكي في حوالى منتصف القرن الثالث للميلاد (١٦٥ ـ ٢٥٧ م).

وقد تأسَّست في أوائل القرن الثالث للميلاد أول مدرسة للأمورائيم في نهر دعة على يد الراب صموئيل الفلكي والطبيب (١٨٠ ـ ٢٥٠ م). وصموئيل هذا كان من كبار الثقاة في مسائل القانون المدني، وهو صاحب القول الشهير: «قانون الدولة المعمول به»، أي أن اليهودي يخضع لأحكام القانون السائد في البلد الذي يعيش فوق أرضه، باستثناء المسائل المتعلقة بواجباته الدينية، وقد كان لهذا الاجتهاد لمؤسِّس آكاديمية نهر دعة أبلغ الأثر في تطور القانون المدني اليهودي(١٣٨).

وقد تعرضت نهر دعة إلى هجوم أذينة الثاني ملك تدمر، فبعد انتصاره على الملك شابور الأول سنة ٢٦٢ ـ ٢٦٣ هاجم المدينة وهدمها بما فيها مدرستها الدينية اليهودية وعلى إثر ذلك انتقل رئيس المثيبة هو وتلامذته إلى ماحوزى(١٣٩). ويرى البعض أن الأمير الذي هاجم نهر دعة هو أحد ملوك الحيرة اسمه بابا بن نصر(١٤٠). ولكن إذا اعتبرنا أن نهر دعة كانت على الساحل

---

(١٣٧) تقع خرائب بلدة «دورا» على بعد ٨٥ كيلومتراً عن دير الزور إلى الجنوب الشرقي منها على الضفة الغرّبية للفرات تطل على النهر والصحراء.

(١٣٨) الدكتور أسعد رزوق، «التلمود والصهيونية»، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(١٣٩) انظر ما يلي عن ماحوزى.

(١٤٠) الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ١ : ٦٥٩.

الغربي من نهر الفرات الأوسط فتكون نهر دعة أقرب إلى تدمر منها إلى الحيرة، ثم إن نهر دعة كانت تابعة للفرس مما يحمل ملك تدمر الذي كان يحارب الفرس على غزو نهر دعة، وهي المحطة الواقعة على طريق سيره لقتال شابور الأول. وهذا الرأي الذي يقول بغزو ملك تدمر لنهر دعة يؤيِّده الدكتور نيوزنر صاحب كتاب «تاريخ اليهود في بابل»[١٤١] وغيره من الباحثين.

وتشير الأخبار إلى أن مدرسة نهر دعة أُعيد إنشأوها في أواخر القرن الثالث للميلاد فاستؤنفت الدراسات الدينية اليهودية[١٤٢] إلى جانب المدارس الأخرى وتولى رئاسة المدرسة بعد إعادتها الراب نحمان تلميذ الراب صموئيل الفلكي. وممن تولَّى رئاسة المدرسة من الرابيين المشهورين الراب «ديمي» المتوفى سنة ٣٨٨ م، والراب «رفرام» المتوفى سنة ٣٩٥ م والراب «اميمار» (أوائل القرن الخامس للميلاد)، والراب «آحا» المتوفى سنة ٤١٩ م وقد واصلت المدرسة أعمالها حتى تمَّ غلقها سنة ١٠٣٠ م على عهد خلافة القادر بأمر الله مع المدارس الأخرى في بابل.

ب ـ مدرسة سورا

كانت مدينة سورا من مدن اليهود المهمة في العهد الفارسي ومن المدن الإسلامية المهمة في العهد الإسلامي، تقع على الضفة اليسرى من صدر نهر سورا، وهو النهر الذي أخذت مدينة سورا تسميتها منه، وقد سبق الكلام على هذا النهر في (المادة ١٩) وكان الجانب الثاني من سورا (أي الجانب الأيمن من النهر) يسمَّى «مثامحسية» ويصف ياقوت مدينة سورا بقوله إنها موضع بالعراق من أرض بابل وهي مدينة السريانيين وقد نسبوا إليها الخمر الذي كان يعتقه اليهود فيها، وهي قريبة من الوقف والحلة المزيدية[١٤٣]، ويُضيف إلى ذلك قوله إنه كان في سورا جسر على نهر سورا يعبر عليه المسافرون إلى الكوفة[١٤٤]. وبالقرب من جسر سورا كان قصر ابن هبيرة فلما ملك السفاح نزله واستتم تسقيف مقاصير فيه وزاد في بنائه وسمَّاه الهاشمية[١٤٥].

---

(١٤١) Neusner, op. cit., 3: 16.

(١٤٢) المرجع السابق ٣: ٢١٣.

(١٤٣) ياقوت ٣: ١٨٤.

(١٤٤) المرجع السابق ٤: ٣٥.

(١٤٥) المرجع السابق ٤: ١٢٣.

وقد أُسِّست في سورا سنة ٢١٩ م مدرسة يهودية كبرى تخرَّج فيها عدد كبير من العلماء وكبار الأحبار، وكانت سورا تتميز بكونها مقراً لرأس الجالوت إذ كانت المركز الرئيسي لرئاسة الجالوت قبل أن ينتقل المقر إلى بغداد. وبعد أن تأسَّست فيها المدرسة أصبحت مدرسة سورا أعلى مقاماً من بقية المدارس الدينية في بابل وكان لرئيسها حق الأفضلية في المرتبة الدينية وفي انتخاب رأس الجالوت. وكان مؤسِّس هذه المدرسة الراب «أبا اريخا» المتوفى سنة ٢٤٧ م. وتقول المصادر اليهودية أن الراب «آبا أريخا» كان قد ذهب من بابل إلى فلسطين يصحبه عمه الراب «حيا» لكي يدرس على يهوذا الناسي ولدى عودته الى بابل أسَّس أكاديمية سورا التي كان رئيسها. وفي وصف بنيامين التطيلي لسورا يقول: «سورا أو «**مثامحسية» الواردة في** التلمود كانت في سالف عهدها مقر رأس الجالوت ورؤساء المثيبة وفيها من قبور الصالحين قبر الغاؤون الربي شريرا رأس مثيبة فومبديثة (٩٠٠ ـ ١٠٠٠ م) وولده الغاؤون الربي هاي آخر رؤساء مدرسة فومبديثة المتوفى في حدود سنة ١٠٣٨ م وقبر الغاؤون سعدية (سعيد بن يوسف الفيومي) رأس المثيبة في سورا (٨٩٢ ـ ٩٤٤ م)، والربي صموئيل حفني الكاهن آخر رؤساء مثيبة سورا توفي سنة ١٠٣٤ م، وصفنية بن كوشى بن النبي جدلية[١٤٦] وقبور غيرهم من رؤساء الجالوت من آل الملك داود ورؤساء المثيبة الذين عاشوا فيها قبل خرابها[١٤٧].

ومن رؤساء مثيبة سورا المشهورين الراب آشي (٣٧٦ ـ ٤٢٧ م) وينسب إليه الفضل في البدء بجمع التلمود البابلي وتهذيبه وتنقيحه حتى أن المصادر اليهودية تعتبره خاتم أسفار التلمود البابلي[١٤٨]. وكان الغاؤون سعيد بن يوسف الفيومي من أشهر رؤساء مثيبة سورا المتأخرين وهو يُعَد بين كبار علماء اليهود وفلاسفتهم في القرون الوسطى، وُلد في مصر سنة ٨٦٢ م وتوفي في سورا سنة ٩٤٤ م. وكان آخر رئيس لمثيبة سورا قبل غلقها الربي صموئيل بن حفني المتوفى سنة ١٠٣٤ م. وقد استمرت مثيبة سورا حوالى ٨٠٠ عام تمارس أعمالها حتى أغلقت سنة ١٠٣٠ على عهد الخليفة القادر بأمر الله وعلى إثر ذلك انتقل مركز اليهود العلمي إلى الأندلس.

---

(١٤٦) من أنبياء اليهود، كان معاصراً للنبي آرميه (٦٢٠ ـ ٦٠٩ ق.م.).

(١٤٧) رحلة بنيامين ١٤٧.

(١٤٨) الدكتور أسعد رزوق «التلمود والصهيونية» ص ١٤٤.

والظاهر أنه كانت هناك مدرسة ثانية على نهر سورا في «مثامحسية» على الجانب المقابل لسورا، فقد ورد في الأخبار أن الراب «يمار» المتوفى سنة ٤٣٢ م كان يرأس مدرسة «مثامحسية»، ثم رأسها بعده الراب نحمان بن حونا المتوفى سنة ٤٥٥ م، ثم رأس المدرسة الراب «تويومي» المتوفى سنة ٤٦٨ م وكان الغاؤون آشي على رأس مدرسة «مثامحسية» في عهد الغاؤونيم. وتشير الأخبار إلى أن أكاديمية سورا انتقلت بعد ذلك إلى «مثامحسية» كما انتقل رأس الجالوت من سورا إلى «مثامحسية» وذلك بسبب اضطهاد الفرس لليهود(١٤٩).

ج ـ مدرسة فومبديثة

كانت هذه المدينة إحدى كبريات المدن اليهودية التي ساهمت أكاديميتها في وضع التلمود البابلي. ويرى البعض أن لفظة «فومبديثة» تعني «فم البداة» والبداة ذكرها ياقوت ووصفها هي والجبة أنهما طسوجان من سواد الكوفة(١٥٠). وذكر بنيامين التطيلي أن الأنبار هي «فومبديثة» في نهر دعة يقيم فيها نحو الفي يهودي بينهم العلماء والفقهاء(١٥١). وقد جاء في كتاب «جغرافية التلمود» لنيوباور (Neubauer) ما يفيد أن اسم «بديثة» معناه نهر أو معبر، وهناك علاقة قوية بين «بديثة» والحديثة (المدينة الحالية) مما حمل الذين يجعلون نهر دعة في سهل بابل على أن يعتبروا «فومبديثة» هي الحديثة نفسها وعلى رأي نيوباور أن موضع «فومبديثة» كان حاضرة الجلاء (جولا) او (روش هشانا)، وقد تكون جبة أو البداة أو غيرهما بقربهما وأن نهر دعة هي الحديثة الحالية(١٥٢).

وورد في الأخبار أن مدينة «فومبديثة» تعرضت للغزو هاجمها جيش جاءها من عاقولاء (الكوفة) ويظهر أنه من قوات آل نصر ملوك الحيرة وقد كانت فومبديثة محاطة بالأعراب(١٥٣).

أما أكاديمية «فومبديثة» فقد أسَّسها الراب يهوذا بن حزقيال في أواخر القرن الثالث للميلاد وهو من الجيل الثاني للأموراثيم (٢٨٠ ـ ٣٠٠ م). ومن الرابيين الذين رأسوا مثيبة «فومبديثة» وساهموا في وضع التلمود البابلي خلف الراب

---

(١٤٩) Neusner, op. cit., V, pp. 136-137.

(١٥٠) معجم البدان ١ : ٧٧٠، ٢ : ٣١.

(١٥١) رحلة بنيامين، ص ١٢٩.

(١٥٢) Ainsworth, op. cit., I, p. 436.

(١٥٣) الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» ١ : ٦٦٠.

يهوذا المدعو الراب «رابه بن نحماني» (٢٧٠ ـ ٣٣٠ م) وهو الذي اشتهر ببراعته الجدلية ودُعي «محرك الجبل»، وقد بقي «رابه» اثنتين وعشرين سنة على رأس مثيبة «فومبديثة» وقد وقع «رابه» في ورطة مع الحكومة البابلية بسبب احتجاجه على فرض الضرائب فقُتل. ثم وُلّي الرئاسة بعده الراب يوسف بن حية الذي بقي في هذا المنصب سنتين ونصف السنة. ومن بين الرابيين من الجيلين الثالث والرابع للأمورائيم (٣٢٠ ـ ٤٣٧ م) الراب عباي المتوفى سنة ٣٣٨ م وخلفه الراب رافا بن يوسف، وفي زمن الأخير انتقلت أكاديمية فومبديثة إلى ماحوزى ثم أُعيدت إلى مكانها سنة ٣٥٢ م في زمن الراب نحمان بن إسحق المتوفى سنة ٣٥٦ م. ومن الرابيين من الجيلين الثالث والرابع أيضاً الراب حمه المتوفى سنة ٣٧٧ م والراب زيفيد المتوفى سنة ٣٨٥ م والراب كهانا الثاني. ومن الرابيين من الجيل الخامس (٤٢٧ ـ ٥٠٠ م) رباه طوسفاج المتوفى سنة ٤٧٠ م ومن الرابيين الذين ترأسوا مثيبة فومبديثة في عهد السبورائيم (٥٠٠ ـ ٥٩٠ م) وعهد الغاؤونيم (٥٩٠ ـ ١٠٣٠ م) الرابي جوزية والراب شمعونا والمار إسحق الذي خرج لاستقبال أمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب (رض) عندما مرَّ بمدينة فيروز شابور (٦٥٦ ـ ٦٦١ م) ثم الغاؤون شريرا بن حنينة المتوفى سنة ١٠٠٠ م والغاؤون دوراي بن نحمن عميد مدرسة فومبديثة في زمن ظهور القرائين. وكان آخر مَن ترأس مثيبة فومبديثة عند غلقها سنة ١٠٣٠ م الغاؤون «هاي» بن الغاؤون شريرا وقد توفي سنة ١٠٣٨ م.

د ـ مدرسة الماحوزى

وهذه بلدة أخرى سكنها اليهود المسبيون في بابل فأسَّسوا فيها مدرسة دينية أيضاً ساهمت مع بقية المدارس في وضع التلمود البابلي. وقد أسَّس الراب يوسف بن حنينا هذه المدرسة في منتصف القرن الثالث للميلاد وذلك بعد خراب مدرسة نهر دعة (انظر ما تقدّم عن مدرسة نهر دعة). وقد بلغت مدرسة ماحوزى هذه ذروة ازدهارها في عهد خلف الراب يوسف وابنه «رافا». وقد خرَّبها الأمبراطور جوليان سنة ٣٦٣ م ثم أُعيد بناؤها. وفي الفترة الواقعة بين سنة ٥١٣ و٥٢٠ م اتخذها المار زوطرة الثاني رئيس الجالوت مركزاً له عندما قام بثورته على حكم الملك الساساني قباذ الأول وأعلن استقلاله[١٥٤].

وتقع الماحوزى على الجانب الغربي من دجلة بالقرب من سلوقية. وتشير

---

(١٥٤) The Standard Jewish Encyclopedia, London, 1966, p. 1250.

التواريخ إلى أن الماحوزى بلدة قديمة مجاورة لسلوقية، ولما غزا كسرى أنو شروان (٥٣١ ـ ٥٧٩ م) أنطاكية نقل أهلها إلى مدينة جديدة قرب ماحوزى فسمِّيت الماحوزى الجديدة[١٥٥]. والماحوزى تسمية آرامية معناها بالعربية المدائن[١٥٦] وكانت تُسمَّى بالسريانية «ماحوزى». يقول المؤرِّخ آرثر كريستنن[١٥٧] إن كسرى الأول بعد أن استولى على أنطاكية نقل سكانها ءلى مدينة جديدة خصصها لهم قرب المدائن تسمَّى ماخوزا وهي متاخمة لسلوقية وقد استخدم الكتّاب السريان واليهود اسم ماخوزا مريدين به كل منطقة سلوقية. وكانت حظائر البهائم مجاورة للمنازل في هذه المدينة لأن سكانها الأثرياء كانوا يملكون مواشي ترعى أثناء النهار في واد مستطيل مجاور لمدينة ماخوزا تُسمَّى «عقبة ماخوزا».

ولما غزا ملك تدمر نهر دعة سنة ٢٦١ ـ ٢٦٢ م انتقلت مدرسة نهر دعة وطلابها إلى مدرسة ماحوزى حتى أُعيد إنشاء المدرسة من جديد فعاد طلابها وأساتذتها الى نهر دعة[١٥٨].

وقد ورد في الأخبار أن اليهود تعرضوا لاضطهاد عنيف في عهد الملك قباذ الأول (٤٨٨ ـ ٥٣١ م) وهو الملك الساساني الذي اعتنق مذهب مزدك الإباحي فأعدم الراب إسحق راس مثيبة الماحوزى، وعلى إثر ذلك قام الربان زوطرة الثاني رأس الجالوت الذي كان آنذاك في الماحوزى بثورة على الحكومة دامت سبع سنوات (٥١٣ ـ ٥٢٠ م) وبعد التغلُّب على الثورة أعدم رأس الجالوت على جسر الماحوزى[١٥٩].

هـ ـ مدرسة شيلهي

أُسِّست هذه المدرسة في أواخر القرن الثالث للميلاد على يد الراب «ششت» وهو من تلامذة آبا أريخا وصموئيل الفلكي ويقع تأسيسها في الجيل الثاني من دور الأمورائيم (٢٨٠ ـ ٣٠٠ م)، ولا نعلم شيئاً عن موقع بلدة شيلهي وتاريخها غير أنها لا بدَّ كانت في القسم من منطقة بابل المكتظ بالسكان اليهود من السبي البابلي.

---

(١٥٥) ابن العبري ١٤٩.

(١٥٦) Musil, «Middle Euphrates» pp. 272, 274.

(١٥٧) «إيران في عهد الساسانيين»، الترجمة العربية، ص ٣٦٧ ـ ٣٧١.

(١٥٨) انظر ما تقدم عن مدرسة نهر دعة.

(١٥٩) انظر ما تقدم حول ذلك في المادة ١٨.

١٣ ـ يهود العراق في العصر العباسي:

كان يهود العراق منذ قيام الخلافة العباسية حتى وفاة هارون الرشيد (٧٦٢ ـ ٨٠٩ م) يتمتعون بحرية تامة وبحياة آمنة ـ ثم لمَّا وقعت حروب وفتن بين الأمين والمأمون وأصحابهما سادت الفوضى ودام الاضطراب الذي شمل كل أطراف العراق إلى سنة ٨١٣ م حين انتهى حكم الخلافة إلى المأمون. فلحق باليهود من الأذى بسبب الفتن والاضطرابات الشيء الكثير شأنهم في ذلك شأن بقية السكان. ولما وُلِّيَ المأمون الخلافة أبدى تسامحاً ليس تجاه اليهود فقط بل شمل هذا التسامح كل الرعايا فاستفاد الشعب من مواهبهم العلمية على اختلاف أديانهم وتباين مذاهبهم وأطلق الحرية التامة في النشر والكلام. وقد أسَّس في عهده المركز العلمي المشهور المعروف ببيت الحكمة الذي كان ينقطع إليه الباحثون من كل فج وقد ألحق به خزانة للكتب عامرة. وفي ذلك يقول بارون في كتابه «تاريخ اليهود الاجتماعي والديني» (ج٣ ص ١٤٤): «لقد أدَّت الفتوحات الإسلامية منذ القرن السابع الميلادي إلى توحيد مناطق واسعة من إفريقية وآسيا هيأت لليهود محيطاً غنياً بالعدد والأهمية ليس في العراق وحده بل في إيران وفلسطين ومصر أيضاً، ولم يمضِ وقت طويل على تأسيس الكوفة حتى انحدروا إليها من الحيرة القريبة منها. ولما أُسِّست بغداد عام ١٤٩ هـ (٧٦٣ م) قصدها الناس من مختلف الأصقاع واللغات والأديان وكان منهم اليهود وكان معظم الخلفاء العباسيين يتميز بالتسامح والتساهل فتمتع اليهود مثل غيرهم من السكان بدرجة كبيرة من الاستقرار والطمأنينة والازدهار خلال القرون الأولى من حكم الدولة العباسية».

وفي عهد المأمون نشأ الخلاف بين رؤساء الجالوت ورؤساء المدارس الغاؤونيم وقد توسع هذا الخلاف بعد ظهور فرقة القرائين[١٦٠]، مما أفضى بكليهما إلى ضعف هاتين الرئاستين. وكان المأمون يحكم بينهم حتى ضاق صدره فاتخذ قراراً ينص على السماح لكل عشرة أشخاص إذا اتفقوا ما بينهم أن يقيموا رأساً عليهم وقد اشتد هذا الخصام في القرنين التاسع والعاشر. واستمر يهود العراق في عهد العباسيين على هذا المنوال متقلبين في نعيم العيش حتى عهد المتوكل (٨٤٧ ـ ٨٦١ م) فكان شديد الوطأة على أهل الذمة ـ إذ أمرهم سنة ٨٤٩ م بأن يلبسوا لباساً يميّزهم عن المسلمين وأن يركبوا

---

(١٦٠) انظر ما تقدم عن القرائين في الفقرة ١١.

سروجاً تختلف عن سروجهم وأن يجعلوا على أبواب دورهم علامات خاصة تميز دورهم عن دور المسلمين، كما أمر بهدم معابدهم المحدثة وتسوية قبورهم مع الأرض. وكان نتيجة لذلك أن تعطّل منصب رأس الجالوت الذي كان يساعد على إدارة شؤون اليهود الداخلية. وفي عهد القادر بالله (٩٩١ ـ ١٠٣١م) أغلقت جميع المدارس اليهودية في العراق. ثم لما تولّى المقتدي بأمر الله الخلافة (١٠٧٥ ـ ١٠٩٤ م) سار على سيرة المتوكل بالنسبة لمعاملة أهل الذمة، إلاَّ أن الوضع قد تغيّر بعده، إذ أُعيد لليهود في القرن الثاني عشر للميلاد حريتهم وحسن معاملتهم وذلك على إثر استيلاء السلطان مسعود بن محمد بن مالكشاه سنة ١١٣٢ م على مقاليد الحكم في بغداد. وقد استمر حكم السلطان مسعود في عهد الخليفة المسترشد بالله (١١١٨ ـ ١١٣٥ م) وفي عهد الخليفة المقتفي لأمر الله (١١٣٦ ـ ١١٦٠ م) واستمر معه حسن معاملة اليهود. فالوصف الذي تركه لنا الرابي بنيامين التطيلي الذي زار العراق في عهد خلافة المستنجد بالله (١١٦٠ ـ ١١٧٠ م) يؤيِّد حالة اليهود المزدهرة في هذا العهد حيث يقول: «ويقيم ببغداد نحو أربعين ألف يهودي، وهم يعيشون بأمان وعز ورفاهية في ظل أمير المؤمنين الخليفة وبين يهود بغداد عدد كبير من العلماء وذوي اليسار. ولهم فيها ثمانية وعشرون كنيساً، قسم منها في جانب الرصافة ومنها في جانب الكرخ على الشاطئ الغربي من نهر حدقل (دجلة) الذي يمر في المدينة فيشطرها شطرين. وكنيس رأس الجالوت بناء جسيم، فيه الأساطين الرخام المنقوشة بالأصباغ الزاهية المزوقة بالفضة والذهب. وتزدان رؤوس الأساطين بكتابات من المزامير بحروف من ذهب. وفي صدر الكنيس مصطبة يصعد إليها بعشر درجات من رخام، وفوقها الأريكة المخصصة لرأس الجالوت»[١٦١].

وكان يهود العراق يتعاطون التجارة وكانوا يتجشمون أخطار السفر بالبر والبحر في سبيل المتاجرة بأنواع السلع في العهد العباسي وكانوا يجمعون أموالاً طائلة من تجارتهم هذه. فيصف لنا ابن خرداذبة في كتابه «المسالك الممالك» (ص ١٥٣ ـ ١٥٤) نشاطهم في هذا المجال بما نصه: «قال مسلك التجار اليهود الراذانية الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً

(١٦١) رحلة بنيامين، ص ١٣٥، ١٣٩.

وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخز والفراء والسمور والسيوف ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم ثم يحملونها إلى الفرما ثم يركبون في البحر الغربي فربما عدلوا بتجاراتهم إلى القسطنطينية فباعوها من الروم وربما صاروا بها إلى ملك فرنجة فيبيعونها هناك وإن شاؤوا حملوا تجارتهم من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بأنطاكية ويسيرون على الأرض ثلاث مراحل إلى الجابية ثم يركبون في الفرات إلى بغداد ثم يركبون في دجلة إلى الإبلة ومن الإبلة إلى عمان والسند والهند والصين».

أما رئاسة الجالوت في عهد الدولة العباسية فكان منصب رأس الجالوت اليهود مُعترفاً به رسمياً من خلفائها حتى خلافة القادر بالله (٩٩١ ـ ١٠٣١ م)، ففي زمنه اضطربت أحوال الخلافة فتعطّل منصب رأس الجالوت. وكان آخر رؤساء الجالوت في عهد القادر الغاؤون شريرا المتوفى سنة ١٠٠٠ م وولده الغاؤون هاي المتوفى سنة ١٠٣٠ م. ولما استعادت الخلافة العباسية سابق سلطتها ونفوذها، بعدما تقلّص ظل السلاجقة في بغداد، أمر الخليفة المقتفي لأمر الله (١١٣٦ ـ ١١٦٠ م) بإعادة مراسيم رئاسة جالوت اليهود إلى ما كانت عليه، فوجّه العهدة بهذا المنصب للربي سليمان بن حسداي سليل آل الملك داود من جانب أمه. ولما توفي سليمان بن حسداي خلفه ابنه الرابي دانيل سنة ١١٧٤ م من غير أن يخلف ولداً يرث منصبه فتنازع على أثر ذلك ولدا أخيه داود وصموئيل حول التولية، وكانا يومئذ في الموصل فانتهز الربي صموئيل بن علي بن إسرائيل اللاوي الملقب بابن الدستور الذي كان يرأس مثيبة بغداد الكبرى المعروفة بمثيبة «غاؤون يعقوب» وضم منصب رأس الجالوت إلى منصبه، وبذلك أصبح يجمع بين السلطتين الروحية والسياسية على أبناء طائفته. وقد بقي الربي صموئيل يشغل هذين المنصبين إلى أن تُوفيَ سنة ١٢٠٨ م. وقد ورد ذكر آخر رأس جالوت قبل انهيار الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م، هو فخر الدولة هارون بن يوسف ابن دانيال الداودي رأس الجالوت[١٦٢].

---

(١٦٢) رحلة بنيامين ص ١٩٧ ـ ٢٠٥.

ويصف بنيامين التطيلي رأس الجالوت بظل الخلافة العباسية وقد كان يشغل هذا المنصب الربي دانيال بن حسداي عندما زار بنيامين العراق في عهد المستنجد بالله (١١٦٠ ـ ١١٧٠ م) فيقول: «أما رئيس العلماء جميعهم فهو الربي دانيال بن حسداي الملقب «رأس الجالوت» وهو يستمد سلطانه من كتاب عهد يوجه إليه من الخليفة أمير المؤمنين، وينتقل هذا المنصب إلى ذريته بالوراثة. وعند نصب الرئيس يمنحه الخليفة ختم الرئاسة على أبناء ملته كافة. وعندما يخرج رأس الجالوت لمقابلة الخليفة يسير معه الفرسان، ويكون رئيس الجالوت ممتطياً صهوة جواده وعليه حلة من حرير منقوش عليها شعار الخليفة. وعندما يمثل في حضرة الخليفة يبادر إلى لثم يده. وعندئذ ينهض الخليفة وينهض معه الحجاب ورجال الحاشية، فيجلس الرئيس فوق كرسي مخصص لجلوسه قبالة الخليفة.

«ويسري نفوذ رأس الجالوت على جميع طوائف اليهود المنتشرة في شنعار (العراق) وبلاد خراسان، وسبأ (اليمن) وبلاد ما بين النهرين (الجزيرة) وجبال اراراط (أرمينية) وبلاد اللان (أذربيجان) المحوطة بالجبال الشاهقة والتي لا ينفذ إليها من سوى الأبواب الحديد (مضيق دربند) أو (باب الأبواب) التي شيَّدها الإسكندر فتهدمت من بعده، وطوائف اليهود المنتشرين في سبرية وبلاد التوغرميم (التركمان) وبلاد كرجستان (جورجية) حتى شواطئ نهر جيحون وحدود سمرقند وبلد الطيبات (التيبت) وديار الهند. ففي هذه الأقطار كلها لا يُعَيَّن الربيون والخطباء إلا بمعرفة رأس الجالوت، وهم يشخصون إلى بغداد بعد نصبهم لمقابلة الرئيس، ويحملون إليه الهدايا والعطايا من أقصى المعمور. ويمتلك الرئيس العقارات الواسعة والمزارع والبساتين في جميع أنحاء بابل (العراق) وأكثرها مما ورثه عن أجداده. وأملاكه هذه مصونة، وليس من حق أحد أن ينتزعها منه»[١٦٣].

أما المدارس اليهودية في عهد الخلافة العباسية فبعد أن أغلقت على عهد القادر لأمر الله (٩٩١ ـ ١٠٣١ م) بقيت مغلوقة لفترة دامت مائة عام. ثمَّ أُعيدت على عهد الخليفة المقتفي لأمر الله (١١٣٦ ـ ١١٦٠ م) ففتحت في بغداد مدارس علمية عديدة كان أكبرها وأهمها مثيبة «غاؤون يعقوب» عُهِدَ برئاستها الى الحبر الرباني إبراهيم، ومن بعده انتقلت رئاستها إلى الربي علي بن إسرائيل اللاوي (١١٥٢ ـ ١١٦٠ م). وهكذا نشأ جيل جديد في رؤساء المدارس يُعرفون

---

(١٦٣) رحلة بنيامين، ص ١٣٨.

بغاؤونية بغداد ظلَّ مستمراً يؤدِّي مهمته إلى أن سقطت الدولة العباسية. وفي خلافة المستنجد بالله (١١٦٠ ـ ١١٧٠م) انتقلت رئاسة المثيبة إلى الربي صموئيل بن علي بن إسرائيل اللاوي الملقب بابن الدستور (١١٦٠ ـ ١٢٠٨ م)، وهو الذي ضمَّ منصب رأس الجالوت إلى منصبه في رئاسة المثيبة سنة ١١٧٤ م. وفي هذه الفترة بالذات (أي في خلافة المستنجد) زار الربي بنيامين التطيلي بغداد فشهد الربي صموئيل بصفته رئيس مثيبة «غاؤون يعقوب»، والربي دانيال بن حسداي بصفته رأس الجالوت، وكان ذلك قبل أن يضم الربي صموئيل رئاسة الجالوت إلى رئاسة المثيبة سنة ١١٧٤ م. وفي كلام بنيامين على المدارس اليهودية في بغداد يقول «إن لليهود في بغداد عشر مدارس مهمة، ورئيس المدرسة الكبرى هو الربي صموئيل بن علي الرباني والغاؤون، رأس مثيبة «غاؤون يعقوب». وكان لكل مدرسة من المدارس التسع الأخرى رئيس يدير شؤونها. ويضيف بنيامين إلى ذلك قوله: «وهؤلاء الأساتذة العشرة يعرفون بالمعتكفين لا عمل لهم غير النظر في مصالح أبناء طائفتهم، ويقضون بين الناس طوال أيام الاسبوع، كل في مدرسته، خلا نهار الاثنين حيث يجتمعون في مجلس كبيرهم رأس مثيبة «غاؤون يعقوب» للنظر في شؤون الناس مجتمعين». أمَّا خلف الربي صموئيل في منصب رئاسة المثيبة فيذكر ابن الساعي في كتابه «الجامع المختصر» (ص ٢٦٦ ـ ٢٦٩) أن الذي خلف ابن الدستور بعد وفاته سنة ١٢٠٨ م هو دانيال بن العازر بن هبة الله، وكان ذلك في خلافة الناصر لدين الله العباسي (١١٨٠ ـ ١٢٢٥ م). وقد أورد ابن الساعي نص كتاب العهدة الذي وجهه إليه الخليفة فنستخلص من نص هذا الكتاب أن العازار بن هبة الله مُنح الصلاحيات نفسها التي كان يتمتع بها ابن الدستور وهي تجمع بين الرئاستين رئاسة المثيبة الكبرى ورئاسة الجالوت، حيث ورد في الكتاب ما ينص على «ترتيبه (العازار) رأس مثيبة اليهود على عادة الدارج، حيث كان ابن الدستور رأس مثيبة أيضاً. وأن يكون له النظر في ما كان للدارج النظر فيه والولاية عليه في جميع الأماكن التي جرت عادته بتوليها والتصرف فيها، وأن يتميز عن نظرائه وأشكاله باللبسة التي عُهدت لأمثاله، وأن تخرج إليه طوائف اليهود بمدينة السلام من الرسوم التي جرت عادة من تقدمه بها بالأماكن التي كان يتصرف فيها من غير معارضة له في ذلك». والظاهر أن رئاسة دانيال بن العازار لم تستمر أكثر من سنتين حيث أورد ابن الساعي في حوادث سنة ١٢١٠ م خبر توليه هبة الله بن أبي الربيع الطبيب الفيلسوف رئاسة المثيبة في خلافة الناصر أيضاً وهو في الستين من عمره. ومن

بعده وُلّي الرئاسة أبو الفتح إسحق ابن الشويخ سنة ١٢٢١ م واستمر في الرئاسة حتى توفي سنة ١٢٤٧ م فيكون ابن الشويخ قد عاصر أربعة من الخلفاء هم الناصر والظاهر والمستنصر وتوفي في السنة الخامسة من خلافة المستعصم. ووُلِّيَ رئاسة المثيبة بعد ابن الشويخ دانيال بن صموئيل كوهين بن أبي الربيع، ومن بعده وُلِّيَ الرئاسة عالي بن زكرية الأربلي سنة ١٢٥٠ م، وخلفه صموئيل بن دانيال كوهين ابن أبي الربيع، وفي عهده قضى المغول على الخلافة العباسية بدخولهم مدينة بغداد سنة ١٢٥٨ م. وبانتهاء الخلافة العباسية انتهت غاؤونية بغداد ومدارسها بعد أن طوت قرناً كاملاً من الزمن. وبذلك يكون العباسيون قد حكموا العراق حوالى خمسة قرون وقام منهم سبعة وثلاثون خليفة.

وفيما يلي تسلسل رؤساء مثيبة بغداد الكبرى منذ تأسيسها في عهد المقتفي لأمر الله (١١٣٦ ـ ١١٦٠ م) حتى غلقها سنة ١٢٥٨ م.

الحبر الرباني إبراهيم ١١٣٦ ـ ١١٥٢ م.

الربي علي بن إسرائيل اللاوي ١١٥٢ ـ ١١٦٠ م.

الربي صموئيل بن علي بن إسرائيل اللاوي الملقّب بابن الدستور ١١٦٠ ـ ١٢٠٨ م.

دانيال بن العازار بن هبة الله ١٢٠٨ ـ ١٢١٠ م.

هبة الله بن أبي الربيع الطبيب الفيلسوف ١٢١٠ ـ ١٢٢١ م.

أبو الفتح إسحق ابن الشويخ ١٢٢١ ـ ١٢٤٧ م.

دانيال بن صموئيل كوهين بن أبي الربيع ١٢٤٧ ـ ١٢٥٠ م.

عالي بن زكريا الأربلي ١٢٥٠؟

صموئيل بن دانيال كوهين ابن أبي الربيع ؟ ـ ١٢٥٨ م.

١٤ ـ المسيح المنتظر وفتنة داود ابن الروحي:

ويرى البعض أن فكرة المسيح المنتظر برزت في الفكر اليهودي في وقت متأخر ولم تظهر إلاّ بعد سقوط دويلة اليهود «يهوذا» وأسرهم في بابل ثم خضوعهم للفرس[١٦٤]. وهذا ما دفع كثير من الباحثين إلى الاعتقاد بأنَّ فكرة

(١٦٤) الدكتور أحمد شلبي «اليهودية» ص ٢١١.

المنقذ المخلص مستعارة من الزرادشتية التي كان يدين بها الفرس(١٦٥). وتتحدث التوراة في بعض أسفارها عن المسيح المنتظر فتقول: «يولد لنا ولد، ونعطى ابناً، وتكون الرياسة على كتفه ويُدعى اسمه عجيباً ويكون إلهاً قديراً وأباً وأبدياً رئيس السلام، لنمو رياسته يجلس على كرسي داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن وإلى الأبد، غيرة رب الجنود تفعل هذا»(١٦٦).

وقد رسم اليهود الصورة التي تخيلوها للمسيح المنتظر فذكروا أن الناس في ظله لن يعيشوا وحدهم في العالم الجديد في سلام وسعادة بل يشاركهم في ذلك كل أنواع الحيوانات، فالذئب يُسالم الحمل، والعجل يداعب الأسد، ويربض النمر مع الجدي، والعجل المسمن والشبل معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقرة والدابة ترعيان، تربض أولادهما معاً الخ... ويكون في ذلك اليوم أن السيد يعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن... حماة ومن جزائر البحر، ويرفع راية للأمم ويجمع منفيي إسرائيل، ويضم مشتتي يهوذا من أربعة أطراف الأرض»(١٦٧). وظهر عيسى بن مريم وأعلن بعض اليهود أنه المسيح المنتظر ولكن أكثرهم رفضوا هذا الرأي وقاوموا دعوة عيسى حتى حاكموه وصلبوه.

وانطلاقاً من عقيدة «المسيح المنتظر» قام واحد بعد الآخر من الأدعياء والدجالين كل يدَّعي أنه المسيح المنتظر. ففي عام ٦٤٠ م ادَّعى شاب يهودي من بيت أرامايا من قرية الفلوجة بالعراق أنه المسيح المنتظر، وقد تجمَّع حوله حوالى ٤٠٠ شخص من مختلف المهن وحرقوا ثلاث كنائس وقتلوا عمدة المنطقة، ولما بلغ خبر هذا المسيح وأعوانه أرسلت السلطة ثلة من الجيش أعملت فيهم بطشاً وتقتيلاً وقبض على المسيح المنتظر وأُعدم(١٦٨).

ومن أولئك الأدعياء في الشرق الإسلامي خلال القرون الوسطى، دجال ظهر في الشام في آخر خلافة عمر بن عبد العزيز وأول خلافة يزيد الثاني (٧٢٠ ـ ٧٢٤ م)، وآخر من بلدة شيرين ادَّعى أنه المسيح المنتظر، ووعد بأنَّه سيحقِّق معجزة استعادة فلسطين. وفي نفس القرن ظهر يهودي آخر من أصفهان يدعى

---

(١٦٥) المرجع السابق، ص ٢١١.

(١٦٦) اش، ٩: ٦ ـ ٧.

(١٦٧) الدكتور أحمد شلبي «اليهودية» ٢١٩، ٢١٢ ـ ٢١٣.

(١٦٨) موسيل، «الفرات الأوسط» النص الإنكليزي ص ٢٨٠.

عبيدالله أبو عيسى إسحق بن يعقوب الأصفهاني ابتدأ دعوته في زمن آخر ملوك بني أمية مروان بن محمد (٧٤٤ ـ ٧٥٠ م) وقال إن عودة فلسطين لم تتم إلاَّ بالقتال، وأعدَّ جيشاً من اليهود وقد عاشت حركته فترة من الزمن في عهد السفاح إلاَّ أن الخليفة المنصور قضى على الحركة وهزم جيش اليهود وفرَّ أبو عيسى باتجاه الشمال(١٦٩). وفي حوالى ١١٦٠ وفي عهد خلافة المقتفي لأمر الله العباسي حدثت فتنة كان سببها يهودي يدعى داود بن الروحي كان قد ادعى أنه المسيح المنتظر. وداود هذا نشأ في سواد الموصل ثم انتقل إلى بغداد حيث تفقه بعلوم اليهود في مدارسهم الكبرى، وقد برع في علوم العرب ولغتهم، يضاف إلى ذلك إتقانه لفنون السحر والشعوذة. وقد اختار بلدة العمادية في شمال العراق ليعلن فيها نبوته، فاستجاب عدد من يهود العجم وأذربيجان وسواد الموصل إلى دعوته. ولما استفحل أمره وطرق حديثه أسماع سلطان العجم أمر السلطان بالقبض عليه وأودعه السجن الكبير في طبرستان، ثم أُطلق سراحه وعاد إلى العمادية. وبعد ذلك كتب سلطان العجم إلى الخليفة في بغداد سأله أن يوسط رؤساء اليهود لكي يؤثّروا بنفوذهم فيكف داود من أعماله وتمرده وهدَّد بالانتقام من جميع اليهود الموجودين في مملكته ويفنيهم عن آخرهم، فأرسل رأس الجالوت في بغداد يترضى ملك العجم وقدَّم له مبلغاً جسيماً فأصدر الملك أمره بالعفو. ولما كان داود ينوي الاستيلاء على قلعة العمادية بالقوة فبلغ خبر ذلك صاحبها فقتله. ويروي بنيامين التطيلي أنه قضى مذبوحاً بيد حميه أثناء ما كان غارقاً في نومه(١٧٠).

(١٦٩) الدكتور أحمد شلبي «اليهودية»، ص ٢١٤.

(١٧٠) اقرأ تفاصيل هذا الحادث في «رحلة بنيامين التطيلي»، ص ١٥٤ ـ ١٥٧، ٢٠٦ ـ ٢٠٩. انظر أيضاً: يوسف غنيمة، «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ص ١٢٤ ـ ١٢٧.

الفصل الرابع

الوجود الثالث
لليهود في العراق

ترجع المرحلة الثالثة لوجود اليهود في التاريخ القديم للعراق إلى ما قبل حوالى ١٤٠٠ سنة (القرن السابع للميلاد)، وذلك حين نزحت القبائل العربية المتهودة من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) إلى الفرات الأوسط في سورية والعراق.

الفصل الرابع

الوجود الثالث لليهود في الفرات الأوسط

١ ـ تمهيد.

٢ ـ اليهودية في جزيرة العرب.

٣ ـ أصل يهود الجزيرة.

٤ ـ يهود الجزيرة والتلمود.

٥ ـ يهود الجزيرة في عهد النبي محمد (ﷺ).

٦ ـ قبيلة بني ركاب اليهودية.

٧ ـ يهود خيبر.

٨ ـ صلة يهود الجزيرة بفلسطين.

٩ ـ اليهودية في اليمن.

١٠ ـ خطل النظرية القائلة بهجرة يهود فلسطين إلى جزيرة العرب.

١١ ـ إسلام بعض يهود الجزيرة.

١٢ ـ الخاتمة.

١ ـ تمهيد:

لقد عرضنا فيما تقدّم عرضاً مجملاً للأحداث التاريخية التي مرَّت في الدور الأول الذي وُجد فيه اليهود في شمالي العراق لأول مرة[١]، ثم عرضنا نبذة عن

(١) انظر الفصل الأول.

الدور الثاني الذي وُجد فيه اليهود في جنوبي العراق[٢]، ونأتي الآن على الدور الثالث الذي دخلت فيه إلى العراق جماعة من قبائل العرب المتهودة وقد أُخرجت من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض) (١٣ ـ ٢٣ هـ / ٦٣٤ ـ ٦٤٤ م) وهؤلاء عرب أقحاح في لغتهم وقوميتهم ووطنهم وقد اختلطوا بعد مجيئهم للعراق بالمزارعين العرب الذين يرتبطون معهم بوشائج الدم والقومية، وأن هذا الارتباط كان عاملاً قوياً في حمل أكثر هؤلاء العرب المتهودين على اعتناق الإسلام واندماج بالبيئة العربية الإسلامية كلياً، وقد بقي القليل منهم على يهوديته. وقد كان مجيء هؤلاء إلى العراق وسورية في القرن السابع للميلاد، أي بعد ظهور اليهود المسبيين من العهد الآشوري والكلداني في العراق بأكثر من ألف وخمسمائة عام، وقد جاؤوا بصفتهم القبائلية العربية ومعهم مقتنياتهم ومواشيهم من أغنام وجِمال بعد أن عوضهم الخليفة عمر (رض) عن ممتلكاتهم غير المنقولة واستقر أكثرهم في منطقة الفرات الأوسط (في سورية والعراق) حيث وفرة فرص الحياة الزراعية على سواحل نهر الفرات، مع العلم أن هؤلاء بقوا محافظين على لغتهم وقوميتهم العربية. وكانت هذه القبائل العربية المتهودة عند مجيئها للعراق لا تعلم شيئاً عن وجود ما يسمَّى بالتلمود الذي أصبح جزءاً من الديانة اليهودية المتأخرة التي نشأت في بابل[٣]. لذلك لم تقر بالتلمود وقد وجد من بقي منها على يهوديته في ثورة عنان بن داود (زعيم فرقة القرائين التي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة)[٤] ما يتفق ومعتقدهم البدوي الخالص فانضم أكثرهم إلى هذه الفرقة[٥].

وقد اتخذت هذه القبائل العربية المتهودة طريقها نحو الساحل الغربي للفرات الملاصق للبادية (بادية الشام)، وهذا هو الطريق نفسه الذي سلكته القبائل العربية في هجراتها من الجزيرة العربية نحو وادي الرافدين منذ أقدم الأزمنة ولا يزال الموئل الطبيعي للهجرات العربية من وطنها الصحراوي في جزيرة العرب، فاستقروا في منطقة دير الزور وعانة، ثم انحدروا جنوباً نحو المناطق اليهودية على نهر الفرات. كما تشير الأخبار إلى أن بعض اليهود العرب

---

(٢) انظر الفصل الثالث.

(٣) انظر ما تقدّم عن التلمود في المادة ١٠ (الفقرة د) من الفصل الثالث.

(٤) انظر المادة ١١ من الفصل الثالث.

(٥) ليرسي، «تاريخ الشعب اليهودي»، ص ٢٣٥.

من نواحي الحجاز وخيبر قد لجؤوا إلى الكوفة. ولما كان يهود الجزيرة ذوي خبرة بالأعمال الزراعية فمارس أكثرهم الزراعة في مستقراتهم الجديدة على نهر الفرات إلى جانب أهل المنطقة. وهم عرب مثلهم لم يُفرّق بينهم غير الدين.

لذلك فقد أخذ العرب اليهود النازحون إلى ساحل الفرات يمارسون الزراعة الى جانب المزارعين العرب في المناطق التي حلوا بها واندمجوا بالمحيط العربي الإسلامي بشكل طبيعي بعد انتشار الإسلام في هذه المناطق ذاتها واتخذ أكثرهم الإسلام ديناً لهم وبقي القليل منهم على اليهودية. ومما يدل على اندماج هؤلاء العرب المتهودين الذين بقوا على يهوديتهم مع السكان ما ذكره الرحّالة البرتغالي بدرو تكسيرا Pedro Teixeira الذي زار العراق سنة ١٦٠٤ ـ ١٦٠٥ م عن يهود عانة من أن عدداً منهم أغنياء، ولكن أغلبهم في فقر مدقع وجميعهم يسكنون محلة واحدة ولهم كنيس ومصلى ويقومون بشعائر دينهم بكل حرية. فقال ما نصه: «إن مائة وعشرين بيتاً من سكانها (سكان عانة) يهود عرب وإن لم يكونوا أغنياء فإنّهم يعيشون عيشاً وسطاً ويراعي جانبهم أمير البلاد وموظفوه وكانوا يملكون بيوتاً وأراضي كما يملك العرب (المسلمون) الذين يؤلفون بقية سكانها»[٦]. ولا شك أن هؤلاء هم من بقايا العرب المتهودين الذين نزحوا من جزيرة العرب إلى شطئان الفرات الغربية وقد بقوا على يهوديتهم.

وقد ورد فيما رواه الإخباريون أن الخليفة عمر (رض) لما أمر بإجلاء مَن لم يكن له عهد من اليهود عن جزيرة العرب أرسل أبا الهيثم بن التيهان وسهل بن أبي خيثمة وزيد بن ثابت، فقوموا نصف التربة بقيمة عدل، فدفعها إليهم، وأجلاهم إلى جهة بلاد الشام[٧]. وهذا ما معناه أن عمر (رض) دفع تعويضاً إلى العرب اليهود الذين أجلوا عن ديارهم عن أموالهم غير المنقولة وممتلكاتهم الأرضية. أمّا المقصود ببلاد الشام فهو منطقة الفرات الأوسط.

ويلاحظ أن هذه المناطق التي نزح إليها أعراب الجزيرة المتهودين لم تكن في أواسط القرن السابع الميلادي، أي قبل حوالي ألف وثلاثمائة سنة كثيفة السكان، إذ كان المجال فسيحاً لكل مَن كانت عنده إمكانية إعمار الأراضي الزراعية، فكان شأن القادمين إلى هذه المنطقة شأن جميع القبائل العربية التي نزحت من جزيرة العرب واستقرت في منطقة الهلال الخصيب. وفضلاً عن ذلك

---

(٦) يوسف غنيمة، «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ١٩٢٤، ص ١٦٠.

(٧) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ١٧٢.

كانت أكثر الأراضي الزراعية مهجورة بسبب المعارك والغزوات وانتقال الحكم من يد إلى يد. ولما كان القادمون عرباً لغة وقومية فلا عجب أن استقبلهم السكان ببالغ الترحيب عملاً بما اشتهر به العرب من إكرام الضيف وإيواء الغريب والمهم في هذه المرحلة أن مبدأ «الأرض لمن يزرعها» كان هو المطبق عملياً وبصورة طبيعية مع مراعاة حق الأسبقية لمَن وُجد من قبل[٧أ].

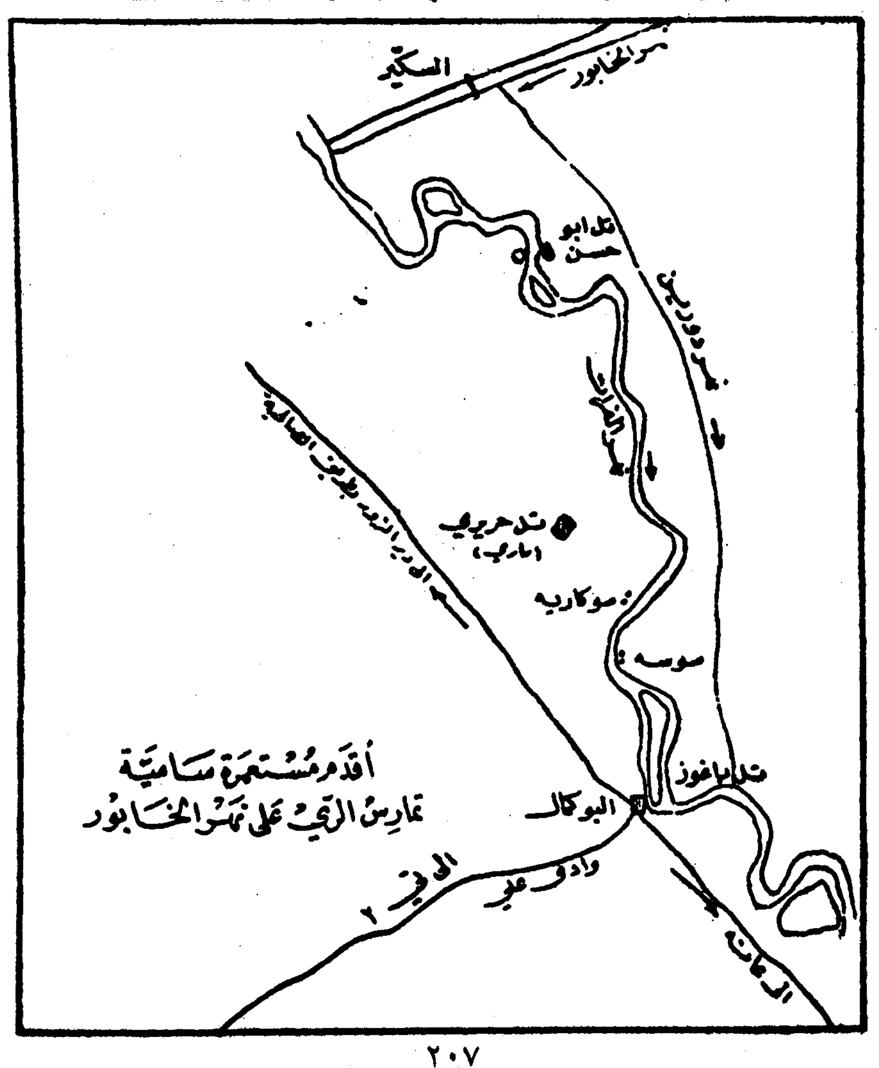
وهناك ما يدل على أن سكان هذه المنطقة سمحوا لهؤلاء القادمين بأن يستغلوا بعض الأراضي الزراعية الخصبة على نهر الفرات، فاستقروا في المنطقة الممتدة على طول نهر الفرات في مناطق دير الزور وعانة والحديثة حيث كانت هناك مراكز يهودية مهمة. ففي بلدة «دورا» (صالحية الفرات) عُثر على أثر كنيس قديم يرجع إلى القرن الثالث الميلادي مما يدل على أن بضع عائلات هناك اعتنقت الديانة اليهودية[٨].

وهناك دلائل على أن يهود الجزيرة العربية عندما نزحوا إلى وادي الفرات استقر بعضهم في المنطقة الواقعة على الجانب الشرقي من نهر الفرات في المثلث المستطيل الواقع ما بين نهر الخابور (خابور الفرات) عند مصبه في النهر وشط الفرات قاعدته المستطيلة تمتد على طول ساحل نهر الفرات. فكان هناك سد قديم على نهر الخابور في نقطة تقع على بعد ١٥ كيلومتراً من شمال ترتيسيا يُدعى «السكير» (أي السد الصغير) يتفرع من أمامه جدول قديم يسمّى في الوقت الحاضر «نهر دورين» ويسقي الأراضي الممتدة بموازاة نهر الفرات ويسير مسافة ١١٢ كيلومتراً حتى ينتهي عند التل المسمّى «تل باغوز»، ثم يصب في نهر

(٧ أ) ويشير أهل الإخبار إلى أن هناك أُسَراً يهودية بقيت في الجزيرة العربية على دينها، فقد كان في يثرب نفر من اليهود عاشوا فيها في زمن النبي ﷺ حتى بعد إجلاء بني النضير وبني قريظة وبعد غزوة خيبر. كما بقيت أُسر يهودية في وادي القرى في تيماء قروناً عديدة بعد صدور أمر الخليفة عمر (رض) بإجلاء اليهود والنصارى من الجزيرة، بل ورد أن عدداً منهم عاش في المدينة أيضاً. أما في اليمن، فقد ظلّ اليهود فيها إلى عهد قريب (الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ١٧٢).

(٨) كانت بلدة «دورا» ميناءً تدمرياً مهمًّا على الفرات، تقع على بعد ٨٥ كيلومتراً عن تدمر إلى الشرق منها، أسَّسها الاغريقيون في أعقاب الإسكندر المقدوني، وسُمِّيت «دورا أوروبوس» أو «دورا نيكاتوريس» نسبة إلى نيكاتور، احد كبار القوّاد المقدونيين (٣٨٠ ـ ٣١٢ ق.م.) قِيل أنه أنشأها سنة ٣٠٠ ق.م. والمدينة على شكل حصن منيع واقعة على هضبة على ضفة الفرات الغربية تطل على النهر والصحراء. أمّا لفظ «دورا» فيعتقد أنه آرامي.

الفرات. هذا ما يدل على أن الزراعة التي تعتمد على الري كانت تُمارس في هذه المنطقة الواقعة بين الساحل الأيسر لنهر الفرات والضفة اليسرى لنهر الخابور منذ أقدم الأزمنة وأعاد يهود الجزيرة استغلالها بإعادة حفر الجداول وإنشاء سد السكير من جديد. وهذه كانت منطقة العموريين التي تمثِّل أقدم المستوطنات التي أقامها الساميون العرب على ضفاف الفرات بعد نزوحهم من شبه جزيرة العرب. ويدلنا التاريخ على أن العموريين أسَّسوا في هذه المنطقة دولة كبرى واتخذوا لهم عاصمة فيها تُعرف باسم «ماري» تُسمَّى أطلالها اليوم باسم «تل الحريري» وهي تقع على الضفة الغربية لنهر الفرات على مسافة ١٦ كيلومتراً شمالي غربي



البوكمال بقرب قريتي السيال والغبرة في محافظة دير الزور وفي الجانب الشرقي آثار لحصن قديم يُسمَّى «تل باغوز» الذي مرَّ ذكره، ومن المرجح أن هذا الحصن من ملحقات العاصمة العمورية «ماري». (انظر المرتسم رقم ٢).

ومن المراكز اليهودية التي كانت على نهر الفرات في أثناء نزوح يهود الجزيرة العربية إلى جهة الفرات الجاليات اليهودية في منطقة «نهر دعة» قرب عانة وفي «فومبديثة» قرب الأنبار و«سورا» على نهر الفرات وقد أُسست فيها كبريات المدارس التلمودية[٩].

وكان ليهود الفرات اتصال وثيق بالعرب الساكنين بجوارهم وكانوا يعيشون معهم بسلام ووئام كما كانوا يتاجرون معهم ويعقدون أحلافاً على طريقة أهل المدن والحضر في عقد عهود ومواثيق مع سادات القبائل لمنع الطامعين بهم من التحرُّش بأملاكهم وتجارتهم، وكانوا يشاركون مع حلفائهم في دفع الدية وما إلى ذلك من الواجبات الملقاة على عاتق القبيلة المتعاقدين معها. ومن عادات القبائل العربية في العراق أن مَن ينزل بها من القبائل الأخرى يصبح منتمياً إلى تلك القبيلة وله حقوق أفرادها مع احتفاظه بنسب قبيلته الأصلية. ومما لا شك فيه أن القادمين إلى العراق من القبائل العربية المتهودة طُبقت عليهم هذه الطريقة شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية الأخرى التي كانت تنزح من جزيرة العرب وتنزل بالمدن والقرى وتمارس الحياة الزراعية المستقرة.

وقد حافظت هذه البطون المتهودة التي استقرت على نهر الفرات على قوميتها ولغتها العربية وتقاليد وعادات القبائل التي تفرعت منها متمسكة بأعرافها ونظم حياتها الاجتماعية في الملكية، ولم يفرق بين إخوانهم العرب في شيء غير الدين الذي اعتنقوه عن طريق التبشير.

وقد شاءت الأقدار أن حدثت بعد مرور بضع مئات من السنين ظاهرة طبيعية في نهر الفرات الأوسط أدَّت إلى هبوط مستوى النهر في هذه المنطقة، فأحدثت شبه شلالات (مساقط) في النهر، فلم يعد بإمكان الزراع مواصلة زراعتهم وإيصال المياه إليها سيحاً، فضلاً عن ضيق الأرض بالسكان، فاضطر قسم من الزراع إلى مغادرة ديارهم وقراهم والتوجه جنوباً، بينما بقي القسم الآخر من السكان في مناطقهم وأخذوا يستعينون بالنواعير لرفع المياه إلى

---

(٩) انظر ما تقدّم حول هذه المدن في المادة ١٢ (الفقرات أ وب وج) من الفصل الثالث.

حقولهم الزراعية مستخدمين القوى المائية المولدة من الشلالات التي أحدثها هبوط قعر النهر في تدوير هذه النواعير الضخمة، وهذه لا تزال تُستعمل حتى يومنا هذا في منطقة عانة وراوة كما كانت عليه في تلك الأزمان.

أما القبائل العربية المتنصرة التي أجلاها الخليفة عمر (رض) مع القبائل العربية المتهودة فكان أكثرهم من نجران فاشترى عمر (رض) منهم أموالهم (بمعنى عوضهم عن ممتلكاتهم) ولجؤوا إلى جنوب الفرات في جوار الكوفة حيث أسَّسوا مستعمرة سمُّوها باسم بلدهم الأصلي «نجران» كما أن بعضهم انتقل إلى قرية تدعى «نهر ابان» (من طساسيج الكوفة) وهؤلاء اندمجوا بالمحيط الإسلامي كلياً(١٠).

ومما كان يشجع اللاجئين الجدد من العرب المتهودين أو المتنصرين على الدخول في الإسلام التخلّص من الجزية التي تؤخذ من أهل الذمة، أي اليهود والنصارى، البالغين من الذكور. أمَّا مقدار الجزية التي فرضها عمر بن الخطاب على أهل الذمة في العراق فهناك روايتان، الأولى تفيد أنه فرض ٢٤ درهماً في السنة على كل شخص، والرواية الثانية تفيد أنه فرض ٤٨ درهماً على الأغنياء و٢٤ درهماً على متوسطي الحال و١٢ درهماً على العامة. وهذه تسقط عن الفرد بمجرد دخوله في الإسلام(١١). ومما يذكر في هذا الصدد أن الخليفة عمر (رض) استثنى نصارى بني تغلب وأهل نجران من دفع الجزية. وكان ذلك على ما يعتقد استجابة لاحتجاجهم على إخضاعهم لرسم الجزية باعتبارهم من القبائل العربية التي تربطهم بالعرب وشائج قربى وأن خضوعهم لهذه الرسوم تُعد إهانة لهم.

وهناك ما يدل على أن أكثر الجماعات المتهودة والجماعات المتنصرة في جزيرة العرب اعتنقت الإسلام بعد ظهوره لما بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية من تراث مشترك يجمع بينهم جميعاً، هو التراث العربي المتمثل بحياة البداوة والبيئة الصحراوية. هذا مع العلم أن الصابئ إلى الإسلام كان يُعفى من جميع الضرائب على الإطلاق بما في ذلك الخراج أي ضريبة الأرض والجزية. فكانت الأرض التي يملكها غير المسلم تُعفى من الضرائب إذا صبأ المالك إلى الإسلام أو إذا باعها إلى مسلم. فنشأ نتيجة لذلك دافع اقتصادي قوي في الدخول في الإسلام أفواجاً. وقد ظلَّ هذا النظام معمولاً به أكثر من قرن في

---

(١٠) ياقوت، «معجم البلدان»، ٤: ٧٥٧ ـ ٧٥٨.

(١١) عبد العزيز الدوري، «تاريخ العراق الاقتصادي»، ص ١٩٦.

صدر الإسلام مما شجع على تحوُّل الوثنيين وأهل الذمة وبخاصة المزارعين منهم إلى الإسلام[١٢].

٢ ـ اليهودية في جزيرة العرب:

أما كيفية انتشار اليهودية في جزيرة العرب فيقول بعض الباحثين أن اليهودية دخلت إلى الجزيرة العربية نتيجة لهجرة يهودية من فلسطين إلى الجزيرة العربية في الفترة الواقعة بين خراب الهيكل في عام ٧٠ للميلاد وإخراج هدريان لليهود من فلسطين عام ١٣٢ م. ويقول البعض الآخر أن اليهود هاجروا إلى الجزيرة العربية منذ عهد النبي موسى عليه السلام، أي منذ القرن الثالث عشر قبل الميلاد. فيروي أهل الأخبار أن النبي موسى (ع) أرسل جيشاً إلى الحجاز لمقاتلة العمالقة فاستقر ذلك الجيش في يثرب بعد فتكه بالعماليق. ومما ورد ذكره أيضاً أن داوود هاجر مع سبط يهوذا إلى خيبر وتملّك هناك ثم عاد إلى إسرائيل. والأغرب من ذلك كله أن نرى بعض الباحثين يقول أن «الجزيرة العربية هي موطن اليهود الأصلي، فالمستر برنز مؤلِّف كتاب «المدنية الغربية» يقول ما نصه: «إن أكثر الباحثين يتفقون على أن الجزيرة العربية هي موطن اليهود الأصلي»[١٣] وهذا الكتاب من أهم الكتب الجامعية تُدرّس في أكثر جامعات العالم وقد طُبع منه لحد الآن سبع طبعات وقد سبقت الإشارة إلى ذلك ومثل ذلك يقول ولفنسون (وهو يهودي صهيوني) في كتابه «تاريخ اللغات السامية» (ص ٥) وهو كتاب يرجع إليه الباحثون والمؤلفون: «إن الهجرة الإسرائيلية صدرت من الجزيرة العربية وفتحت بلاد فلسطين وكان هذا الفتح سبباً لتقلبات اجتماعية ودينية كثيرة كبيرة الأثر في التاريخ العام» ولا ندري كيف يوفق ولفنسون بين نزوح اليهود من مصر في عهد النبي موسى وبين نزوحهم من جزيرة العرب كما تؤكّد ذلك التوراة. وما هذه الأقوال وأمثالها ما هي إلاَّ قصص كان يروّجها اليهود بين عرب الجزيرة لإثبات وشائج القربى بين العرب واليهود وترغيب عرب الجزيرة في الأخذ باليهودية. وهكذا «فقد حسب أهل الأخبار العمالقة من سكان يثرب القدماء، ومن سكان أعالي الحجاز، فزعموا أن تلك الحروب قد وقعت في هذه

---

(١٢) دانيل وينيت «الجزية والإسلام»، ترجمة الدكتور فوزي فهيم جادالله بيروت، ١٩٦٠، ص ٣٠.

(١٣) E.M. Burns op. cit., p. 98.

المنطقة وأن اليهود قد سكنوها منذ زمن النبي موسى (ع). وقد أخذ الإخباريون رواياتهم هذه من اليهود، ومن دخل في الإسلام». وهذه الأقوال مستمدة من التوراة والتلمود اللذين يؤكّدان أن العرب واليهود ينحدرون من أصل واحد وأن الاتصال ما بينهما قديم، وذلك «لإثبات أن اليهود ذوو نسب وحسب في هذه الأرضين قديم، وأنهم كانوا ذوي بأس شديد، وأن تاريخهم في هذه البقعة يمتد إلى أيام الأنبياء وابتداء إسرائيل وأنهم لذلك الصفوة المختارة من العبرانيين»(١٤).

وقبل البحث في هذا الموضوع لا بدَّ من إثارة نقطة مهمة، وهي أن الكثير من الباحثين يظن أن باب التبشير باليهودية كان مغلوقاً منذ القديم وأن الديانة اليهودية ليست من ديانات الدعوة كالدين المسيحي والدين الإسلامي، وأن اليهود الذين ظهروا في مختلف الأقطار ومنها الجزيرة العربية هم من اليهود الذين هاجروا من فلسطين. وهذا يُخالف الواقع لأنَّ كل الدلائل تثبّت أن رجال الدين من اليهود كانوا يتحمسون ويحرصون كل الحرص لحمل أكثر ما يمكن من الناس من مختلف الأقوام على اعتناق اليهودية والتبشير بها منذ أقدم العصور وبعد ظهور المسيحية صاروا أشد حماساً في التبشير بدينهم نتيجة للمنافسة بينهم وبين المبشرين المسيحيين مما أثار العداء الشديد الدامي بينهما واستمرت هذه المنافسة تلعب دورها ألف وثلاثمائة سنة حتى أُغلق التبشير باليهودية في منتصف القرن الثالث عشر للميلاد(١٥)، في حين أن التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمراً حتى هذا اليوم.

إن اليهودية كدين لم تكن مقتصرة على قوم موسى، فقد انتشر الدين اليهودي بين مختلف الأمم والأجناس، وهذه الأمم اعتنقت الدين اليهودي وهي تعيش في ديارها وأوطانها تتكلم بلغاتها وتُمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها، اذ بدأ التبشير بالدين اليهودي منذ تكوين الديانة اليهودية، واستمر إلى العصور الوسطى حيث أغلق باب التبشير به في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي كما تقدّم. فقد قضى اليهود حوالي عشرين قرناً يعملون بجد ونشاط لنشر ديانتهم بين شعوب وأمم لا تمت إلى قوم موسى (ع) بأدنى صلة وليست لهم علاقة بفلسطين أو سكان فلسطين من اليهود لا من بعيد ولا من قريب. وهؤلاء الدعاة إلى الدين اليهودي لم يكونوا دائماً من فلسطين، بل ممن اعتنقوا

---

(١٤) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ١: ١٧٦، ٦: ٩ ـ ١٠.

(١٥) الدكتور سامي سعيد الأحمد «الأسس التاريخية للعقيدة اليهودية» ص ٣٠.

الدين اليهودي من مختلف العناصر فتحمسوا له، كما أن المسيحية لم تنتشر بوساطة سكان فلسطين وحدهم، بل بوساطة من اعتنقها من مختلف الأجناس والشعوب[16]. وهكذا «ظلّت اليهودية زمناً طويلاً فاتحة ذراعيها مرحبة بمقدم كل مَن ينضوي مخلصاً تحت لوائها من أبناء الشعوب الأخرى»[17]. فقد اعتنقت شعوب عديدة الدين اليهودي وهم في ديارهم وأوطانهم ولم يكونوا في وقت من الأوقات من سكان فلسطين، فانتشر هذا الدين في القارات الثلاث واعتنقته أمم متباعدة الأوطان مثل سكان اليمن والحبشة والجزيرة العربية وبلاد القوقاز (الخزر) وأواسط أوروبا وبلاد المغرب وشعوب مختلفة في الدولة الرومانية وفي الأقطار المجاورة لها هذا إلى جانب العناصر التي دخلت في اليهودية بطريق الزواج. وقد اعتنق اليهودية كثير من الجماعات التي جاء بها الآشوريون من مختلف أنحاء الأمبراطورية الآشورية إلى فلسطين ليحلوا محل اليهود الذين أُبعدوا إلى كردستان وإلى بلاد مادي واندمج بعضهم باليهودية. وربما كان خير مَن يمثلهم اليوم اليهود السامريون الذين يعيشون وسط العرب وفي رعايتهم في مدينة نابلس[18].

إن اليهودية والمسيحية ظهرتا في الجزيرة العربية قبل الإسلام في ظروف متشابهة وسط عالم يدين بالوثنية، والاثنتان انتشرتا في العالم عن طريق التبشير وبخاصة عن طريق اعتناق رؤساء مجتمعات تلك العصور، وأحسن مثال نورده في هذا الباب اعتناق الأمبراطور قسطنطين المسيحية في أوائل القرن الرابع الميلادي واعتناق أبي كرب ملك اليمن اليهودية في القرن الخامس الميلادي، فأجبر الأول شعبه على اعتناق المسيحية والثاني أجبر شعبه على اعتناق اليهودية، وقد تمَّ ذلك في زمن متقارب تقريباً بحيث قد يصح اعتبار وقوع الحدثين في عصر واحد. وبنفس هذه الطريقة انتشرت اليهودية في الخزر وفي شرقي أوروبا وفي بقية أقطار العالم ثم المسيحية في كل العالم. ففي تعليق على التبشير القديم باليهودية يقول المؤرّخ باركس في كتابه «تاريخ الشعب اليهودي»، «إنه لمن الخطأ الاعتقاد بأنَّ اليهود لم يقصدوا التبشير باليهودية أو لم يقبلوا التمذهب بالدين اليهودي»[19]. وفي انتشار اليهودية في بلاد الرومان يقول كاوتسكي **Kautsky**

---

(١٦) الدكتور محمد عوض محمد، الهلال (يوليو) ١٩٤٧، ص ٢٣ ـ ٢٩.

(١٧) ويلز، «معالم تاريخ الإنسانية» الترجمة العربية، الكتاب الرابع، ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣.

(١٨) P. Hitti, «History of Syria», p. 197.

(١٩) J. Parkes, «A History if the Jewish People». p. 7.

«ففي بداية العصر المسيحي تعاظمت أهمية الارتداد نحو اليهودية إذ كان من المغري بالنسبة للكثيرين أن ينضموا إلى المجموعة التجارية، المزدهرة الواسعة، ومنذ عام ١٣٩ قبل الميلاد طُرد اليهود من روما لتهويدهم بعض الرومان، وفي أنطاكية كان المتهودون يشكلون القسم الأكبر من الطائفة اليهودية»(٢٠). وقد عمل اليهود على التبشير باليهودية بين الناس في روما بحيث صار اعتناق اليهودية خاصة في النصف الأول من القرن الأول الميلادي مودة العصر وكثر اعتناق اليهودية إلى الحد الذي أجبر الأمبراطور نيرون أن يصدر أمراً بمنع اليهود من التبشير بدينهم أو اعتناق اليهودية حيث آمنت باليهودية الرعية حتى زوجة نيرون نفسه(٢١).

عاش اليهود في جزيرة العرب معيشة أهلها فلبسوا لباسهم وتكلموا لغتهم وتصاهروا معهم، فتزوج اليهود عربيات، وتزوج العرب يهوديات، واسترضع العرب في القبائل العربية المتهودة. والفرق الوحيد الذي كان يفرّق بين العرب واليهود في الجزيرة هو الاختلاف في الدين. وقد تمتع العرب اليهود بحرية واسعة لم يحصلوا عليها في أي بلد آخر من البلاد التي كانوا بها في ذلك العهد(٢٢). ذلك كله ما يؤيِّد كون اليهود في الجزيرة العربية عرباً متهودين لا يهوداً مهاجرين، اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير، لأنَّ العصبية العربية تقيم حاجزاً يحول بين زواج اليهود أو أي عنصر غير عربي بالعربيات كما هو معروف، وفي ذلك يقول الدكتور جواد علي: «ولعل كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج اليهود بالعربيات وبالعكس»(٢٣).

ومما تجدر ملاحظته في هذا الصدد أن اليهودية التي اعتنقها عرب الجزيرة كانت أشبه بحزب قبلي منها كدين له أصوله وأبعاده كدين يهود فلسطين، إذ كان مجرد اعتناق أحد رؤساء القبائل أو البطون أو الأفخاذ اليهودية يؤدِّي تلقائياً إلى

---

(٢٠) إبراهام ليون، «المفهوم المادي للمسألة اليهودية»، ترجمة عادل نويهض ص ٣١.

(٢١) الدكتور سامي سعيد الأحمد، «الأُسس التاريخية للعقيدة اليهودية» ص ٣٠ نقلاً عن البرت تريفر: Albert A. Trever, «History of Ancient Civilization«, N.Y., 1939, II, p. 466.

(٢٢) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ٢١ نقلاً عن: Graetz, «History of the Jews», III, p. 58-60.

(٢٣) المرجع السابق، ٦: ٢١.

تهود أتباع ذلك الرئيس أو الزعيم. فقد كانت هذه القبائل المتهودة تعقد الأحلاف مع بقية القبائل العربية على الطريقة المتبعة منذ القديم بين القبائل العربية في الجزيرة، محافظة على نفس عاداتها وتقاليدها وأعرافها وثقافتها وقوميتها العربية، ولم يعرف هؤلاء العرب المتهودون من اليهودية غير عقيدة التوحيد وبعض عبارات عبرية يحفظونها على ظهر قلب ويردّدونها دون أن يفهموا معناها عند الصلاة. ولم يكن لهم أية صلة تربطهم بيهود فلسطين غير الاتصال التجاري الذي كان يمارسه اليهود في أكثر بلاد العالم وزيارة بعض أحبار يهود فلسطين ممن كانوا يحسنون اللغة العربية لأن يهود فلسطين كانوا يتكلمون ما بينهم باللغة الآرامية في ذلك الزمن.

وقد ذكر العلماء أن البعض من الأنصار كان مسترضعاً في بني قريظة (من يهود يثرب) وغيرهم من اليهود، فتهودوا، وأن من الأنصار مَن كان يرى في الجاهلية أن اليهودية أفضل الأديان، فكانت المرأة المقلات في الجاهلية تنذر إن عاش لها ولد أن تهوده، فتهوّد قوم منهم. وهكذا هوَّدوا أولادهم، فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه، أرادوا إكراه أبنائهم الذين تهودوا على الدخول فيه، فنزل الوحي بالآية الشريفة: ﴿لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي﴾[٢٤] وقال رسول الله ﷺ: «قد خير أصحابكم فإن اختاروكم فهم منكم وإن اختاروهم فهم منهم»[٢٥]. «فقد كان إذن بين يهود جزيرة العرب، عرب دخلوا في دين اليهود»[٢٦].

وتدل المدونات التاريخية المتوافرة أن اليهودية كانت في العصر الجاهلي منتشرة بين القبائل العربية بوجه عام (في الحجاز وفي اليمن وفي نجد وفي الحيرة وفي البحرين وغيرها). ويُفهم من روايات الإخباريين أن يهود الحجاز وبخاصة يهود مدينة يثرب كانوا قبائل وعشائر وبطوناً منهم: بنو النضير، وبنو قريظة، وبنو قينقاع، وبنو عكرمة، وبنو محمر، وبنو زعورا، وبنو زيد، وبنو الشطية، وبنو جشم، وبنو بهدل، وبنو عوف، وبنو القصيص (العصيص) وبنو ماسلة وبنو ثعلبة[٢٧]. وكان يسكن مع يهود يثرب من غير اليهود بطون من العرب منهم: بنو

---

(٢٤) سورة البقرة رقم ٢٢، آية ٢٥٦.

(٢٥) تفسير الطبري ٣: ١٠ وما بعدها.

(٢٦) الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب»، ٦: ٥١٥.

(٢٧) المرجع السابق ٦: ٥٢٢ نقلاً عن: الأغاني ١٩: ٩٥ وما بعدها وسيرة ابن هشام ٢: ١٤٧ وما بعدها.

الحرمان حي من اليمن، وبنو مرثد حي من بلي، وبنو نيف وهم من بلي أيضاً، وبنو معاوية حي من بني سليم ثم من بني الحرث بن بهثة، وبنو الشطية حي من غسان. وظلّ اليهود أصحاب يثرب حتى جاء الأوس والخزرج فنزلوها، وورد في الأخبار أنهم جاؤوا بعد حادث سيل العرم التماساً لوطن صالح جديد، وأنهم حينما نزلوها لم يكن لهم حول ولا قوة استغلوا الخلافات بين اليهود فتغلبوا عليهم وسيطروا على المدينة وقسموها فيما بينهم، فلم يبق يومئذ لليهود عليها سلطان[٢٨].

ويلاحظ مما تقدّم أنه كان بين قبيلة بني الشطية من تهود، كما أن هناك ما يدل على أن بعض قبيلة بلي من بطون قضاعة قد تهوّد أيضاً، فقد ذكر البكري أن بني حشنة بن عكارمة وهم من بلي «قتلوا نفراً من بني الربعة، ثم لحقوا بتيماء فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهودوا، فأدخلوهم المدينة فكانوا معهم زماناً، ثم خرج منهم نفر إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وبقية من أولادهم بها»[٢٩].

ويذكر ياقوت أن بلي بلدة بين الشام والمدينة يمر حاج الشام وهي كانت قديماً منازل ثمود وعاد وبها أهلكهم الله وآثارها إلى الآن باقية ونزلها بعدهم اليهود واستخرجوا كظايمها وأساحوا عيونها وغرسوا نخلها فلما نزلت بهم القبائل عقدوا بينهم حلفاً وكان لهم فيها على اليهود طعمة وأكل في كل عام ومنعوها لهم على العرب ودفعوا عنها قبائل قضاعة[٣٠]. والظاهر أن المقصود هنا هو تيماء حيث يصفها ياقوت بقوله إنها بين الشام ووادي القرى على طريق حاج الشام ودمشق والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي المشرف عليها فلذلك كان يُقال لها «تيماء اليهودي»[٣١].

٣ ـ أصل يهود الجزيرة:

لقد ذهب أغلب المستشرقين، استناداً إلى دراسة أسماء يهود الحجاز منذ ظهور الإسلام، إلى أن أولئك اليهود لم يكونوا يهوداً حقاً، بل كانوا عرباً

---

(٢٨) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦ : ١١.

(٢٩) معجم ما استعجم، ١ : ٢٩.

(٣٠) معجم البلدان، ٤ : ٨١، معجم ما استعجم ١ : ٤٣.

(٣١) معجم البلدان ١ : ٩٠٧.

متهودين تهودوا بتأثير الدعاة اليهود[٣٢]. ويرى نولدكة أنه ليس بين أسماء البطون اليهودية الأحد عشر التي كانت في الحجاز في أيام ظهور الإسلام اسم يظهر عليه الملامح اليهودية غير اسم واحد وهو زعورا[٣٣]. ويرى اوليري احتمال كون بني قينقاع من أصل عربي متهود او من بني أدوم[٣٤].

وينكر اليعقوبي وجود طوائف يهودية أصلية، أي يهود هاجروا من فلسطين، في الجزيرة العربية قبل عصر الاسلام، فيؤكّد أن القبائل اليهودية هناك كانت من أصل عربي، إذ يقول في وقعة بني النضير إن بني نضير فخذ من جذام إلاّ أنهم تهودوا ونزلوا بجبل يقال له النضير فسموا به، وفي وقعة بني قريظة يقول بأنَّ بني قريظة فخذ من جذام أيضاً أخوة النضير، ويُروى أن تهوّدهم كان في أيام عادياء بن السموأل ثم نزلوا بجبل يقال له قريظة فنُسبوا اليه[٣٥]. ويؤيِّد ذلك ياقوت الحموي في معجمه، فيقول إن يهود بني قريظة وبني النضير كانوا من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس والخزرج من الأنصار من المدينة[٣٦]. ومن قبائل جزيرة العرب المتهودة التي أورد ذكرها القاضي صاعد الأندلسي، قبائل بني حمير وبني الحارث بن كعب وكندة[٣٧]، كما يذكر اليعقوبي أن قوماً من بني الحارث بن كعب وقوماً من غسان وقوماً من جذام قد تهوّدوا[٣٨]. وقد ورد عن المستطرف قوله إن الدين اليهودي انتشَر في قبائل من العرب في نمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة[٣٩].

---

(٣٢) الدكتور جواد علي «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ١٩ نقلاً عن: Margoliouth, «the Relations between Arabs and Israelites Priot to the Tise of Islam», 61 ff.

والمفصل في تاريخ العرب، ٦: ٥٣ نقلاً عن: W. Caskel, Dasattarabische Komingreich Lilhians, S. 19.

(٣٣) الدكتور جواد علي، تاريخ العرب، ٦: ٢١ نقلاً عن ماركوليوث ونللينو.

(٣٤) O'Leary, «Arabia before Muhammad», London, 1927 وهرشفلد p. 173 ff.

(٣٥) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف ١: ٤٠، ٤٢.

(٣٦) معجم البلدان ٤: ٣٨٥، ٤٦٠.

(٣٧) «طبقات الأمم»، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩١٢، ص ٤٣، ابن قتيبة (المعارف) مطبعة دار الكتب، ١٩٦٠، ص ٦٢١.

(٣٨) تاريخ اليعقوبي ١: ٢٢٧.

(٣٩) يوسف غنيمة، «نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، ص ٩٩ عن المستطرف للأبشيهي، ج٢، ص ١١٤.

وهناك شهادات من يهود مدينة دمشق وحلب في القرن الثالث بعد الميلاد أنهم كانوا ينكرون وجود يهود في الجزيرة العربية (والمقصود بذلك يهود من فلسطين) ويقولون إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود في جهات خيبر ليسوا يهوداً حقاً إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعاً تاماً[٤٠]. وكان العالِم شير يعتقد أن اليهودية في بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة، كانت يهودية في أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يُعرف بالقانون التلمودي[٤١].

ويقول بعض المؤرخين من اليهود أنفسهم أن يهود جزيرة العرب كانوا في معزل وانفصال تام عن بقية أبناء دينهم خارج الجزيرة، لذلك لم يرد عن يهود

= وهذه نبذة عن كل من هذه القبائل العربية التي تهود بعض بطونها وهي: بنو حمير، وبنو كنانة، وبنو الحارث بن كعب وبنو كندة وغسان وجذام ونمير:

بنو حمير، بطن عظيم من القحطانية ينتسب إلى حمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان كانت مساكنهم في اليمن وسكن قسم من حمير في الحيرة.

بنو كنانة، قبيلة عظيمة من العدنانية وهم بنو كنانة بن خزيمة ابن مدركة بن إلياس بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان كانت ديارهم بجهات مكة، وقدِمت طائفة منهم الديار المصرية سنة ٥٤٥. وتنقسم قبيلة كنانة إلى عدة بطون منها قريش، عبد مناة بن كنانة، بنو مالك ابن كنانة.

بنو الحارث بن كعب، بطن من سلالة السبطين الحسن والحسين يقيمون بالحجاز.

غسان، قبيلة عظيمة اختلف في نسبتها، فقال البعض إن غسان أبو قبيلة باليمن، والبعض الآخر قال إن غسان ماء بسد مأرب باليمن، وقيل أيضاً إن غسان اسم ماء نزله قوم من الأزد، فنسبوا إليه وقد قيل أيضاً الغساسنة ملوك الشام، وهم بنو عمرو بن ماذن ابن الأزد.

جذام، بطن من كهلان، من القحطانية وهم بنو جذام بن عدي بن الحارث بن مرة ابن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان. كانت تنزل جذام بجبال حسمن، ومساكنها بين مدين الى تبوك. ومنها فخذ مما يلي طبرية من أراضي الأردن. وجذام أول مَن سكن مصر من العرب حين جاؤوا في الفتح مع عمرو بن العاص وأقطعوا فيها بلاداً.

بنو كندة من قبائل حضرموت قبيلة عظيمة تنسب إلى كندة وينقسمون إلى عدة بطون منازلهم كانت بجبال اليمن مما يلي حضرموت وكان لهم ملك باليمن والحجاز بالجاهلية وانتشرت اليهودية فيهم.

نمير، بطن من عامر بن صعصعة، من العدنانية، كانت منازلهم بنجد وكانت لهم كثرة وعزة في الجاهلية والإسلام، ودخلوا إلى الجزيرة الفراتية.

(٤٠) Graetz, op. cit., III, p. 75.

(٤١) المرجع السابق، ص ٥١.

جزيرة العرب شيء في أخبار المؤلِّفين اليهود. وهذا إن دلَّ على شيء انما يدل على انعدام الصلة القومية بينهم وبين يهود فلسطين. ففي ذلك يقول الدكتور ولفنسون وهو يهودي صهيوني: «إن ثمة مراجع عبرية غير قليلة عن حياة اليهود في بلاد العراق والفرس ومصر واليونان والرومان، أما يهود الجزيرة العربية فلا نكاد نجد مؤلفات عبرية عنهم إلاَّ شيئاً ضئيلاً جداً لا يتجاوز بضعة نصوص اندمجت في بعض الكتب اندماجاً عرضياً غير مقصود، ولكننا نستطيع أن نستنتج من هذه الناحية نفسها نتيجة ذات شأن، وهي أن سكوت المراجع الإسرائيلية عن سرد حوادث اليهود في الجزيرة العربية يدل دلالة قاطعة على أن اليهود في بلاد العرب كانوا منقطعين تمام الانقطاع عن بقية اليهود في خارج الجزيرة وفي جهات العالم ولم تكن لهم بهم أية صلة»[٤٢].

«ويلاحظ أن يهود الجاهلية لم يحافظوا على يهوديتهم وعلى خصائصهم التي يمتازون بها ويحافظون عليها محافظة شديدة، كما حافظوا عليها في الأقطار الأخرى. فأكثر أسماء القبائل والبطون والأشخاص، هي أسماء عربية، والشعر المنسوب إلى شعراء منهم، يحمل الطابع العربي، والفكر العربي، وفي حياتهم الاجتماعية والسياسية، لم يكونوا يختلفون عن العرب، فهم في أكثر أمورهم كالعرب فيما سوى الدين[٤٣]. وهذا الشعر المنسوب إلى اليهود، لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه عن شعر الشعراء الجاهليين الوثنيين، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية، فألفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية، وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين. ويصعب أن نجد فيه أثراً للتوراة والتلمود»[٤٤].

ومع كل القرائن المذكورة احتضن الكتّاب والباحثون العرب النظرية القائلة بأنَّ يهود الجزيرة جاؤوا من فلسطين إلى جزيرة العرب بعد تشردهم على يد الرومان بلا تمحيص، وهي النظرية التي روجها اليهود لربط صلتهم بالعرب والتي لا تستند إلى أي دليل. فيشير الدكتوران مصطفى الخالدي وعمر فروخ إلى هذه النظرية وكأنها حقيقة تاريخية في كتابهما «التبشير والاستعمار» (الطبعة الخامسة، ص ١٧٦) فيقولان: «بعد أن تشرّد اليهود على أيدي الرومان ففرقوا في الأرض

---

(٤٢) ولفنسون، «تاريخ اليهود في بلاد العرب»، ص ١١ ـ ١٢.

(٤٣) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ٢٠ نقلاً عن نولدكة.

(٤٤) المرجع السابق ٦: ٣٤ ـ ٣٥.

فنزل قسم منهم في بلاد العرب في اليمن وفي الحجاز حول يثرب وعند يثرب أنشؤوا لهم قرية زراعية اسمها خيبر». وهذا ما يريده الصهاينة أي تثبيت ذلك على لسان العرب في كتبهم لاعتبار الجزيرة العربية أرضاً يهودية مثل فلسطين. فالتعليم العربي والعبري في إسرائيل اليوم يركز ويؤكِّد على وحدة اليهود أينما كانوا فيعتبرون أرض فلسطين والجزيرة العربية بأنَّها أرض يهودية طوال التاريخ إلى درجة أنه اعتبر غور الأردن يفصل أرض إسرائيل الشرقية عن الغربية وبُولغ في وصف وضع اليهود في شبه الجزيرة العربية بإظهار دورهم الثقافي والحضاري فيها. (بابوريتش، «إسرائيل كتاب معالم البلاد وجغرافيتها حسب منهج الصف الثامن للمدارس الابتدائية»، ص ٢٠٠). هذا في حين أن الثابت من أقوال المؤرخين العرب أن اليهودية كانت منتشرة في جزيرة العرب قبل المسيح بوساطة التبشير بين القبائل العربية في الحجاز واليمن ونجد كما ثبت انعدام الاتصال بين يهود الجزيرة ويهود فلسطين، ثم ليس من المعقول أن يهاجر اليهود من بيئة مدنية إلى بيئة صحراوية مثل جزيرة العرب في الوقت الذي كان اليهود في فلسطين على اتصال وثيق بيهود وادي الرافدين كان بإمكانهم اللجوء إليهم حيث كان لهم نفوذ كبير في عهد الفرثيين وكانت لهم إمارة تحت حكم ملوك اعتنقوا اليهودية وكانوا يمدون يهود فلسطين بالمساعدات في حربهم مع الرومان وقد سبقت الإشارة إلى ذلك (انظر ما تقدّم عن إمارة حدياب).

٤ ـ يهود الجزيرة والتلمود[٤٥]:

ومن المهم ذكره في هذا الصدد أن عرب الجزيرة المتهودة لم تلتزم بالتلمود لأن بعض هذه القبائل قد أخذ باليهودية قبل أن يكون قد استكمل انجازه، ثم كان انعزالهم في الجزيرة قد جعل الاتصال بينهم وبين المدارس التلمودية التي أسَّسها الأحبار اليهود في فلسطين وفي بابل (والفريق الأخير من بقايا السبي البابلي) متعذراً. لذلك فقد وجد بعض يهود الجزيرة بعد إجلائهم من الجزيرة في عهد الخليفة عمر (رض) في حركة القرائين بزعامة عنان بن داود احد علماء يهود العراق التي تناهض التلمود وتدعو للاكتفاء بالتوراة[٤٦] ما يتفق ومعتقد القبائل العربية المتهودة، وهو معتقد متأثر بالبدوية التي لا تتقبل التعاليم

(٤٥) انظر ما تقدم عن التلمود في المادة ٢٠ الفقرة د من هذا القسم.

(٤٦) انظر ما تقدم عن القرائين في المادة ٢١ من هذا القسم.

المتزمتة التي يدعو إليها التلمود، فانضم أكثرهم إلى هذه الفرقة[٤٧].

٥ ـ يهود الجزيرة في عهد النبي محمد (ﷺ):

وكان أكثر العرب المتهودين في الجزيرة العربية يمتهنون الزراعة وكان بعضهم في يثرب يمارس صناعة الحدادة والمجوهرات. ولما هاجر الرسول (ﷺ) إلى المدينة حرص على تحقيق الوحدة بين القبائل العربية وإزالة ما كان بين أهل المدينة قبل الإسلام من الفرقة بإبطال حروبهم ومنازعاتهم حتى يسود الإخاء بينهم جميعاً، وتحقيقاً لذلك كتب كتاباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أُمَّة واحدة من دون الناس... وإن من تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم، وإن يهود بني عوف آمنة من المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلاَّ من ظلم وأثم، فإنَّه لا يوقع إلاَّ نفسه وأهل بيته وأن يهود بني النجار ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة ولجفنة ولبني الشطية مثل ما ليهود بني عوف. وأن موالي ثعلبة كأنفسهم وإن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلاَّ بإذن محمد (ﷺ)»[٤٨].

يتضح مما تقدّم أن الذي كان يفرّق بين الأمة الواحدة هو الدين وحده فكان النبي (ﷺ) يرمي من وراء كتابه المذكور تحقيق الإخاء بين الجميع وأن لا يكون الدين سبباً في الفرقة بين القبائل ذات القومية الواحدة (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم). والدليل على أن القبائل المتهودة عربية الأصل أنه كان من بين قبيلتي الأوس وبني الشطية العربيتين من تهوّد قبل الإسلام كما جاء في الكتاب المذكور[٤٩]، وقد أيَّد اليعقوبي تهوّد بعض منتسبي الأوس والخزرج بعد نزوحهم من مواطنهم إلى يثرب قال: «وتهوّد قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم يهود خيبر وقريظة والنضير»[٥٠].

وفي رواية للمؤرّخ اليهودي يوسفوس فلافيوس الذي عاش في القرن الأول

---

(٤٧) ليرسي «تاريخ الشعب اليهودي» ص ٢٣٥.

(٤٨) سيرة ابن هشام، ج٢، ص ١٤٧ ـ ١٤٩.

(٤٩) لقد سبقت الإشارة إلى ذلك في القسم الأول ولكن لا بأس من تكراره هنا لاستكمال بحث هذا القسم الذي أصبح مستقلاً بذاته رغم ارتباطه بالموضوع الأساس.

(٥٠) تاريخ اليعقوبي، طبعة النجف، ج١، ص ٢٢٦.

للميلاد أن اليهودية قد وجدت لها سبيلاً بين العرب. وكان اليهود ينشرون بين العرب الأخبار القائلة بأنَّهم من نسل إسماعيل وإبراهيم وأنهم من ذوي رحمهم، ولهم بهم صلة قربى. وكانوا يرجون لذلك دخولهم في دينهم واعتناقهم دين إبراهيم جدّ اليهود والعرب وقد عملوا على تهويد أولئك العرب. كما جاء في مواضع من التلمود أن نفراً من العرب دخلوا في اليهودية، وأنهم جاؤوا إلى الأحبار فتهوّدوا أمامهم[٥١].

٦ ـ قبيلة بني ركاب اليهودية:

وهناك ما يؤكِّد أن القبائل المتهودة في الجزيرة حافظت على تقاليدها العربية وأسلوب حياتها البدوية من غير أن تندمج باليهود خارج الجزيرة، فيروي بنيامين التطيلي الذي دوَّن رحلته في القرن الثاني عشر الميلادي عن وجود قبيلة عربية متهودة في جزيرة العرب تُدعى قبيلة بني ركاب اقتبست الدين التوحيدي من غير أن تندمج باليهود، بل ظلَّ أفراد هذه القبيلة محتفظين بتقاليدهم العربية التي ورثوها عن أجدادهم، فيقول فيهم ما نصه: «وفي الصحراء بين أرض اليمن والعراق مضارب بني ركاب من عشائر تيماء. وفي تيماء يقيم شيخهم وحاكمهم الكبير حنان، وهي صقع واسع الأرجاء امتداده مسيرة ستة عشر يوماً بين الجبال الشمالية. وفيها القلاع الكبيرة الحصينة التي لا تخضع لأية سيطرة أجنبية. وأهلها يخرجون مع جيرانهم وأحلافهم من أبناء العرب للغزو والكسب في الأماكن البعيدة. وهؤلاء الأعراب يعيشون عيشة بدوية، يبيتون في الخيام، لا يعرفون بناء البيوت، دأبهم الغزو في أراضي اليمن». ويعتقد أن بني ركاب قبيلة مديانية أو قينية[٥٢] خالطت العرب المتهودين في الجزيرة واقتبست عنهم معتقدهم وتوحيدهم. ورد ذكر هذه القبيلة في مواضيع عديدة من التوراة فكانت تنتسب إلى جدها الأكبر «يونداب بن ركاب» (جندب)[٥٣]، لكن أفراد هذه القبيلة لم يندمجوا باليهود بل ظلُّوا محتفظين بتقاليد خاصة وتعاليم ورثوها عن أجدادهم. فكانوا على ما وصفهم النبي أرمية: «لا يبنون بيتاً ولا يزرعون زرعاً ولا يغرسون كرماً ولا يشربون خمراً أو مسكراً وكانوا يسكنون في الخيام»[٥٤]. جاء عنهم في

---

(٥١) الدكتور جواد علي، «المفصل في تاريخ العرب»، ٦: ٥١٤ عن العلاَّمة سوزومين.
(٥٢) أخبار الأيام الأولى ٢: ٥٥.
(٥٣) ٢ ملوك ١٠: ١٥.
(٥٤) أرمية ٣٥: ٢ ـ ١٩.

قاموس الكتاب المقدس (الطبعة القديمة) ما نصه: «ويروى عن حالتهم الحاضرة بعض أخبار مفيدة للغاية. فإنَّهم لا يزالون يقطنون في بلاد جبلية في المنطقة الحارة إلى الشمال الشرقي من المدينة، ويعرفون ببني خيبر وأرضهم تُدعى خيبر. وليس لهم علاقات مع إخوتهم اليهود المشتتين في آسيا الذين يعتبرونهم اخوة كاذبين لأنهم لا يحافظون على الشريعة. ولا يمكنهم أن يرافقوا القوافل لأن ديانتهم لا تسمح لهم بالسفر يوم السبت مع أن بلادهم محاطة بالصحارى حتى يكاد لا يمكن الدخول إليها أو الخروج منها إلا مع القوافل». ويقدر الرحَّالة وولف عدد الركابيين بجوار مكة بنحو ٦٠٠٠٠ نسمة[٥٥] ويقال إنه لا يزال بقية منهم إلى الآن في العراق واليمن ويعرفون ببني خيبر[٥٦].

وهذا إن دلَّ على شيء إنما يدل على أن اليهودية كانت قد دخلت إلى جزيرة العرب منذ أكثر من ٢٥٠٠ سنة ودخلتها بطريق التبشير بين القبائل العربية لا بطريق هجرة يهود من فلسطين الى الجزيرة، وهذه القبائل هي التي كانت الواسطة لتهويد القبائل العربية الأخرى قبل ظهور المسيحية والإسلام. وهؤلاء حافظوا على لغتهم وتراثهم العربي الأصيل. واذا صحَّ بأنَّ يوناداب التوراة هو جندب العربي كما يرى الباحثون فتكون القبائل العربية قد بدأت عملية التهود قبل أو بعد كتابة التوراة مباشرة في حدود القرن الخامس ق.م. في أقل تقدير (انظر المفصل في تاريخ العرب للدكتور جواد علي ج ١: ١٦، ٥٧٤، ٥٧٦، ج٤: ٧٩، ٢٧٤). ويستدل مما ورد في التوراة أن الركابيين كانوا يعبدون إلهاً واحداً إذ كان يوناداب بن ركاب قد أمر بنيه أن لا يعبدوا إلهاً آخر. وبهذا تكون التوراة أول مَن أشار إلى تهود العرب في الجزيرة.

والغريب أن قاموس الكتاب المقدّس قد أورد في طبعته الجديدة ما نصه: «ولما غزا نبوخذ نصر اليهودية هرب الركابيون إلى أورشليم طلباً «للنجاة». نحن لا ندري على أي استناد أورد هذا الكلام الذي يجعلنا نتساءل: «هل غزا نبوخذ نصر الجزيرة العربية؟.. إن المعلوم من المصادر التاريخية أن نبوخذ نصر غزا أورشليم وسبا اليهود إلى بابل. هل هرب الركابيون من مواقعهم الصحراوية المنعزلة في الجزيرة العربية ليصطادهم نبوخذ نصر في أورشليم ويضمهم إلى اليهود المسبيين؟.. وهل كان هناك موضع آمن وأكثر سلامة من صحراء الجزيرة

---

(٥٥) راجع مادة الركابين في دائرة المعارف اليهودية.

(٥٦) قاموس الكتاب المقدس الطبعة (الجديدة)، ص ٤١٠.

المنعزلة في مثل تلك الظروف؟.. ويبدو أن المقصود من هذا الكلام المضاف في الطبعة الجديدة ربط صلة يهود الجزيرة بيهود فلسطين وبأورشليم القدس، تلك الصلة التي طالما ردَّدها الباحثون اليهود، على الرغم من أن قاموس الكتاب المقدس (الطبعة الجديدة ذاتها) يعترف بأنَّ ليس للركابيين صلة تربطهم بإخوانهم اليهود المشتتين في آسيا. ومع أنه يعترف بأنَّ الركابيين قوم من القينيين أو المديانيين أي من أصل عربي يضيف ملاحظة لم ترد في القديم وهي أن الركابيين عاشوا بين بني إسرائيل لربط صلتهم ببني إسرائيل.

٧ ـ يهود خيبر:

وقد اشتهر يهود خيبر بين سائر يهود الحجاز بشجاعتهم، وخيبر غني بمياهه، وقد اشتهر بزراعته وبكثرة نخيله. وعند إجلاء اليهود عن خيبر تفرقوا فذهب بعضهم إلى العراق وبعض آخر الى الشام وبعض منهم إلى مصر[٥٧]. كما اشتهر أهل خيبر بما أقاموه من حصون، وقد أُجلوا عن بلدهم في عهد الخليفة عمر (رض)، وأقدم إشارة كتابية ورد فيها اسم خيبر هي تلك التي عُثر عليها في (حران اللجاة) ترجع إلى سنة ٥٦٨ للميلاد. وقد وُجدت كتابات بالمسند وكتابات نبطية في خيبر، هي أقدم عهداً من نص (حران اللجاة) يُفهم منها وجود سكن في هذه الأرضين يعود بعضه إلى ما قبل الميلاد[٥٨].

ولم يقتصر وجود القبائل العربية المتهودة على الحجاز بل وُجدت في اليمن أيضاً كما سيأتي بحث اليهودية في اليمن. وقد وُجدت أيضاً في الحيرة وكان لها بعض الشأن فيها[٥٩].

٨ ـ صلة يهود الجزيرة بفلسطين:

ومما يُذكر في هذا الصدد أن البطون العربية المتهودة التي لم تكن لها عهود خاصة مع الرسول ﷺ لما أُجليت من جزيرة العرب لم يعرف أن أحداً من هؤلاء نزح إلى فلسطين ليكونوا بالقرب من هيكل سليمان مندفعين بالحماس الديني، فيقول الدكتور جواد علي في كتابه «تاريخ العرب قبل الإسلام» (٦:

(٥٧) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ١٦ ـ ١٧.

(٥٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦: ٥٢٧.

(٥٩) يوسف غنيمة «الحيرة»، ص ١٨.

١٦١): «يلاحظ أن اليهود فضَّلوا الذهاب إلى أذرعات وإلى أماكن أخرى على الذهاب إلى القدس أو طبرية أو قيصرية أو غيرها من بلاد فلسطين. مما يدل على أنَّهم لم يكونوا يفكروا قط في الإقامة في تلك الأماكن، وأن قلوبهم لم تكن متعلقة بها، وإلاَّ اختاروا الذهاب إليها. بل كانت أفئدتهم متعلقة بمواطنهم هذه التي كانوا يقيمون بها بالحجاز، وأن اليهود كانوا يفضلون السكنى في المواطن التي نشؤوا فيها على الذهاب إلى فلسطين».

وهذا كله لا يتفق أو يلتئم مع ما ذهب إليه بعض الباحثين من أن يهود الجزيرة قد جاؤوا من فلسطين إثر إجلائهم منها في عهد الرومان سنة ٧٠ م بغية تأكيد صلة القربى بين العرب واليهود، ولكن ذلك لا ينسجم وسنة الطبيعة، فالهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح والطبيعي.

وهذه هي فكرة الشتات التي فرضها الصهاينة مركّزين على أن انتشار اليهود في العالم (الشتات) بدأ عام ٧٠ م إثر سقوط القدس بيد القائد الروماني «تيتوس»، وذلك بغية ربط هذه الحادثة بالذات بتدمير الهيكل للمرة الثانية بعد أن دمره نبوخذ نصر عام ٥٨٧ ق.م. وهذا ما يعزز أن عودة اليهود إلى فلسطين كانت ترتبط دوماً بإعادة بناء الهيكل، كما أن هناك سبباً آخر للأخذ بفكرة الشتات عام ٧٠ م وهو إضفاء مميزات وخصائص خاصة على اليهود بغية إظهارهم وكأنَّهم كيان منفرد ومتجانس ومتماسك يتميز على مر العصور بنقائه العنصري وبوحدته القومية. هذا في حين أن كل الدلائل تثبت أن الشتات لم يبدأ عام ٧٠ م. لأن أعداداً هائلة منهم كانت تعيش في الأمبراطورية الرومانية، وكما يقول دنيال روس المؤرِّخ الكاثوليكي أن ستة ملايين أو سبعة من اليهود كانوا يعيشون في الأمبراطورية الرومانية بالإضافة إلى مليون آخر ممن كانوا يعيشون في بلدان أخرى. ويؤكّد ذلك إبراهام ليون، فيقول «لم يشتت اليهود إطلاقاً منذ سقوط القدس إذ أن الغالبية العظمى من اليهود كانت قد تبعثرت في أنحاء العالم، قبل هذا الحدث بعدة قرون، وما يمكن أن نؤكِّده أن أكثر من ثلاثة أرباع اليهود كانوا يسكنون خارج فلسطين». (بديعة أمين «المشكلة اليهودية والحركة الصهيونية»، بيروت، ١٩٧٤ ص ١٩ ـ ٢٠).

وللمستشرق وينكلر رأي في موضوع يهود الجزيرة خلاصته: إن أولئك اليهود لو كانوا يهوداً حقاً هاجروا من فلسطين إلى الجزيرة العربية، لكانت حالتهم وأوضاعهم ومستواهم الاجتماعي على خلاف ما كان عليه يهود الجزيرة

العربية، إذ كانت حالة يهود فلسطين أرقى وأرفع من الحالة التي كان عليها هؤلاء اليهود، فلا يعقل، على رأيه، بلوغ جماعة إلى ذلك المستوى الاجتماعي الذي كان عليه يهود جزيرة العرب لو كانوا من بلاد مستواها الثقافي والمدني أرقى من مستوى مَن هو دونهم كثيراً في شؤون الحياة. ومستوى الحياة في جميع نواحيها، في فلسطين، أرقى وأرفع من مستواها في الأماكن التي وُجد فيها اليهود من بلاد العرب. لذلك فهم على رأيه عرب متهوّدون لا يهود مهاجرون(٦٠).

والحقيقة هي أن اليهودية والمسيحية كانتا تتزاحمان بينهما على تهويد أو تنصير القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام، فتوجَّه المبشرون من اليهود والمسيحيين نحو جزيرة العرب، حيث وجدوا القبائل العربية في الجزيرة قبل الإسلام متهيأة نفسياً لتقبّل دين التوحيد كما وجدوا الحرية المطلقة للعمل في صحراوات الجزيرة الواسعة. لذا كان نشاط التبشير بين عرب الجزيرة على أشدّه بحيث تمكَّن المبشرون المسيحيون من تنصير بعض القبائل العربية كما استطاع الأحبار اليهود تهويد البعض الآخر. فهل انتشرت المسيحية بين القبائل العربية نتيجة هجرة مسيحيين من فلسطين؟ وهل كان أهل اليمن الذين تهوّدوا أو تنصّروا من أصل فلسطيني؟. وهل كان يهود الخزر قد جاؤوا من فلسطين؟. وهل كانت قبائل البربر في المغرب العربي التي أخذت باليهودية قبل الإسلام، مثل قبيلة جراوة التي سكنت جبل أوراس، وقبائل أخرى وهي نفوسة، وفندلاوة، ومديونة، وبهلولة، وغياثة، وبنو بازار، التي يحدثنا عنها ابن خلدون في كتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر» من يهود فلسطين؟.. وهل كان عرب بني حمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة الذين أخذوا باليهودية قبل الإسلام والذين يحدثنا عنهم ابن قتيبة (٨٢٨ ـ ٨٨٩ م) والقاضي صاعد الأندلسي (١٠٢٩ ـ ١٠٦٩ م) من يهود فلسطين؟.. وهل كان الفريق المتهوّد من الأوس والخزرج الذين يحدثنا عنهم اليعقوبي من يهود فلسطين؟.. إذن لماذا لا يزال بعض الكتّاب يأخذ بالرأي القائل بأنّ الجزيرة العربية قد انفردت من بين كل بلاد العالم التي تمَّ فيها التبشير باليهودية بهجرة يهود فلسطين إليها؟.. إن السبب واضح وهو أن الكتّاب اليهود كانوا يروجون مثل هذه الأقاويل ويتقصدون إشاعتها بين الناس

(٦٠) الدكتور جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام، ص ١٩ ـ ٢٠ نقلاً عن: Winckler, Mett. Vor. Asai. Ges., VI, S. 222.

ليربطوا صلتهم بالجزيرة العربية وبالعرب على إعتبار أنهم ابناء عمومة مع العرب وأن جدّهم وجدّ العرب واحد هو إبراهيم الخليل عليه السلام، في حين أن الواقع أن اليهودية ديانة اعتنقتها أقوام كثيرة من مختلف القوميات والأجناس منهم العرب في الجزيرة الذين حافظوا على قوميتهم ولغتهم وعاداتهم ولم يفرّق بينهم وبين مجاوريهم من القبائل العربية غير الدين، شأنهم في ذلك شأن الأقوام الأخرى التي أخذ بعض أهلها بالديانة اليهودية عن طريق التبشير والاقتباس.

ويرى بعض الباحثين أن اليهود تعمدوا نشر قصص التوراة القائلة بوجود وشائج قربى بين العرب واليهود لأغراض سياسية ودينية وأنها في حقيقة الأمر دسيسة لفَّقها اليهود للعرب تزلفاً إليهم واحتيالاً على كسب عطفهم وتوثيق عرى المودة والإلفة بينهم. فيقول هؤلاء الباحثون: «... إن هذه الطريقة من سنن اليهود المألوفة إذ لُوحظ عليهم كثيراً أنهم متى رأوا المصلحة في التودّد إلى قوم قالوا لهم أنتم إخواننا ونحن وأنتم صنوان... وظلوا منذ ذلك العهد إلى ظهور الاسلام وهم يبذلون جهدهم في إشراب العرب عقيدة أنهم جميعاً ذرية أب واحد حتى نجعت فيهم هذه الأكذوبة التي كان العرب أجهل من أن يتبينوا ما فيها من كذب وتلفيق»[٦١]. وفي ذلك يقول الأستاذ سليمان ناجي في كتابه «المفسدون في الأرض»[٦٢]: «لقذ عمد اليهود في شبه الجزيرة العربية إلى نشر الخرافات والأكاذيب بين أهلها ولم يحجموا عن دعوة أهلها لاعتناق المذهب اليهودي بحجة أنهم والعرب من أصل واحد، أي أحفاد سام بن نوح (وهذا الزعم المأخوذ من سفر التكوين يفتقر إلى الدليل والبرهان ويخالف نظريات علم الأجناس). وبغية ترسيخ جذور هذا الادعاء الباطل في أذهان العرب، زعموا أن العرب المستعربة تناسلوا عن ثابت وقيدار حفيدي إسماعيل، ويبدو أن العرب صدقوا هذا الزعم، فأخذ كتّابهم أمثال ابن الأثير وأبي الفداء وابن خلدون يثبتونها في مؤلفاتهم وينسجون من حولها القصص، وكأنَّها أمور ثابتة بالدليل والبرهان، وفي الواقع لم يكن أحدهم يملك أي مصدر قديم يعتمد عليه أو برهان يقدمه، إلاَّ ما ورد عن ذلك في سفر التكوين، وما تناقلته الألسن من القصص التي أشاعها اليهود، فلو كان لهذه المزاعم بعض الحظ من الصحة لكان

---

(٦١) راجع المصدر السابق.

(٦٢) ولفنسون «تاريخ اليهود في بلاد العراق» ص ٧٥.

من المفروض بالمصادر المصرية والآشورية والكلدانية أن تُشير إليها ولو بكلمة ما، أما أن نثق بها لمجرد أنها وردت في التوراة، هذا المصدر اليهودي الذي أجمع النقاد على أنه كُتب في القرن السادس قبل الميلاد ومن قِبَل مئات الأقلام، فذلك يعني الانسياق الأعمى وراء الأضاليل اليهودية والاستخفاف بالمميزات الخيرة التي أنعمها الله عزَّ وجل علينا كالعقل والبصيرة والمنطق السليم، كما أن التدليل على وحدة المنحدر العرقي بين العرب واليهود لما بين لغتيهما من التشابه والتقارب باطل أصلاً، لأن أكثر المكتشفات الحديثة، أثبتت أن لغة اليهود الأصلية كانت عبارة عن لهجة كلدانية صوتية، كما أجمع النقاد على أن اليهود تعلموا اللغة الكنعانية القريبة من اللغة العربية بعد أن تمركزوا في فلسطين، وهذا يعني صراحة انهيار نظرية المنحدر المشترك التي تورط فيها الكتّاب العرب. . . ونرى من ناحية ثانية أن اختلاف العادات والتقاليد بين العرب واليهود، يشكِّل بحد ذاته عنصراً أساسياً في دحض نظرية المنحدر المشترك، هذا الخلاف الذي تؤكِّده التوراة عمَّا تنسبه لأصحابنا من العادات والتقاليد التي يندى لذكرها الجبين والتي لا يمكن أن تتفق مع ما عُرف عن العرب من التمسك بالفضائل والمكارم عبر التاريخ. . ويظهر جلياً مما سبق ذكره عقم نظرية المنحدر المشترك، ولكن ما حيلتنا فالقضية أصبحت شبه مسلّم بها لما مرَّ عليها من الزمن الطويل ولما أحاط بها من التباس وغموض مفتعلين ومقصودين».

لذلك إن النظرية القائلة بأنَّ اليهود هاجروا إلى الجزيرة العربية عندما أخرجهم الرومان من فلسطين فهي نظرية عقيمة لا تستند إلى أي دليل ولا يمكن أن يقبلها المنطق والعقل السليم لما سبق شرحه من الأسباب، فالملجأ الطبيعي الذي كان يمكن ليهود فلسطين أن يلجؤوا إليه بعد اضطهاد الرومان لهم هو العراق وليس الجزيرة العربية، إذ كان في العراق آنئذ عدد كبير من بقايا اليهود المسبيين في منطقة بابل كانوا يتمتعون بحكم ذاتي وأصبح الكثير منهم أصحاب ثراء ونفوذ وكانوا هم والفرس على وفاق ووئام ضد الرومان في أكثر الأحوال باعتبار الرومان عدواً مشتركاً. فقد كانت هناك إمارة حدياب اليهودية التي حكمت في منطقة آشور بين سنة ٣٦ و١١٥ للميلاد قائمة عندما طُرد اليهود من فلسطين سنة ٧٠ للميلاد على عهد طيطوس. وقد كانت هذه الإمارة موالية لحكم الفرثيين المسيطرين على المنطقة بأسرها. لذلك كانت تتمتع بالإسناد من ملوكهم وقد لعبت دوراً رئيسياً في العلاقات السياسية والعسكرية في الشرق الأدنى، فغذت بموافقة الفرثيين وتأييدهم ثورة اليهود ضد الرومان بين سنة ٦٦ وسنة ٧٠

للميلاد كما كانت هي بدورها تسند الفرثيين في حروبهم مع الرومان[٦٣]. والثابت أن كبار رجال الدين من اليهود انتقلوا بعد اضطهاد الرومان لليهود من فلسطين إلى العراق حيث أسَّسوا مدارسهم الدينية الكبرى التي وضعت التلمود البابلي. فهل كان ما يحول دون لجوء اليهود المضطهدين إلى الجهة ذاتها؟.. إن من المحتمل أن يكون قد لجأ بعض اليهود إلى بلاد أخرى غير العراق ولكن لا يحتمل أن تكون الجزيرة العربية من بينها للسبب الطبيعي الذي مرَّ ذكره، وهو أن الهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة الى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب، بل العكس هو الصحيح.

إن بدوي الصحراء الرقيق الإحساس، المجبول على الفطرة والخيال الذهني والتعلق الروحي، لم تعد نفسيته تتقبل عبادة الأصنام، لذا فقد كان عرب الجزيرة قبل الإسلام في حالة صراع نفسي ديني شديد المحك بين الوثنية من جهة وبين اليهودية والمسيحية اللتين تدعوان إلى التوحيد من جهة أخرى، وقد كان دين إبراهيم الخليل (ع) الذي يدعو إلى التوحيد معروفاً في الجزيرة العربية عند الحنفاء كما ينبئنا القرآن الكريم، فاستمر هذا الصراع حتى نزل الوحي على النبي محمد ﷺ، حامل رسالة الإسلام إتماماً وامتداداً لرسالة إبراهيم عليه السلام، فتقبلتها الجموع ببالغ الحماس وعميق الإيمان فدخلوا فيه أفواجاً، وأن الأنبياء والرُسل يظهرون عادة بوحي من الله في مثل هذه الظروف القلقة التي كانت سائدة في أرض جزيرة العرب وهي بأشد الحاجة إلى مَن يوجه الناس إلى الصراط المستقيم.

يتضح مما تقدّم أن عرب الجزيرة المتهودين لم تربطهم بفلسطين أية رابطة لغوية أو قومية، إذ كان يهود فلسطين وهم من عناصر مختلطة يتكلمون ما بينهم باللغة الآرامية، في حين أن لغة عرب الجزيرة هي اللغة العربية. لذلك إن أعراب الجزيرة المتهودين لم يختلفوا من حيث قوميتهم ولغتهم وعاداتهم عن إخوانهم عرب الجزيرة بغير الدين الذي اعتنقوه عن طريق التبشير وهم في ذلك مثل جماعة الخزر المتهودة التي حافظت على لغتها وقوميتها وعاداتها وتقاليدها، ومثل جماعة نجران المتنصرة وقد حافظت على لغتها وقوميتها وعاداتها، ومثل قبائل البربر التي أخذت باليهودية وقد حافظت على لغتها وتقاليدها. ولا يخفى أن المسيحية في زمن ظهورها بعد السيد المسيح لم تكن إلاَّ امتداداً لليهودية

(٦٣) الطبعة الثانية، ص ١١٩ ـ ١٢٢.

باعتبارها فئة منها منشقة عليها. وكان المسيحيون في أول ظهور المسيحية قد وجهوا بالفعل جل اهتمامهم لتنصير إخوانهم اليهود وهكذا فقد كانت كل من الفئتين، اليهودية والمسيحية، تسعى لاجتذاب الناس من مختلف الأقوام إليها. هذا مع العلم أن التبشير باليهودية قد أُغلق منذ منتصف القرن الثالث عشر بعد الميلاد في حين أن التبشير بالمسيحية استمر ولا يزال مستمراً حتى هذا اليوم وقد سبق تأكيد هذه الناحية في مستهل كلامنا عن التبشير باليهودية[٦٤].

٩ ـ اليهودية في اليمن:

تؤيّد الأخبار النصرانية والأخبار الإسلامية أن اليهودية كانت قد وُجدت في اليمن منذ زمن بعيد، والاعتقاد السائد أن يهود اليمن من أصل عربي، وقد طمست أخبارهم بسبب الفتح الحبشي للعربية الجنوبية واضطهاد مَن كان على اليهودية، ويعتقد أن أكثر يهود اليمن اضطروا إلى الفرار من اليمن إلى الخارج بعد فتح الحبش لها في القرن الرابع للميلاد وقد دخل قسم منهم، ممن فضَّلوا البقاء في اليمن، في النصرانية خوفاً ومحافظة على أنفسهم وأموالهم. وبعد طرد الحبش من اليمن لم يستطع اليهود استعادة مركزهم السابق، ولهذا لم نجد لهم ذكراً وشأناً عندما ظهر الإسلام كما كان أمر يهود يثرب وشمال الحجاز. إلاَّ أنَّ اليهودية، وإن ضعفت في اليمن بدخول الحبش فيها، بقيت محافظة على كيانها وقائمة في هذه البلاد في الإسلام وظلَّت بقيتهم هناك إلى سنوات قريبة حيث غادروها إثر حوادث فلسطين الأخيرة[٦٥].

وقد استغل قياصرة الروم انتقال المسيحية إلى الحبشة سياسياً بعد أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية في بلاد الحبشة وارتبطت بصلات روحية مع القسطنطينية، وأخذوا يحرضون الأحباش على فتح العربية الجنوبية لما في هذا الفتح من انتصار كبير لسياسة الروم على الفرس من جهة ولما فيه من مكاسب في استثمار التجارة على البحر الأحمر. وهكذا فقد تمَّ للحبشة أن احتلت بلاد اليمن في أيام حكم (الأعميدا) سنة ٣٤٠ للميلاد وأصبح النجاشي يلقّب بلقب ملك أكسوم وحمير وذو ريدان وحبشت وسلة وتهامة. وقد دام هذا الاحتلال خمساً وثلاثين سنة حتى استرد اليمانيون حكم بلادهم سنة ٣٧٥ للميلاد، حيث تمكنوا

---

(٦٤) انظر المادتين ٦ و٧ من الفصل الأول.

(٦٥) انظر ما تقدّم عن التبشير باليهودية الفقرة ٢ من هذا الفصل.

من طرد الأحباش وإعادة عرش سبأ إلى أحد أبنائها مرة أخرى واسمه (ملك كريب يوهنعم) وقد أشار إلى هذا الحادث نقش عربي قديم عُثر عليه في مأرب. وفي خلال فترة الاحتلال الحبشي نصَّر الأحباش أكثر سكان العربية الجنوبية ففتحوا الأبواب لدخول المبشرين وأكثروا من بناء الكنائس التي كانت تمولها القسطنطينية وأغدقوا على المبشرين الهبات والعطايا للقيام بمهامهم التبشيرية.

وبعد طرد الأحباش من اليمن بقليل في الفتح الأول للحبشة (٣٤٠ ـ ٣٧٨م) انتشرت اليهودية فيها فظهر اليهود فيها ظهوراً واضحاً، ويزعم اوخباريون إن التبع «تبان أسعد أبو كرب» (٣٧٨ ـ ٤١٥ م) وهو الذي اشتهر قديماً تحت اسم «أسعد أبو الكامل آل تبع»، اهتدى إلى الديانة اليهودية عند اجتيازه بيثرب وهو عائد إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي إيران حيث قيل أنه تهوّد على أيدي حبرين من بني قريظة اسمهما كعب وأسد، ومنذ ذلك الحين صارت اليهودية ديانة البلاد الرسمية.

وتجعل بعض روايات الإخباريين اسم هذا التبع «تبع بن حسان بن أسعد الحميري»، وتزعم أن حبرين من أحبار اليهود من بني قريظة عالمين راسخين في العلم هما اللذان هديا التبع إلى اليهودية وأبعداه عن عبادة الأوثان[٦٦].

ومما ذكره اليعقوبي في صدد دخول اليهودية في اليمن قوله: «دخل قوم من العرب في دين اليهود ودخل آخرون في النصرانية، فأمَّا مَن تهوّد منهم فاليمن بأسرها، كان تبع (ويقصد به التبع تبان أسعد أبو كرب) حمل حبرين من أحبار اليهود إلى اليمن فأبطل الأوثان وتهوّد مَن باليمن»[٦٧].

ويرى بعض العلماء أن أسباب ظهور الديانة اليهودية في اليمن وجعلها في عهد تبان أسعد في القرن الخامس للميلاد دين البلاد كان نتيجة لنضال عنيف وقع بين اليهودية والنصرانية تمكّنت الأولى أن تتغلب على الأخرى، ومع أن هذا الفريق يعترف ما للعامل الديني من أثر ظاهر في النضال المذكور، ولكنه يرجح أنَّ الباعث الأصلي إنما هو سياسي قبل كل شيء، وهذا الباعث «هو أن ملوك الدولة الرومانية الشرقية بعد أن فرغوا من أمر الأقاليم المجاورة للجزيرة العربية تأهبوا لضم أطرافها إلى أملاكهم فسلكوا لتنفيذ هذا الغرض طريقة سياسية

---

(٦٦) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ٢٦ ـ ٣٤.

(٦٧) المرجع السابق ٦: ٢٤، المفصل ٦: ٥٣٧.

محكمة حيث أرسلوا وفوداً من الرهبان إلى تلك البلاد وأمروهم أن يبثوا التعاليم المسيحية بين أهل الحضر وأهل البادية من جهة ويمهدوا الأفكار والنفوس لقبول التسلط السياسي الروماني من جهة أخرى، فلما تنبَّه ملوك حمير لهذه الحِيَل وأدركوا ما يتعرض له كيانهم السياسي من الخطر الشديد بسببها نشطوا لإحباطها وفكَّروا في أمضى الأسلحة التي تمكنهم من القضاء عليها فهداهم فكرهم إلى أن يعتنقوا الديانة اليهودية ليقاوموا ديناً توحيدياً بدين توحيدي آخر دون أن يخشوا على أنفسهم من اعتناق اليهودية أن تتسلط عليهم دولة ذات سلطان ونفوذ، إذ لم يكن لليهودية في ذلك العصر دولة سياسية في حين أن النصرانية كانت تعتمد على الدولة الرومانية الشرقية الطامعة في فتح بلادهم. وهكذا قد قضوا باعتناقهم اليهودية على كل الحجج التي كان ملوك الدولة الرومانية الشرقية يعتمدون عليها في الترويج لدعوتهم السياسية وانقطعت الوسائل التي كانوا يتوسلون بها للتأثير في عقول أفراد الشعب وجماعته»[٦٨].

والمعروف أن الديانة اليهودية ظلت ديناً رسمياً لبلاد العرب الجنوبية طيلة حكم السبأيين المتأخرين من سنة ٤٠٠ إلى سنة ٥٢٥ للميلاد، وآخر ملك يهودي يدعى «ذو نؤاس» ملك بين سنة ٥١٠ وسنة ٥٢٥ للميلادي. وبوفاته على إثر الاحتلال الحبشي الثاني انتهى تاريخ الأسرة السبأية اليهودية التي حكمت البلاد قرن وربع قرن[٦٩].

يتَّضح مما تقدم أن اليهودية والمسيحية كانتا تتصارعان ما بينهما، كل فريق يحاول أن يتغلب على الآخر، حتى كثيراً ما اشتبك أنصارهما في نزاعات دموية جعلت العربية الجنوبية في القرن الخامس للميلاد مسرحاً لمذابح عقائدية عنيفة. فقد انتصرت المسيحية في بادئ الأمر بعضد وتحريض القياصرة لها حتى أصبحت العربية الجنوبية تحت حكم الأحباش في القرن الرابع للميلاد (٣٤٠ ـ ٣٧٨ م) وصارت المسيحية الديانة الرسمية في الأقطار الخاضعة للحبشة بما فيها اليمن. وكان اليهود في هذه الفترة معرضين للاضطهاد مما ترك في نفوسهم الحقد والبغضاء مقرونين بحب الانتقام من منافسيهم المسيحيين الموالين للروم. فلما انقلب الوضع وعصفت يد الأقدار بالمسيحية وأصبحت اليهودية الديانة الرسمية في اليمن جاء الزمن الملائم لتلعب اليهودية دورها، ففي سنة ٥٢٢ وقيل

---

(٦٨) «تاريخ اليعقوبي»، طبعة النجف، ١ : ٢٢٦.

(٦٩) ولفنسون «تاريخ اليهود في بلاد العرب» ص ٣٦.

سنة ٥٢٣ للميلاد شنَّ الملك المتهوّد ذو نؤاس حملة اضطهاد عنيفة نكَّل فيها بالمسيحيين، فهاجم نجران التي كانت أكبر مركز للمسيحية في اليمن وخيَّر أهلها بين الارتداد عن دينهم واعتناق اليهودية أو الموت حرقاً، فآثر البعض الموت فحفر لهم أخاديد أحرقهم فيها وأحرق إنجيلهم، وقيل أنه قتل بالسيف ما يقرب من عشرين ألفاً. وقد ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم، إذ قال تعالى في سورة البروج: ﴿والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد مشهود. قتل أصحاب الأخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود. وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلاَّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾.

وقد كان حادث نصارى نجران من أسباب إثارة غضب قيصر الأمبراطورية الرومانية الشرقية فاتصل بنجاشي الحبشة وطلب إليه إرسال حملة إلى تلك الدولة اليهودية فأجاب طلبه وأرسل حملة بقيادة رجل يُقال له «أرياط» ومعه رجل آخر اسمه «أبرهة»، فيذكر الطبري أن القوات الحبشية «نزلت على ساحل زبيد من أرض اليمن فخرج إليهم ذو نؤاس بمَن معه من حمير وقبائل اليمن ودار القتال بين الفريقين، فانهزم ذو نؤاس هزيمة نكراء وقتل عدد من رجاله، فلما رأى ذو نؤاس ما رأى مما نزل به وبقومه وجه فرسه إلى البحر، ثم ضربه فدخل فيه فخاض به ضحضاح البحر، حتى أفضى به إلى غمره، فأقحمه فيه فكان آخر العهد به»(٧٠).

ودخل أرياط صنعاء وانتهى بذلك ملك الحميريين في بلاد اليمن. فتحققت أمنية القيصر وهزم الأحباش ذا نؤاس وجيشه. وبهذا ثبتت المسيحية في اليمن وجعلت الديانة الرسمية للبلاد مرة أخرى. وقد انتقم الأحباش من الحميريين انتقاماً شديداً فقتلوا ثلث رجالهم وأخربوا ثلث بلادهم وهدموا قصورهم وبعثوا بثلث السبي إلى ملك الحبشة(٧١).

وبعد أن خضعت اليمن إلى حكم «أرياط» و«أبرهة» نشب نزاع بين الاثنين حول السلطة فاقتتلا فقُتلَ «أرياط» وبقي «أبرهة» فرسخ حكم اليمن بيد «أبرهة» ولقَّب نفسه بلقب نائب ملك الحبشة في اليمن. وقد ضرب الغرور برأس «أبرهة» حتى سار إلى مكة المكرمة بقصد هدم الكعبة على رأس جيش كبير من الأحباش

---

(٧٠) ديتلف نيلسون ورفقاه، «التاريخ العربي القديم»، ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦، ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٧١) الجميلي، «تاريخ العرب»، ص ٨٩ ـ ٩٠ عن الطبري.

يتقدّمه عدد من الأفيال، ولكن حملته انتهت بالاخفاق والهزيمة، فعاد «أبرهة» إلى اليمن حيث تُوفيَ بعد قليل، فخلفه ابنه «يكسوم» الذي حكم في اليمن عشرين سنة، ثم خلفه أخوه «مسروق». واتَّبع الأحباش في خلال هذه الفترة من حكمهم سياسة التعسف القائمة على إذلال الشعب اليماني، فأدَّت هذه السياسة إلى تذمُّر ونفور أهل اليمن من حكم الأحباش، فظهر من بين القوم زعيم يُدعى «سيف بن ذي يزن» تزعَّم حركة ترمي إلى تحرير البلاد من أيدي الحبش، فاستنجد بكسرى أنو شروان (٥٣١ ـ ٥٧٧ م) بوساطة النعمان بن المنذر ملك الحيرة الذي كانت تربطه رابطة الولاء والتبعية مع كسرى، فاستجاب كسرى إلى طلب نجدة «سيف بن ذي يزن» لما يضمره من العداء إلى الروم وحلفائهم وإخوانهم في الدين الأحباش. فسيَّر كسرى حملة مؤلفة من ثماني سفن إلى اليمن وأناط قيادتها برجل يُدعى «وهرز بن الكامجار» فوصلت ست سفن منها إلى ساحل عدن وغرقت اثنتان في البحر. فالتقى الجيشان الفارسي والحبشي على ساحل اليمن وجرت بينهما معركة قُتل فيها «مسروق» الحبشي غريم «وهرز» فانهزم الأحباش على إثر ذلك وقُتل منهم عدد كبير، لذلك لم يجد «وهرز» مقاومة أمام زحفه على صنعاء فاحتلها وولّى «سيف بن ذي يزن» على البلاد مقابل جزية وخراج يدفعهما في كل عام. وكان ذلك سنة ٥٧١ للميلاد. واستمرت اليمن تخضع إلى الفرس حتى سنة ٦٢٨ للميلاد حين اعتنق «باذان» المندوب السامي الفارسي الإسلام وسلَّم البلاد إلى المسلمين.

١٠ ـ خطل النظرية القائلة بهجرة يهود فلسطين إلى جزيرة العرب:

ومن الغريب أن نقرأ للزميل الباحث المعروف والاستاذ الكبير الدكتور جواد علي في كتابه القيم «العرب قبل الإسلام» قوله بعد كل ما تقدّم أن اليهودية قد دخلت جزيرة العرب، بهجرة اليهود في فلسطين وبالتجارة في حين أن دخول النصرانية إليها كان بالتبشير[٧٢]. يقول هذا في حين أنه يؤكّد في مواضع عديدة من نفس كتابه أن يهود الجزيرة من أصل عربي بمعنى أن اليهودية انتشرت بين القبائل العربية في الجزيرة بالتبشير. ومن أقواله في ذلك: «ولعل كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي هو الذي ساعد على تحطيم القيود التي تحول بين زواج

(٧٢) المرجع السابق عن الطبري ايضاً.

اليهود بالعربيات وبالعكس[٧٣]. وهذا يجزم كون اليهود في الجزيرة من أصل عربي. ومن أقواله أيضاً: «وهذا الشعر المنسوب إلى اليهودية لا يختلف في طريقة نظمه وفي تراكيبه ونسقه من شعر الشعراء الجاهليين الوثنيين، ولا نكاد نلمس فيه أثراً لليهودية فألفاظه عربية صافية نقية مثل ألفاظ أهل الجاهلية، وأفكاره على نمط أفكار الجاهليين ويصعب أن نجد فيه أثراً للتوراة والتلمود»[٧٤]. ويلاحظ أن هاتين الجملتين هما من بين ما استشهدنا به في جملة أقوال الدكتور جواد علي التي تؤيِّد كون يهود الجزيرة من أصل عربي في هذا البحث.

ويُستخلص من أقوال أخرى للدكتور جواد علي في كتابه «تاريخ العرب قبل الإسلام» أنه يميل إلى الأخذ بالرأي القائل بأن يهود الجزيرة العربية هم من يهود فلسطين الذين هاجروا إلى الجزيرة العربية حيث المجال للعيش والرزق أوسع من مجالهم في فلسطين، مؤيِّداً بذلك رأي أوليري وأمثاله من المستشرقين، فيقول: «إن هجرة اليهود من فلسطين يستند إلى أساس تاريخي صحيح. فالذي نعرفه أن فتح الرومان لفلسطين أدَّى إلى هجرة عدد كبير من اليهود إلى الخارج، فلا يستبعد أن يكون أجداد يهود الحجاز من نسل أولئك المهاجرين»[٧٥]. ثم يضيف إلى ذلك قوله: «إن هجرة اليهود إلى الخارج كانت معروفة قبل عهد طيطس وهدريان بأمد طويل. ثم إن اليهود وجدوا في الخارج مجالاً للمعيشة والرزق أوسع جداً من مجالهم في فلسطين ولهذا رأينا أكثر اليهود الذين نقلهم بختنصر معه إلى بابل قد فضَّلوا البقاء في أرض بابل على العودة إلى الديار التي عاشوا فيها، بالرغم من النداءات والالتماسات التي وجهها إليهم أنبياؤهم وزعماؤهم للعودة إلى القدس»[٧٦]. وقبل مناقشة هذا الرأي إننا نؤيِّد الدكتور جواد علي فيما ذهب إليه من أن بعض اليهود ذهبوا إلى خارج فلسطين، ولكن كيف ذهبوا، وإلى أين ذهبوا، ومَن هم الذين ذهبوا؟.. فهذا يحتاج إلى شرح: إن كيفية ذهابهم فمعلومة، إنها لم تكن اختيارية بل كانت في جميع الظروف قسرية نتيجة إخراجهم من فلسطين باعتبارهم فئة متزمتة متعصبة منعزلة عن المواطنين أهل

---

(٧٣) «مفصل تاريخ العرب قبل الإسلام» ٦: ٥٨٧.

(٧٤) «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ٢١.

(٧٥) المرجع السابق، ٦: ٣٤ ـ ٣٥.

(٧٦) المرجع السابق، ٦: ١٠.

البلاد غير مرغوب فيها، وأكثرهم سيقوا أسرى على عهد الآشوريِّين والكلدانيين. لذا لا يمكن أن نطلق مصطلح هجرة على هذا الخروج من فلسطين، لأن الهجرة تخضع إلى ظروف طبيعية يقتضيها الكفاح الغريزي بسبب سنة تنازع البقاء، وتأمين العيش. ومن أمثال هذه الهجرات الرئيسية في التاريخ هجرات النورمان من شمال أوروبا وهجرات العرب من الجزيرة، فالأولى غيَّرت وجه أوروبا، والثانية طغت على آسيا وإفريقيا، إذن إخراج اليهود من فلسطين لا يصح أن نطلق عليه تسمية هجرة بالمعنى المعروف، وإن ما عبَّر به القرآن الكريم عن يهود العربية بـ «بالذين هادوا» (أي الذين أخذوا باليهودية) لدليل قاطع على أن يهود الجزيرة هم عرب متهودون لا يهود مهاجرون[٧٧]. نعم، إن بعض اليهود خرجوا إلى خارج فلسطين، بعضهم لغرض التجارة وهذا مألوف ولم يقتصر على قوم أو بلد معين، والتجارة مرتبطة مع كل بلاد العالم وفي جميع الأحوال والظروف. ونحن نعلم أن هؤلاء التجار كانوا كثيراً ما يقومون مقام المبشرين باليهودية خارج فلسطين، ومن أمثلة ذلك تهويد «إيزاط» أمير حدياب على يد أحد التجار اليهود في بلدة «كاراكس سباسينو» (المحمرة حالياً) في منطقة الخليج العربي، كما أن «هيلينا» أمه تهودت على يد تاجر يهودي آخر يدعى «حنينا» ولمَّا تسلَّم «إيزاط» عرش إمارة حدياب سنة ٣٦ م أصبحت الإمارة تحت حكم عائلة مالكة يهودية موالية للفرثيين دام حكمها ثمانين سنة (٣٦ ـ ١١٥ م)[٧٨]. والمثل الآخر تهود ملك اليمن التبع «تبان أسعد أبو كرب» في القرن الخامس الميلادي على يد حبرين من أحبار اليهود في يثرب في عودته إلى اليمن من حرب قام بها في الشمال وفي إيران[٧٩]. ولدينا فيما ورد في أخبار الشهداء الحميريين أن أحباراً من فلسطين من طبريا كانوا قد ذهبوا إلى اليمن[٨٠]. وهذا ما يؤيِّد أن هناك من ذهب من يهود فلسطين إلى جزيرة العرب بصفة تجار ورجال دين للتبشير باليهودية بين القبائل العربية وخاصة بين رؤسائها.

ولدينا أدلة كثيرة على أن اليهودية انتشرت بين القبائل العربية في جزيرة

---

(٧٧) المرجع السابق، ٦: ٢٥.

(٧٨) انظر: البقرة الآية ٦٢، النساء الآيتان ٤٦ و١٦٠، المائدة الآيات ٤١، ٤٤، ٦٩، النحل الآية ١٨٨، الحج الآية ١٧، الجمعة الآية ٩.

(٧٩) انظر المادتين ٦ و٧ من الفصل الأول.

(٨٠) انظر المادة ٨ من هذا الفصل.

العرب بوساطة القبائل المتهودة من غير وساطة الأحبار أو التجار، فكانت القبائل المتهودة تقوم مقام الأحبار أو التجار في التبشير بين القبائل العربية. ففي كيفية تهود جماعة من قبيلة بلي (من قضاعة) التي يقصها علينا البكري خير مثال لذلك، إذ يقول في معجمه: «لما نشب قتال بين بني حشنة بن عكارمة وبني الربعة قتل بنو حشنة وهم من بلي نفراً من بني الربعة، ثم لجؤوا إلى تيماء فأبت يهود أن يدخلوهم حصنهم وهم على غير دينهم، فتهودوا، فأدخلوهم المدينة. فكانوا معهم زماناً، ثم خرج منهم نفر إلى المدينة، فأظهر الله الإسلام، وبقية من أولادهم بها». وقد سبقت الإشارة إلى ذلك[٨١]. فهل كانت هذه الجماعة التي تهوّدت من يهود فلسطين هاجروا من فلسطين إلى جزيرة العرب ليجدوا مجالاً للمعيشة والرزق هناك؟.. ومن هذه الحادثة بالذات يتضح لنا أن الديانة اليهودية في جزيرة العرب هي غير اليهودية المتعصبة المتزمتة في فلسطين. فقد كانت اليهودية في جزيرة العرب في أكثر الأحيان أشبه بحزب سياسي قبلي فمَن دخله أصبح منتمياً لذلك الحزب. ومرتبطاً به له حقوق وعليه واجبات مرتبطة بذلك الحزب. وهذا كله يدل دلالة واضحة على أن اليهودية انتقلت إلى عرب الجزيرة وهم في مواطنهم وأن فكرة هجرة يهود فلسطين إلى جزيرة العرب عارية من كل دليل بثها اليهود لربط صلة اليهود العرقية بالعرب وقبلها أكثر العرب من غير تمحيص كما سبقت الإشارة إلى ذلك مراراً.

لقد كان رجال الدين من اليهود في الجزيرة العربية يُعرفون بالأحبار والربانيين وقد ورد ذكرهما بهذه التسمية في القرآن الكريم. وهذا ما يدل على أن هؤلاء كانوا مقيمين في جزيرة العرب، والأرجح أنهم من أصل عربي يرجعون إلى نفس القبائل العربية المتهودة وأخذوا يبشرون باليهودية بين القبائل العربية في أنحاء الجزيرة، لأن يهود فلسطين كانوا يتكلمون بالآرامية ولا يحسنون العربية.

هذا ومن المعلوم عن يهود فلسطين، أنهم اعتادوا أن يؤسّسوا مدارس دينية في المدن التي يحلون بها، فأسَّسوا مدارس دينية عديدة في فلسطين كالقدس وطبرية ويبنة وعوشة، وعندما جيء بهم أسرى إلى العراق في عهد الكلدانيين أسَّسوا ست مدارس دينية كبرى في ست مدن يهودية هي: نهر دعة، وفومبديثة، وسورا، والماحوزى، وهوزال، ونهر بيكود. وقد ورد ذكر هذه المدارس ووصفتها الكتابات اليهودية تفصيلاً، كما وردت فيها أخبار الربيين الذين كانوا

---

(٨١) الدكتور جواد علي، مفصل تاريخ العرب، ٦: ٥٤.

يدرسون فيها، ثم أسَّسوا بعد ذلك مدارس في الأندلس بعد نزوحهم إليها. أما جزيرة العرب فمع وجود جاليات كبيرة من اليهود فيها لم نجد أي ذكر لمدارس دينية أُسِّست فيها على نمط ما نجده في العراق وفلسطين وغيرهما من الأقطار التي وُجد فيها اليهود، كما لم نجد شيئاً في الكتابات اليهودية عن أخبارهم بل أكثر المعلومات التي وصلتنا عنهم مستقاة من المصادر العربية. وإن دلَّ هذا الإهمال في ذكر أخبارهم على شيء فإنَّما يدل على أن اليهود في فلسطين وفي العراق لا يعترفون بيهوديتهم لأنها لا تمثِّل المستوى الديني المبني على نصوص التوراة وتعاليم التلمود. كما يدل على أن يهود الجزيرة عرب في قوميتهم ولغتهم وتراثهم البدوي لم يختلط معهم عنصر يهودي من فلسطين يحمل معه تراثه اليهودي المتزمت ولما تهودوا بقوا مرتبطين بتراث الجزيرة محافظين على آدابه وعاداته وتقاليده وأعرافه ونظمه البدوية، والأهم من كل ذلك أن يهود الجزيرة كانوا يتكلمون بلغتهم العربية وهي لغتهم الأُم في حين أن يهود فلسطين كانوا يتكلمون بالآرامية. هذا فضلاً عن الحواجز الصحراوية التي كانت تفصل بين يهود فلسطين وقبائل الجزيرة المتهودة.

أمَّا الأماكن التي ذهب إليها اليهود بعد إخراجهم من فلسطين على عهد الرومان (ولا نقول بعد هجرتهم منها) فيمكن أن يكون أي بلد من البلاد المجاورة لفلسطين إلاَّ الجزيرة العربية التي لا يمكن أن تكون من بينها، لأنَّ سنة الطبيعة تقضي بأن الهجرة لا تتم من البيئة المتمدنة المستقرة إلى البيئة الصحراوية مثل جزيرة العرب بل العكس هو الصحيح والطبيعي، وقد سبق أن أشرنا إلى ذلك في مواضع متقدمة من هذا البحث. لذلك لم يعرف التاريخ أن جماعة هاجرت من بلاد الهلال الخصيب إلى جزيرة العرب. بل كانت كل الهجرات التي سجلها التاريخ هي هجرات من جزيرة العرب إلى أطراف الهلال الخصيب حيث أسست أعظم الأمبراطوريات مما عرفها العالم القديم. فكان النبي أرميا يهدد اليهود بأن ينفي إلى الحرة البرية[٨٢] مَن يعصي الله «أنه سيكون بمثابة شجرة العرعر في البادية، سيكون محروماً من كل خير وسيقيم في الحرة بالصحراء وهي أرض سبخة (ملحة) وغير مسكونة».

والغريب أن الدكتور جواد علي يقيس بابل والجزيرة العربية بمقياس واحد، حين يشير إلى رغبة اليهود بالبقاء في بابل وعدم رجوعهم إلى القدس فيتخذ ذلك

---

(٨٢) انظر ما تقدّم في المادة ٢ من هذا الفصل.

دليلاً على هجرة اليهود من فلسطين إلى الجزيرة العربية ليستقروا فيها، كما استقروا في بابل فرفضوا العودة إلى فلسطين مفضّلين البقاء في بابل، وشتان بين هذه وتلك. فهل يمكن أن نقيس بابل، أم الأمبراطوريات والمدنيات بالجزيرة العربية أم الصحارى والرمال والحرات؟.. الواقع أن اليهود سيقوا قسراً إلى بابل كأسرى لا كمهاجرين جاؤوا لاختيار مكان أفضل للعيش فيه. والمعلوم أن اليهود حين جيء بهم إلى بابل كانوا دون مستوى مدنية بابل، وبعد أن استقروا في هذا البلد الغني بأراضيه الخصبة ومياهه الوافرة اقتبسوا من أهل بابل وسائل مدنيتهم في شتى نواحيها حتى أصبحوا أصحاب نفوذ وثراء يملكون المزارع الواسعة ويسيطرون على مرافق البلاد الاقتصادية والتجارية، فقد كان من الطبيعي أن يفضلوا البقاء في بابل على العودة إلى فلسطين. لقد استفاد اليهود كثيراً من الميزات التي منحهم إياها الكلدانيون وأصبح في صفوفهم الكثير ممَّن تمرسوا على أساليب الحكم والسياسة وممَّن اتقنوا الحرف والصناعات المختلفة وعظم شأنهم بين البابليين[٨٣]. وتذكر المصادر التاريخية الموثوقة أن بختنصر وهب اليهود أخصب المقاطعات ومنحهم أوسع الحريات في العمل والحل والترحال. وتعترف المصادر اليهودية بأنَّ اليهود أصبحوا في غضون مدة وجيزة أغنى أهل بابل وأن السلطات الحاكمة كانت تعاملهم على أحسن وجه[٨٤]. وقد اشتهر من بين بيوتات اليهود التجارية والمالية في بابل «بيت موراشو» الشهير في نيبور، وقد توارث على هذا البيت الأبناء والأحفاد. ولولا أنبياء المهجر الذين كانوا لا ينفكون عن تنبيه اليهود أمثال حزقيا وعزرا إلى أخطار الانصهار وحثهم على ضرورة التفكير في العودة إلى فلسطين لانصهر اليهود في الشعب الكلداني البابلي انصهاراً تاماً بسبب ما توفر لديهم من رغد العيش والأمن والاستقرار[٨٥]. وقد بلغ نفوذ اليهود في بابل في عهد الفرثيين أوج ما وصل إليه من اتساع بحيث ارتقى إلى حكم بابل الأخوان اليهوديان «أنيلاي» و«أسيناي»، فاستمر حكمهما في بابل في عهد الملك الفرثي أرطبان الثالث (١١ ـ ٤٠ م) خمس عشرة سنة

(٨٣) الحرة هي كتل من الأحجار البركانية تسيل حولها المواد البركانية السوداء اللون. والحرة كما يقول ياقوت (٢: ٢٤٧) أرض ذات حجارة سودة نخرة كأنَّها أُحرقت بالنار ويشير إلى أن بلاد العرب بها كثير من الحرات وخاصة بين المدينة ودمشق.

(٨٤) A. Lods, «Les Prophètes d'Israel», p. 202.

(٨٥) «المفسدون في الأرض»، ص ٧١.

بين سنة ٢٠ وسنة ٣٥ ميلادية[٨٦]. هذا وفي نفس الوقت كانت العائلة الحاكمة في إمارة حدياب الواسعة في منطقة آشور عائلة اعتنقت اليهودية دام حكمها ثمانين عاماً بين سنة ٣٦ وسنة ١١٥ ميلادية[٨٧]، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك، وفي هذا الوقت بالذات (القرن الأول الميلادي) كانت في الشمال سلالة يهودية تحكم في أرمينية وفي مقاطعات «جالسس» Chalcis و«كبادوسيا» Cappadocia و«ايتورا» Iturea و«ابلين» Abilene[٨٨].

هذا هو الوضع الذي كانت عليه حالة اليهود السياسية والاجتماعية في البلاد المجاورة لفلسطين، ذلك الوضع الذي كان يختزن كل الإمكانيات والوسائل المشجعة للجوء اليهود إلى هذه البلاد للعيش مع أبناء جنسهم وإخوانهم في الدين في كنف أرقى مدنيات ذلك العصر. فهل من المعقول أن نتوقع في مثل هذه الظروف المغرية أن يتوجه يهود فلسطين بعد اضطهاد الرومان لهم إلى جزيرة العرب ليواجهوا رمال صحرائها في سبيل مشاركة يهودها الذين لا تربطهم وإياهم أية صلة قومية أو لغوية؟. إن ما شرحناه فيما تقدّم كفاية للإجابة على ذلك.

١١ ـ إسلام بعض يهود الجزيرة:

وبناء على الصلة القومية والرابطة اللغوية اللتين تربطان يهود الجزيرة بالوطن العربي فما أن ظهر النبي العربي محمد (ﷺ) حتى أسلم عدد من كبار يهود الجزيرة منهم: عبدالله بن سلام، فكان يُدعى وهو على يهوديته الحصين بن سلام بن الحارث وهو من بني قينقاع ولما أسلم سماه الرسول (ﷺ) عبدالله وكان حبراً عالماً، سيداً في قومه، صاحب نسب وحسب، فلما أسلم نبذه قومه. ومنهم مخيرق وكان رجلاً غنياً، وهو أحد بني ثعلبة بن الفطيون قاتَلَ مع النبي (ﷺ) حتى قُتل[٨٩]. وممن آمن بالإسلام يامين بن عمير بن كعب وأبو سعد بن وهب وهما من بني النضير[٩٠]، ويامين بن يامين الإسرائيلي وقد أسلم على أثر

---

(٨٦) المرجع السابق، ص ٧١.

(٨٧) Neusner, op. cit., I, pp. 54-57, 70.

(٨٨) Ibid, I, pp. 61-64.

(٨٩) Ibid, p. 62.

(٩٠) ابن هشام ٣: ٩٤.

إسلام عبدالله بن سلام. وكان فيمن أسلم من بني قريظة كعب بن سليم القرظي ويُعد في الصحابة له روايات عن أخبار اليهود. وقد عدَّه علماء الحديث في طبقة الثقاة الورعين، ورفاعة القرظي، وهو رفاعة بن سموأل خال صفية زوجة النبي (ﷺ). ويُعد زيد بن سعية في طبقة الصحابة يُقال إنه كان أحد أحبار اليهود الذين أسلموا وأنه كان أكثرهم علماً ومالاً تُوفيَ في غزوة تبوك مقبلاً إلى المدينة. ويُعد عطية القرظي من الصحابة ايضاً وهو من بني قريظة، كان صغيراً حين غزا النبي (ﷺ) بني قريظة، فأسلم وصحبه[٩١]. وذكر أهل الأخبار أن جبل ابن جوال بن صفوان الثعلبي من بني ثعلبة بن سعد بن ذبيان كان يهودياً فأسلم، فهو عربي يظهر أنه أو أهله قبله قد تهوّدوا فكان على دين يهود وعاش مع بني قريظة حتى اعتنق الإسلام[٩٢].

وهناك ما يدل على أن بعض القبائل العربية المتهودة مالت إلى الإسلام بعد ظهوره، فمن بقايا القبائل العربية المتهودة في الجزيرة التي اعتنقت الإسلام بعد ظهوره قبيلة في منطقة خيبر، إذ يفيد الرحَّالة دوثي الذي ارتاد الجزيرة سنة ١٨٧٥ («الصحراء العربية»، ص ١٢٩) إن هناك قرية في نواحي خيبر أهلها مسلمون ولكنهم لا يزالون محتفظين ببعض التقاليد والتعاليم اليهودية لا يخالطون غيرهم من القبائل المجاورة.

أما ما يسجله التاريخ عن مقاومة غالبية يهود الجزيرة لدعوة النبي محمد (ﷺ) فكان مردّه التزمت الذي كان يسيطر على رجال الدين من اليهود بوجه خاص، والتمسّك الحزبي القبلي الذي كان يستأثر بعقلية القبائل العربية المتهودة، لأنَّ اليهودية في جزيرة العرب كانت أكثر من دين، فقد كانت تغلب عليها النزعة القبلية التي لا تتخلى بسهولة عن مواثيقها وأحلافها وبخاصة استقلالها الذاتي الذي تغذيه العصبية البدوية، فكان ما حدث من الاصطدام المنتظر. ولكن بعد أن تعقَّدت اليهودية بما أُضيف إليها من تعاليم تلمودية ضيقة ارتد الكثير من اليهود باعتناقهم المسيحية بعد ظهورها، كما أن الكثير من اليهود العرب اعتنقوا الإسلام بعد ظهوره وخاصة اليهود العرب الذين أُجلوا عن جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض). وقد ظهرت في الوقت نفسه فرق يهودية لا تعترف بتعاليم التلمود، ومن هذه الفِرق فرقة القرائين التي تعترف بنبوءة المسيح (ع) ونبوة

---

(٩١) المرجع السابق ٢٠٢.

(٩٢) الدكتور جواد علي، «تاريخ العرب قبل الإسلام»، ٦: ١٦٥ ـ ١٧٢.

محمد (ﷺ)، وقد أصبح لهذه الفرقة أتباع كثيرون في مختلف أقطار العالم ونبغ فيهم عدد من المفكرين فدوَّنوا المبادئ التي يقوم عليها هذا المذهب ونشروها بين يهود العالم فلاقت قبولاً وتأييداً بين مختلف الطبقات اليهودية وفي مقدمتهم اليهود من أصل عربي، ولكن مقاومة الربانيين التلموديين ونفوذهم السياسي أديا إلى الحد من نشاط هذه الفرقة رغم جهود أتباعها ومساعيهم في سبيل نشر هذا المذهب الجديد ولو قدّر لهذا المذهب الاستمرار في نشر تعاليمه لقضى على الحركة الصهيونية السياسية التي اتخذت من التعاليم التلمودية المتزمتة وقوداً لإشعال نار الحقد والنقمة على البشرية جمعاء وفي المقدمة الاعتداء على حقوق العرب في فلسطين[٩٣].

١٢ ـ الخاتمة:

وختاماً أرجو أن أكون قد وُفقّت بهذا العرض الإجمالي لتاريخ اليهود القديم في العراق بشرح ناحيتين رئيسيتين في تاريخ العراق القديم: في ضوء الدراسات التاريخية المستندة إلى الاكتشافات الآثارية الحديثة: الأولى، أن اليهود لم يظهروا على مسرح الأحداث المقترنة بإبراهيم الخليل وأنهم لم يهاجروا معه من العراق قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد كما تدَّعي الكتابات اليهودية بل ظهروا إلى عالم الوجود بظهور النبي موسى أي بعد إبراهيم الخليل بسبعة قرون. ولم يدخلوا العراق إلاَّ في القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد عندما سيقوا أسرى من فلسطين إلى شمال العراق حيث نقلوا إلى جبال آشور. فادعاءاتهم لا نصيب لها من الصحة وهي لا تستند إلى أي دليل، بل هي من اختلاق الكتابات اليهودية التي يقصد من ورائها اعتبار أصل اليهود وأصل العرب أصلاً واحداً. وأن هذا التوفيق لا يمكن أن يحقق الغرض المنشود وهو إظهار الحقائق التاريخية ما لم يكف الكتّاب العرب عن ترديد الأساطير التي يروجها الصهيونيون وأنصارهم فيتخذونها عن غير قصد حقائق تاريخية. وأملي أن يكون في هذا البحث ما يحمل الكتّاب والباحثين من العرب ومن الأجانب المتمسكين بدراساتهم العلمية المجردة من الأغراض السياسية أن يتناولوا تحقيق هذا الموضوع تحقيقاً علمياً بقصد إظهار النواحي التاريخية على حقيقتها.

---

(٩٣) الدكتور جواد علي: المفصل في تاريخ العرب، ٦: ٥١٥.

الملحق الأول

تسلسل الحوادث التاريخية

الفصل الأول

أقدم وجود لليهود في شمال العراق

حوالى ١٩٠٠ ـ ١٨٥٠ ق.م. ظهور إبراهيم الخليل في بابل ونزوحه إلى فلسطين عن طريق حران.

١٨٩٤ ـ ١٥٩٥ ق.م. العهد البابلي القديم في العراق، أشهر ملوكه حمورابي (١٧٩٢ ـ ١٧٥٠ ق.م.).

١٧٨٥ ـ ١٥٨٠ ق.م. هجرة الهكسوس إلى مصر وحكمهم فيها وقد اشتملت على خمس سلالات هي السلالات ١٣ ـ ١٧.

حوالى ١٧٢٠ ق.م. هجْرة آل يعقوب إلى مصر في عهد الهكسوس.

١٥٩٥ ـ ٩١٠ ق.م. العهد الآشوري الوسيط.

١٥٩٥ ـ ق.م. احتلال الحيثيين لمدينة بابل وقضاؤهم على سلالة بابل الأولى.

١٥٨٠ ـ ١٠٨٥ ق.م. فترة الأمبراطورية المصرية المتكوّنة بعد طرد الهكسوس من مصر.

١٥٨٠ ـ ١٣٥٠ ق.م. سيادة مصر على فلسطين وسورية.

نحو ١٢٩٠ ق.م. ظهور اليهود في عهد موسى وخروجهم من مصر.

نحو ١١٢٥ ـ ١٠٢٥ ق.م. عهد القضاة الموسويين في فلسطين.

نحو ١٠٢٥ ـ ١٠١٠ ق.م. فترة حكم الملك شاؤل.

نحو ١٠١٠ ق.م. انتصار الفلستينيين على الملك شاؤل ومقتله هو وأولاده الثلاثة.

نحو ١٠١٠ ـ ٩٧١ ق.م. فترة حكم الملك داود.

نحو ٩٧١ ـ ٩٣١ ق.م. فترة حكم الملك سليمان في أورشليم.

نحو ٩٣١ ـ ٧٢٤ ق.م. فترة حكم مملكة إسرائيل.

نحو ٩٣١ ـ ٥٨٦ ق.م. فترة حكم مملكة يهوذا.

٩٣٦ ق.م. زحف شيشنق الأول على أورشليم في عهد رحبعام أول ملك على يهوذا ونهب ذخائر الهيكل.

٩١١ ـ ٦١٢ ق.م. عهد الإمبراطورية الآشورية الحديثة.

٨٥٣ ق.م. معركة القرقار على نهر العاصي بين الآشوريين وبين الآراميين وحلفائهم.

٨٥٣ ق.م. إخضاع الآشوريين لإسرائيل للجزية.

٨٤١ ق.م. مسلة شلمنصر الثالث عليها صورة يهو ملك إسرائيل ساجداً وهو يقدِّم الجزية للملك الآشوري.

٧٣٢ ق.م. استيلاء تجلات بلاسر الثالث (٧٤٥ ـ ٧٢٧ ق.م.) على دمشق.

٧٣١ ق.م. استيلاء تجلات بلاسر الثالث ملك آشور على كل أراضي إسرائيل عدا السامرة وسبى اليهود إلى آشور.

٧٣١ ق.م. أقدم وجود لليهود في شمال العراق في عهد تجلات بلاسر الثالث (السبي الآشوري الأول).

٧٢٧ ـ ٧٢٢ ق.م. حملة الملك شلمنصر الخامس على إسرائيل.

٧٢٢ ق.م. احتلال السامرة وإزالة إسرائيل في عهد سرجون الثاني (٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق.م.) وحمل ٢٧,٢٩٠ نسمة من اليهود الأسرى إلى آشور (السبي الآشوري الثاني).

٧٠١ ق.م. حملة الملك سنحاريب (٧٠٥ ـ ٦٨١ ق.م.) على يهوذا

واستيلاؤه على مدنها وحمله ٢٠٠,١٥٠ من اليهود الأسرى إلى آشور (السبي الآشوري الثالث).

٦٧٢ ق.م. أسر منسى ملك يهوذا ٦٨١ ـ ٦٤١ ق.م. على عهد العاهل الآشوري ونقله إلى بابل مكبلاً بالقيود.

٦١٢ ق.م. سقوط نينوى عاصمة الآشوريين بيد الجيوش الماذية والبابلية المتحالفة.

٦٨١ ـ ٦٦٩ ق.م. أسر الملك أسرحدون لمنسي ملك يهوذا ونقله إلى بابل ثم إرجاعه إلى أورشليم حيث بقي خاضعاً للعاهل الآشوري.

٨٣ ـ ٦٤ ق.م. احتلال ملك أرمينية لإمارة حدياب ثم انسحابه منها سنة ٦٤ ق.م.

٣٦ ـ ٦٠ ب.م. حكم إيزاط ملك حدياب.

٣٦ ـ ١١٥ ب.م. حكم إمارة حدياب تحت سلالة ملوك متهودين.

١١٥ ب.م. حملة تراجان واحتلاله لإمارة حدياب.

١٨٣٥ ـ ١٨٤١م دراسة الدكتور غرانت عن النساطرة.

١٨٨٦ م وصول بعثة رئيس أساقفة كنتربري إلى مواطن النساطرة في كردستان وتسمية النساطرة بالآثوريين (آشوريين).

الفصل الثاني

المسيحية ودور النسطورية فيها

حوالى ٥٠ ب.م. قيام مار ادي ومار ماري من تلاميذ المسيح بالتبشير بالمسيحية في الشرق.

٢٩٠ ب.م. تأسيس مدرسة لاهوتية مسيحية كبرى في أنطاكية.

٣١٣ ب.م. إصدار قسطنطين (٣١٢ ـ ٣٣٠ م) مرسوم يقضي بمنح المسيحيين حرية العبادة على دينهم في جميع أقطار الأمبراطورية الرومانية.

٣٢٥ ب.م. عقد المجمع الكنسي الأول في نيقية عهد قسطنطين الأول (٣١٢ ـ ٣٣٧) الذي أدين فيه أريوس.

٣٣٠ ب.م. اتخاذ «بيزنطية» عاصمة رسمية للأمبراطورية الرومانية وتغيير اسمها إلى اسم القسطنطينية على اسم مؤسِّسها قسطنطين.

٣٣٢ ب.م. اعتناق قسطنطين المسيحية.

٣٥٠ ب.م. استيلاء الآريوسيين على الكرسي الأنطاكي المسيحي.

٣٦٤ ب.م. تقسيم الأمبراطورية الرومانية إلى غربية ومركزها روماوشرقية ومركزها القسطنطينية.

٣٨١ ب.م. عقد المجمع الكنسي الثاني في القسطنطينية في عهد ثيئدوسيوس الأول ٣٧٩ ـ ٣٩٥ م.

٤٢٨ ب.م. تعيين نسطوريوس بمنصب بطريرك القسطنطينية.

٤٣١ ب.م. عقد المجمع الكنسي الثالث في إيفيسس الذي أُدين فيه نسطوريوس وحُكِمَ عليه بالضلال والإلحاد.

٤٣٦ ـ ٤٥٧ ب.م. ازدهار النسطورية في الرها على عهد الأسقف إيباس.

٤٥١ ب.م. عقد المجمع الكنسي الرابع في عهد مارقيان ٤٥٠ ـ ٤٥٧ خلكيدونية أقرَّ فيه مبدأ الطبيعتين في شخص المسيح لكن من غير انفصال.

٤٥١ ب.م. موت نسطوريوس في المنفى في أعالي مصر.

٤٩٦ ب.م. عقد المجمع الديني النسطوري في سلوقية وتعيين أول بطريرك نسطوري.

٦٣٧ ب.م. معركة القادسية بين العرب والفرس وانتصار العرب فيها.

الفصل الثالث

الوجود الثاني لليهود في جنوبي العراق

٦١٢ ـ ٥٣٩ ق.م فترة حكم الدولة الكلدانية في العراق بعد سقوط نينوى.

٦٠٥ ـ ٥٦٢ ق.م. حكم نبوخذ نصر الثاني في بابل.

٦٠٥ ـ ق.م. انتصار نبوخذ نصر على نخو ملك مصر في معركة كركميش وانسحاب مصر من الشرق الأدنى.

٥٩٧ ق.م. حملة نبوخذ نصر الأولى على مملكة يهوذا وأورشليم (السبي البابلي الأول).

٥٨٦ ق.م. حملة نبوخذ نصر الثانية على مملكة يهوذا وأورشليم وسبي اليهود إلى بابل (السبي البابلي الثاني).

٥٨٦ ـ ٥٣٩ ق.م. فترة أسر اليهود في بابل.

٥٣٩ ق.م. فتح كورش الأخميني لمدينة بابل وقضاؤه على الدولة الكلدانية في العراق وسماحه لمَن يرغب من اليهود بالعودة إلى أورشليم وإذنه لهم بإعادة بناء الهيكل.

٥٣٩ ـ ٣٣١ ق.م. فترة حكم الفرس الإخمينيين.

٤٥٨ ق.م. مغادرة عزرا بابل في طريقه إلى أورشليم مع اليهود العائدين.

٤٤٥ ق.م. تعيين نحميا حاكماً على ولاية اليهودية في أورشليم.

٣٣٢ ـ ٣٢٣ ق.م. عهد الإسكندر في الشرق.

٣١٤ ـ ٦٤ ق.م. فترة حكم السلوقيين في سورية وفي العراق.

١٦٧ ـ ٣٧ ق.م. فترة عهد المكابيين في فلسطين.

١٤١ ق.م. ـ ٢٢٦ ب.م. حكم الفرثيين في العراق.

٧٠ ق.م. ـ ٤٧٦ ب.م. عهد الأمبراطورية الرومانية.

٧٠ ب.م. احتلال تيطوس لأورشليم وحرق الهيكل والفتك باليهود وإلغاء السنهدرين.

٢٢٤ ـ ٦٣٧ ب.م. فترة حكم الساسانيين في العراق.

٦٣٦ ب.م. معركة اليرموك التي انتصر فيها العرب على جيوش الأمبراطور البيزنطي هرقل.

٧٦٢ ـ ١٢٥٨ م. فترة العهد العباسي في العراق.

الفصل الرابع

الوجود الثالث لليهود في الفرات الأوسط

٣٤٠ ـ ٣٧٨ م. الاحتلال الحبشي الأول لليمن.

٦٣٤ ـ ٦٤٤ م. إخراج اليهود والمسيحيين من جزيرة العرب في عهد الخليفة عمر (رض).

٥٢٥ ـ ٥٧١ م. الحكم الحبشي الثاني في اليمن.

القرن الثاني عشر للميلاد زيارة بنيامين التطيلي للعراق.

١٦٠٤ ـ ٦٠٥ م. زيارة الرحّالة البرتغالي يورو تكسيرا ووصفه ليهود عانة.

الملحق الثاني

أ ـ المراجع العربية

بنيامين التطيلي (١١٦٥ ـ ١١٧٣ م) (رحلة):

ترجمة عربية من العبرية مع تعليقات بقلم عزرا حداد ـ بغداد، ١٩٤٥.

بوست (جورج):

«قاموس الكتاب المقدس» المطبعة الأميركانية بيروت ١٨٩٤ جزءان.

«قاموس الكتاب المقدس» طبعة جديدة بيروت، ١٩٧١.

خوري (يعقوب):

«اليهود في البلدان العربية»، دار النهار، بيروت، ١٩٧٠

داود (اسكندر):

«الجزيرة السورية بين الماضي والحاضر».

ديسو (رنيه):

«العرب في سوريا قبل الإسلام»، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٩.

شير (آدي):

كلدو واثور، بيروت، ١٩١٢.

صموئيل بن علي الملقب بابن الدستور (مجموعة رسائل):

هذه الرسائل مكتوبة بحروف عبرية وبلغة عربية. من أهم الوثائق عن تاريخ يهود العراق في القرن الثاني عشر للميلاد، طبعة القدس ١٩٣٠.

ظاظا (حسن):

«الفكر الإسرائيلي أطواره ومذاهبه»، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧١.

عبده (علي إبراهيم) وخيرية قاسمية:

«يهود البلاد العربية»، منظمة التحرير الفلسطينية (مركز الأبحاث) دراسات فلسطينية (٨٢)، بيروت، ١٩٧١.

غنيمة (يوسف رزق الله):

«نزهة المشتاق في تاريخ يهود العراق»، بغداد، ١٩٢٤.

فتاحية الرجنسبرجي:

(رحلة الربي) (بالعبرية) منها طبعتان، طبعة اوستراخ سنة ١٨٠٦ وطبعة ليفورنو سنة ١٨٤٦.

فهمي (عبد الجبار):

«سموم الأفعى الصهيونية»، مطبعة بغداد، ١٩٥٣.

كوهين (حييم):

«النشاط الصهيوني في العراق» مترجم عن العبرية قام مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد بالتعاون مع مركز الأبحاث في بيروت بنشره (على شكل محدود) شباط ١٩٧٣.

ماتفيف ومار يوحنا:

«تاريخ الآثوريين» (ترجمة أسامة نعمان عن الروسية) بغداد ١٩٧٠.

مراد (إميل):

«قصة الحركة السرية الصهيونية في العراق» مترجم عن العبرية مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد، تشرين الثاني، ١٩٧٣.

معروف (خلدون ناجي):

«الأقلية اليهودية في العراق بين سنة ١٩٢١ و١٩٥٢» (جزءان) مركز الدراسات الفلسطينية التابع لجامعة بغداد (سلسلة دراسات فلسطينية ٧ و٨)، بغداد ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦.

ـ «لمحات عن يهود العراق في العهد العثماني»، مجلة مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد، م٢، العدد الرابع، أيلول ١٩٧٣ ص ٤٩ ـ ٨٧.

ـ «جوانب من التعليم اليهودي ببغداد» مجلة مركز الدراسات الفلسطينية بجامعة بغداد، العدد ١١ تشرين أول ـ تشرين ثاني ١٩٧٦، ص ٥٣ ـ ٨٢.

ـ «اليهود والصهيونية في فترة الاحتلال البريطاني المباشر للعراق»، مجلة آفاق عربية، العدد ١١ (تموز ١٩٧٦)، ص ٧٢ ـ ٨١.

نصري (القس بطرس):

«أصل النساطرة الحاليين وأحوالهم الدينية والمدنية»، مجلة المشرق ١٦ (١٩١٣)، ص ٤٩١ ـ ٥٠٤.

ولفنسون (إسرائيل):

«تاريخ اليهود في بلاد العرب»، القاهرة، ١٩٢٧.

ب ــ المراجع الأجنبية

Adler (M.N.):

«The Itinerary of Benjamin of Tudela», London, 1907.

Adler (E.N):

«Jewish Travellers», London, 1930.

Bacher (W.):

«Banjamin of Tudela», Jewish Encyclopedia, N.Y., 1902.

Badger (J.): «The Nestorians», London, 1852.

Beaton (P):

«The Jews in The East», London, 1859.

Ben-Zvi (Isaac):

«Les Juifs Kurdes dans le Judaisme Sephardi», Londres Mai, 1954.

«The Exiled and The Redeemed», Translated From the Hebrew, London, 1958.

Cohen (H.J.):

«A Note on the Social Change Among Iraq Jews 1917-1951», the Jewish Journal of Sociology, Vol. 71 London 1965.

Daishes (S.):

«The Jews in Babylonia in The Time of Ezra and Nehemiah According to Baylonian Inscriptions», London, 1910.

Fischel (W.J.):

«The Jews of Kurdistan a Hundred Years ago», Conference on Jewish Relations, N.Y., 1944 Reprinted From Jewish Social Studies Vol. VI, No. 3.

Franco (M.):

«Essai Sur L'histoire des Israelites de l'Empire Ottoman depuis les Origines Jusqu'à nos Jours», Reproduced of the 1897 edition, 1937.

Gotheil (J.H.):

«The Judeo-Aramic Dilect Salamas», Journal of American Oriental Society, XV, 1893.

Grant (A.):

«The Nestorians or The Lost Tribes», New York, 1841. (Translated into French, Paris, 1843). New English Edition 1955.

Gunkel (H.):

«Israel and Babylon, The Influence of Babylon on The Religion of Israel», Philadelphia, 1904.

Haddad, «History of The Jews in Iraq».

ملحوظة: حاولنا كثيراً العثور على هذا الكتاب فلم نوفق مع ان هناك اشارة اليه في كتابات الباحثين.

Herzl (Theodor):

«The Complete Diaries of Theodor Herzl», Vol. IV the Herzl Press, N.Y., 1960.

Hourani (A.):

«Minorities in The Arab World», London 1974.

Husry (Khaldun S.):

«The Assyrian Affair of 1933», International Journal of Middle East Studies, Vol. 5, April 1974, PP. 161- 176 and June 1947, PP. 344-360.

Jackson (S.):

«The Sassoons», Heinemann, London 1968. Jewish Encyclopedia, Vol II, London, 1902.

Joseph (John):

«The Nestorians and Their Muslim Neighbors», Princeton, New Jersey, 1961.

«The Turko-Iraqi Frontier and the Assyrians».

Josephus (Flvius):

The Complete Works of Flavius Josephus Comprising: The Antiquities of The Jews; A History of The Jewish Wars; the Life of Josephus Written by Himself, etc. (translated by W. Whiston With Sequel to the History of the Jews, London and New York, Without date).

Kedourie (Elie):

«The Jews of Baghdad in 1910», Middle Eastern Studies, Vol. 7, No. 3 London, Oct. 1971.

Keller (W.):

«The Bible as History, Archaeology Conforms the Book of Books», London 1958 (5 thed).

Khadduri (W.):

«The Jews of Iraq during the 19 th Century», the Arab World, May June., N.Y. 1970.

مجلة شهرية يصدرها فرع الجامعة العربية في نيويورك (بالانكليزية).

Knisbacher (M.):

«The Jews of Iraq 1856-1976, A Case Study on the International Protection of the Rights of Minorities», Israel Year Book, Vol. 6 (1976) pp. 252-293.

Landshut (S.):

«Jewish Communities in the Muslim Countries of the Middle East», London 1950.

Levy (R.):

«A Baghdad Chronicle», Cambridge, 1929.

Luckenbill (D.D.):

«Ancient Records of Assyria and Babylonia», in 2 Vols., 1927.

Luke (H.C.):

«Mosul and its Minorities», London, 1925.

Magnus (Lady):

«Outlines of Jewish History» (From 586 B.C. to 1885 C.E.), London, 1924.

Melek (J. Yusuf):

«The British Betrayal of the Assyrians», Chicago, 1935.

Naby (Eden):

«The Assyrians of Iran», Reunification of a Millet, 1906-1914, International Journal of Middle East Studies, Cambridge University Press, Vol. 5, No. 2 April, 1977, PP. 236-249.

Neusner (J.):

«History of the Jews in Babylonia», (5 Vols):

1- the Parthian Period, Leiden, 1965; 2- the Early Sassanian Period, Leiden, 1966; 3- From Shapur 1 to Shapur II, Leiden, 1968; 4- the Age of Shapur II, Leiden, 1969; 5- Later Sassanian Times», Leiden, 1970.

«The Formation of the Balylonian Talmud», Leiden 1970.

Newman (Rabbi J.):

«The Agricultural Life of the Jews in Babylonia», 1932.

Parkes (S.):

«Continuity of Jewish Life in the Middle East», London, 1961.

«Arabs and Jews in the Middle East», London, 1967.

Perley (David B.):

«The Assyrian Tragedy», Annemasse, 1934,

Petachia of Ratisben (Travels of): Translated from Hebrew by Dr. A. Benisch, London, 1856.

Pritchard (J.B.):

«The Ancient Near East in Pictutes Relating to the Old Testament», Princeton, 1954.

«Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament», Princeton 1955.

«Archaeology and the Old Testament», Princeton 1958.

Sassoon (D.S.):

«A History of the Jews in Baghdad», Letchworth, 1949.

Stafford «The Tragedy of the Assyrians», London, 1935.

«Iraq and the Problem of the Assyrians», Royal Institute of Interantional Affairs, Vol. 13, No. 2, March- April, 1934.

Wigram (W.A.):

An Introduction to the History of the Assyrian Church, London, 1910.

Wiqran (W.A.) and Wigram (E.A.) «The Cradle of Mankind: Life in Eastern Kurdistan», London, 1914.

Wigram (W.A.):

«The Assyrians and their Neighbors», London, 1929.

فهرس الأعلام والأماكن

ـ أ ـ

الاسم	الصفحة
باطاس	42
باغوز (تل)	206، 208
باقردي	53
باوي (إيشو البطريرك)	94 ـ 95
بحياني	32
بختنصر (انظر نبوخذ نصر)	
بداه (نهر)	162
بدر الدين لؤلؤ	51
بديثة لباء	162
براش (قرية)	37
برواري (العليا والسفلى)	37
بستناي بن حنيناي	176، 178
بطرس (القديس)	87، 90
بطليموس فلافيوس	90
بطنايا (دير)	110
بقيدا	54 ـ 55
البكتكينية	51
بلعام	179
البليخ (نهر)	32، 33، 52
بنتاتيك (الأسفار الخمسة)	165
بهدينان (إمارة)	38، 65
بهرام	156
البوريم (عيد)	142
بولص	87، 92

ـ ت ـ

الاسم	الصفحة
تبان (أسعد أبو كرب)	78، 230، 235
تجلان بلاشر الثالث	26، 27، 28، 32، 35، 57
تراجان	42، 48، 55، 154
الترجوم	33، 35، 38، 66، 67، 97، 126
تريدات	151

الاسم	الصفحة
جملئيل الثاني	170 ـ 172
جندب العربي	221 ـ 222
جنكيز خان	95
جوتارز	151
جوزان	32
جوله مرك	69، 98، 113
جيلو (قبائل)	72 ـ 73

- ح -

الاسم	الصفحة
الحارث بن جبلة	102
الحارث (بنو)	216
الحجاج	161
حدياب (إمارة)	17، 41 ـ 57، 72، 78، 98، 150، 151، 158، 172، 219، 227، 235، 239
حران	8، 21، 33، 41، 51، 157
حرير	42
حزائيل	24
حزقيل (ملك يهوذا)	21، 28، 29، 30، 31، 238
حزة	41، 52
حزقيال	29، 37، 123، 124، 132 ـ 135، 162، 178
الحشيشيون	35
الحضر	41، 42، 107، 150، 155
حلح	32، 52، 67
حلف (تل)	32
حلقوت	164، 165 ـ 167
حمورابي (شريعة)	130
حمير (بنو)	107 ـ 216
الحواريون	52، 53
حوفرا (ملك مصر)	125
حونا الأول	172 ـ 173

الاسم	الصفحة
حونا (الثاني والثالث)	174
حونا (الرابع والخامس)	175
الحيثيون	7، 22، 141
حيران (الأسقف)	55
الحيرة	95، 101، 150، 188، 193، 223
حيكاري	58 ـ 60، 97 ـ 98، 110، 113، 116، 118، 119

- خ -

الخابور (نهر)	32، 132، 162، 206، 207
خابور نهر جوزان	32، 52، 67
الخزر	87، 212، 225
الخزرج	215، 216، 220، 225
خفتيان (جبال)	35
خلكيدونية (مجمع)	77، 99، 102
خوسرو	154
خيبر	10، 203، 205، 206، 210، 219، 220، 222، 223، 240

- د -

دارا الأول	138، 140، 141، 157
دارا الثالث	50، 146، 147
داقوق	51
دان (سبط)	53
دانيال (النبي)	90، 106، 124، 132، 135 ـ 137
دانيال بن ألعازار	178
دانيال بن حسداي (الربي)	196 ـ 197
دانيال بن سليمان	178
داوود بن الروحي	124، 198 ـ 200

الاسم	الصفحة

الاسم	الصفحة

- س -

الاسم	الصفحة
سمرا (نهر)	143، 144
سنحاريب (الملك)	21، 26، 28، 29، 30، 31، 34، 50، 57، 127، 140
سنجار	51، 150
السنهدرين	123 ـ 124، 164 ـ 165، 167، 171، 183
سورا (بلدة)	161
سورا (مدرسة)	124، 183، 188، 190، 208، 236
سورا (نهر)	161، 190
السورت	107
سوفريم (الكتبة)	166
سورما	64
سيريل (بطريرك الإسكندرية)	93
سيرينيوس	178
سيف بن ذي يزن	233
سيلبيل (ملك غزة)	29

ـ ش ـ

الاسم	الصفحة
شابور الأول	187
شارمحسية	161
الشتات (انظر داياسبورا)	224
شحلوبا (الأسقف)	55
شاؤول	27
شفياثيب (كنيس)	185
شكيم (نابلس)	127، 169
شلحي	160
شلمنصر الأول	25
شلمنصر الثالث	25، 26، 35
شلمنصر الخامس	25، 26، 28، 35
شماي	164 ـ 165، 166، 170
شمسي أدد	49

الاسم	الصفحة

الاسم	الصفحة

الاسم	الصفحة
المستنجد بالله (الخليفة)	194، 196 ـ 197
المستنصر (الخليفة)	50 ـ 51
المشنة	167، 171
المقتدي (الخليفة)	194
المقتفي (الخليفة)	177، 184، 196
معلولا نجعة	107
المكابيين	166
ملح (تل)	162
ملكا (نهر)	161
الملكيين	101
المنذر	102
منسى (ملك يهوذا)	31
المنصور (الخليفة)	177، 180 ـ 181
منوفستيين	88، 93، 100 ـ 101
موآب	29
الموراشو (عائلة)	138، 238
ميتيني (ملك أشدود)	29
ميخائيل (دير مار)	110
ميسان	150
مين	54
المينيم	54

ـ ن ـ

الاسم	الصفحة
ناحوم الألقوشي	36، 37
نبوخذ نصر	56، 124 ـ 126، 128، 131، 136، 137، 140
نجاد (ضريح الست)	38
نجران	209، 232
نجعة	107
نحميا	90، 124، 138، 141، 142، 143، 145، 166
نسطوريوس	52، 58، 65، 92 ـ 94، 100

الاسم	الصفحة
نصيبين	32، 41، 48، 53، 94، 157
نضير (بنو)	206، 214، 216، 220، 239
النعمان بن المنذر	157
نفتلي (سبط)	27، 35
نفر (نيبور)	120، 128، 130، 138، 238
نمرود	25
نهرابان (قرية)	209
نهر بيكود	183، 236
نهر دعة (بلدة، مدرسة)	124، 155، 156، 161، 184 ـ 188، 208، 236
نوح	55
نور الله باك	116
نونوس (أسقف الرها)	94
نيسابور (إيران شهر)	35
نيقية	81 ـ 82
النيل	161

ـ هـ ـ

الاسم	الصفحة
هابيل	55
هادريان	154
هارا	32، 33، 52
هامان	141
هبل	87
هرمز (دير الربان)	156
هرون الرشيد (الخليفة)	193
هغرونيا	161
هوزال	236
هولاكو	95
هيلانة	46، 80
هيلل	164 ـ 165، 166، 170

الاسم	الصفحة

- و -

- ي -

محتويات الكتاب

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق

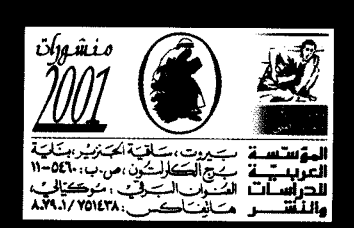
المرحوم الدكتور أحمد سوسة واحد من الكتّاب العرب الأوائل الذين تناولوا التاريخ اليهودي بالقراءة والنقد والتمحيص من خلال سفره المهمّ « العرب واليهود في التاريخ » الذي يعدّ بحقّ من أهمّ ما كتب بالعربيّة في هذا الموضوع ؛ ويأتي كتابه هذا تتمّة لمشروع تصويب ذلك التاريخ المليء بالتزوير والأوهام والأباطيل ، مستنداً إلى المراجع العلميّة من جهة، وإلى انتمائه العميق إلى أمّته العربيّة وتاريخها .

ولعلّ من المهمّ التذكير بأنّ المرحوم الدكتور أحمد سوسة كان يهوديًا عربيًا من العراق ، وأنّه اعتنق الإسلام لشدّة حبّه للعرب ولبلده العراق ، ولذا فإنّه حين يتحدّث عن موضوعه إنّما يتحدّث عنه من موقع العارف لا من موقع العالم فقط .

« .. المصدر الوحيد الّذي يعوّل عليه الباحثون من عرب وأجانب هو ما يلقّنه الصهاينة عن تاريخ اليهود القديم ، وهو ادّعاؤهم - خلافاً للواقع التاريخيّ - بأنّ العراق وطن اليهود الأصليّ لأنّهم هاجروا مع إبراهيم الخليل من العراق إلى فلسطين قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد [..] وهكذا ربطوا نسبهم وأصلهم بإبراهيم الخليل وبالعراق [..] في حين أنّ المعلومات الّتي تركها لنا الأقدمون تدلّ على أنّ اليهود ظهروا في العراق لأوّل مرّة في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد ، أي بعد عصر إبراهيم الخليل بألف ومئتي سنة ، لأنّ إبراهيم الخليل ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد حسب رأي الخبراء المحدثين .

هذا في حين أنّ التوراة ذاتها تؤكّد بكلّ صراحة أنّ إبراهيم الخليل هاجر من العراق بمفرده، فذهب ومعه ساراي امرأته ولوط ابن أخيه ، ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره .. »

ذلك ما يقرّره المؤلّف في مقدّمة كتابه هذا ، كأنّما لينبّه القارئ إلى أنّه مقبل على قراءة كتاب لا يعترف بما هو سائد لدينا من مغالطات تاريخيّة بثّها الصهاينة أنفسهم ليجدوا لهم موقعاً في الزمان والمكان العربيّين ، وكأنّما ليعيد تذكيرنا بأنّ الحقيقة تقول : إنّهم دخلاء على الحقيقة وأعداء لها .



ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق

المرحوم الدكتور أحمد سوسة واحد من الكتّاب العرب الأوائل الّذين تناولوا التاريخ اليهوديّ بالقراءة والنقد والتمحيص من خلال سِفْره المهمّ « العرب واليهود في التاريخ » ، الّذي يعدّ بحقّ من أهمّ ما كتب بالعربيّة في هذا الموضوع ؛ ويأتي كتابه هذا تتمّة لمشروع تصويب ذلك التاريخ المليء بالتزوير والأوهام والأباطيل ، مستنداً إلى المراجع العلميّة من جهة ، وإلى انتمائه العميق إلى أمّته العربيّة وتاريخها .

ولعل من المهمّ التذكير بأنّ المرحوم الدكتور أحمد سوسة كان يهوديّاً عربيّاً من العراق ، وأنّه اعتنق الإسلام لشدّة حبّه للعرب ولبلده العراق ، ولذا فإنّه حين يتحدّث عن موضوعه إنّما يتحدّث عنه من موقع العارف لا من موقع العالم فقط .

« .. المصدر الوحيد الّذي يعوّل عليه الباحثون من عرب وأجانب هو ما يلقّنه الصهاينة عن تاريخ اليهود القديم ، وهو ادّعاؤهم - خلافاً للواقع التاريخيّ - بأنّ العراق وطن اليهود الأصليّ لأنّهم هاجروا مع إبراهيم الخليل من العراق إلى فلسطين قبل أربعة آلاف سنة قبل الميلاد [..] وهكذا ربطوا نسبهم وأصلهم بإبراهيم الخليل وبالعراق [..] في حين أنّ المعلومات الّتي تركها لنا الأقدمون تدلّ على أنّ اليهود ظهروا في العراق لأوّل مرّة في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع قبل الميلاد ، أي بعد عصر إبراهيم الخليل بألف ومئتي سنة ، لأنّ إبراهيم الخليل ظهر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد حسب رأي الخبراء المحدثين .

هذا في حين أنّ التوراة ذاتها تؤكّد بكلّ صراحة أنّ إبراهيم الخليل هاجر من العراق بمفرده ، فذهب ومعه ساراي امرأته ولوط ابن أخيه ، ولم يكن لليهود وجود في العراق في عصره .. »

ذلك ما يقرّه المؤلّف في مقدّمة كتابه هذا ، كأنّما ليُنبّه القارئ إلى أنّه مقبل على قراءة كتاب لا يعترف بما هو سائد لدينا من مغالطات تاريخيّة بثّها الصهاينة أنفسهم ليجدوا لهم موقعاً في الزمان والمكان العربيّين ، وكأنّما ليعيد تذكيرنا بأنّ الحقيقة تقول : إنّهم دخلاء على الحقيقة وأعداء لها .

